

سعود السنعوسي



أسفار مدينة الطِّين

سِفرُ العَنْقُوز

III

رواية

kalemat

مولاف
MOULAPH

الكاتب: **سعود السنعوسي**

الكتاب: **أسفار مدينة الطِّين، سِفرُ العَنْفُوَز، III**

لوحة الغلاف: الفنانة مشاعل الفيصل

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9922-8675-1-9

الطبعة الأولى - 3000 نسخة - تموز / يوليو - 2024

kalemat

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com









كلمة

البَحرُ أجمل ما يكون

لولا شعوري بالضياع

لولا هروبي من جفافِ مدينتي الظمأى وخوفي أن أموت

عريان في الأعماق، أو في بطنِ حوت

إنِّي أحاذرُ أن أموت

محمد الفايز

«مُذكّرات بحّار»

المذكرة العاشرة

(ذخيرةُ أيام الخَرَف)..

فصلٌ هاربٌ من مُذكّرات كاتب الأسفار؛ صادق بوحَدَب

السبت، 23 يونيو 1990

«غايب والشّايب»

والمشكلة التي لم تبدأ بعد

وفي تمام العاشرة البارحة أوقفت سيارتي أمام بيتٍ في الشامية.

كبست زر الجرس، ووقفنا غايب وأنا ننتظر عند الباب الحديدي الأبيض ذي العتبات الثلاث. أمام لوحة رخامية بيضاء خُطّ عليها بالأسود: منزل حمَد حمَد. تطلُّ من وراء السُور الفضاء نخلة مائلة إلى الخارج، وقرب باب البيت أُوقِفَت سيارة «كولت» ميتسوبيشي فضية تساقط رطب النخلة على سطحها.

أنا لا أصف لحظة وصولنا البارحة ومنظر البيت من الخارج إلا تأجيلًا لما لا أدري كيف أكتبه. في شبكة عنكبوت الشايب وجدتني مثل ذبابة عالقة، لا أستطيع تحرير نفسي مما أسقطتُها فيه. صرت أخاف أن أكتب الشيء فيصير حقيقة.. كأنما أقول له صِر فيصير، مثل معجزة لا تُصدّق إلا في رواية فنتازية. هل أنا أتخيل؟ هل كتابة الخيال في السبعين تأخذ العقل؟ هل يصير مثل هذا الشيء لكل الكتّاب لكن يصمتون؟

استقبلنا الممرض الهندي عند الباب بعد أقل من دقيقة من رنين الجرس. قطعنا معه الحَوش واصطحبنا في ممر مفروش بالسّجاد ترابي اللّون إلى صالون الجلوس. وقبل أن ندخل على الشايب المقعَد في الصّالون سبقنا صوته في الممر خافت الإضاءة:

«مَن طوّل الغيبات جاب الغنايم.. حيّا الله مَن جانا».

قطعنا الممر فألفيناه على كرسيه المتحرك في صالون الجلوس. بدشداشةٍ بيتية مقلّمة، ورأسه الفضي كثيف الشعر، ووجهه الذابل بحجم الكف، وعصاه الذهبية فوق ساقيه. صافحناه ثم أشار لنا بالجلوس أمامه على الأريكة، في صالونٍ جدرانه وسجادته بلون

الثراب، وجِبش سقفه مصبوغ بألوان دعائم خشب المانغاروف القديم والخوص بشكل رديء. أجواء تُحيل إلى كويت الطِّين لكن بصورة كاريكاتورية بلا روح. خرج الممرِّض بعدما أمره الشّايب:

«القهوة يا جورج».

ثم سألني عن حالي بلا اكتراث، وهو يعقد حاجبيه الأسودين ويلتهم بناظريه غايب الذي جلس أمامه. فسأله:

«ها؟ اسألني يا طيب».

وما ادخر غايب لحظة ليسأله من أين جاء بتلك الحكايات الواردة في «سِفر العباءة» و«سِفر التبّة». مط الشايب شفتيه وتلمّظ:

«سمعتها من ناس ماتوا.. اسأل عن شيء أهم».

فسأله غايب إن كانت تلك الحكايات حقيقية، فزفر الشايب طويلًا:

«عندك شك؟ اسألني عن شيء أهم».

فسأل غايب بنظرةٍ اخترقت الشّايب:

«من الآخر.. هل أنت سليمان ولد سهيل وشايعة؟ هل أنت أبي؟».

التمعت عينا الشّايب وابتسم ابتسامة غريبة كأنما طَرِبَ لكلمة «أبي»، فأردف مُحشرج الصّوت:

«اسألني عن شيء أهم».

ولا أذكر كم سؤالًا سأله غايب في حوارهما الثنائي، وأنا مثل الأخرس أنصت إليهما في عجب. دخل الممرض مع مصبِّ القهوة النّحاسي وانحنى على غايب يصب له في الفنجان، ووقف جامدًا

على حين يحتسي غايب قهوته. تسارع نبضي وأحسستني غير موجود. والشايب وغايب في حديثهما وأنا لست هنا. كدت أصرخ لولا أن احتسى غايب قهوته وأعاد الفنجان إلى جورج، فأخذه الممرض وأعاد مَلئه، ومد إليّ يده ينظر إلى عيني. احتسيت القهوة الثقيلة فصرت موجودًا. كان غايب يسأل عن أمه وأبيه، هل ماتا؟ تهللت أسارير الشايب وانفرجت شفتاه عن ابتسامته ناقصة الناب:

«إيه.. هذا هو السؤال..».

صمت ينقِّل بصره بيننا. أشركني أخيرًا في حوارهما بنظرة، فأحسسته يجرني إلى ورطة. أكمل حديثه لـ غايب:

«..إن سألتني عن حال أبيك أمس فسأقول إنه ينتظرك».

أين؟ سأله غايب وأشفقت عليه من لهفته على أبيه أمام المتلاعب الخرِف. أجابه الشايب:

«في الوطية.. مقابل المستشفى «الأمريكاني» القديم، لكن الحكومة ردمت البحر في ذلك المكان منذ سنوات، وبنَت فوقه القرية التراثية وما عادت الصخرة ظاهرة.. لكنها ما زالت في الأرض تحت بوابة قرية يوم البحّار».

قال غايب إنه لم يفهم، وما قلت إني فهمت. الشايب يدعو الرّجل إلى أن يكرر فعل سليمان في الرواية. قال له إن أراد أن يلتقي أباه فإن عليه أن يجعل بوابة القرية التراثية وراء ظهره، فيخلع نعليه على السّيف. انفرجت شفتا الشايب عن الابتسامة ناقصة الناب إياها، وأردف:

«..وادخل الماء حين يقول الفجر الله أكبر. وإياك أن تقف قبل أن يصل الماء إلى سرتك. وحين يختم المؤذن أذانه عُدّ الموج أمامك.. واحدة.. اثنتان.. ثلاث.. حتى إذا ما أقبلت الموجة السابعة أُدخلها تَبّة كاملة، ولا تخرج ولو انقطع نفَسُك.. حينها فقط يتحقق مطلبك، أول ما تخرج من التَبّة؛ تجد أباك أمامك ينتظر».

نهض غايب من الأريكة، وبالمثل فعلت، وقال إنه عائد إلى فَيْلَكا، وقلت إني عائد إلى البيت. هذا الشايب المختل يريدني أن أشهد حادثة انتحار. المريض يريد من رجل مشوّه الروح والوجه أن يتوّج حياته البائسة بالانتحار. ومن أجل ماذا؟ رواية؟ إن أصبث المجد بموته يُصيب هو ماذا؟ وأي مجد وكل يوم تتفجر من الكتاب مشكلة؟ هي المشكلة التي على ما قال إنها لن تخطر لي على بال! وهل يخطر مثل هذا الموقف على بال أحدٍ حتى لو كان كاتبًا؟!

«بات عندي يا طيب، لا عبّارة تخرج في هذا الوقت إلى فَيْلَكا.. ابقَ عندي ليلة أو ليلتين لتسمع مني أكثر.. عن أمك وأبيك.. وسوف تفهم الكثير».

حملق غايب إلى وجه الشّايب طويلًا قبل أن يقول:

«أنتَ أبي».

اخضلّت عينا الشّايب وارتعشت شفتاه، ثم التفت إليّ:

«اذهب يا بوحَدَب وأكمل الكتابة على ما قلت لك».

هو يدري أني متورط في عدة فصول متفرقة من الجزء الثالث كُتبت بلا ترتيب، وأني لم أنهِ أول فصول الجزء الجديد، الفصل

الخامس والأربعين. لا أستطيع إتمامه وقد آلت الرواية إلى هراء. استدرت وخرجت من صالون الجلوس. مشيت في الممر المظلم وافتقدت حِسّ غايب ورائي. وأكملت خروجي إلى الباب لكن الرجل لم يتبعني. نظرت إلى آخر الممر واستغربت بقاءه في الصّالون. وحينما عدت لآخذه معي إلى البيت وجدته جالسًا على الأريكة ما زال، يُشير لي بيده مودّعًا:

«أبات هنا.. يمكنك الذهاب أستاذ».

«قلت لك ألف مرة لست أستاذًا! أنا صادق.. ألا تفهم؟! اسمي صادق».

«يمكنك الذهاب..».

باع المغفل كاتبه الأثير، وصدّق الشايب وأمِن البقاء في بيته. وعدت إلى بيتي أتوسل ساعة نوم بعد هذا اليوم العجيب، وما نمت لحظة. قلت في البدء إنها قهوة الهندي الثقيلة أطارت من عينيّ النوم، لكن الأرق مردّه إلى بيت الشايب. ما الحقيقة في ما كتبتُ يا حقيقة، ما الخيال؟ أنا أفقد صوابي. كان ينبغي أن لا أترك غايب في ضيافته. الشايب الخبيث لا يريدني أن أشهد شيئًا كما ظننت. لا يريدني أن أحضر حادثة انتحار مدبرة. هو ما عاد في حاجةٍ إليّ بعدما أوصلت إليه غايب. انتهى دوري وخرجت من بيته ساذجًا بثلاثية غير مكتملة، وجزء من مسوّدة لا أدري كيف أنجزها.

وفي طريقي صباح اليوم إلى المكتب كنت أفكر في غايب، على يقين من أنه في تلك اللحظات يبحر بأولى عبّارات الصّباح إلى الجزيرة. حاولت أن أنهي الفصل الخامس والأربعين من الرواية،

وقرأت ما عجزت عن إتمامه، وما استطعت أن أنهي الفصل وقد انفرطت الشخصيات من يدي، منذ خروج سليمان وصنقور من التَبّة كما أخبرني الشايب في آخر جلساتنا في المكتب قبل أيام. تلك التطورات المفاجئة أشعرتني بأن الممثل المعتزل متأثر بأفلام السينما على نحو مجنون. قرأت اليوم من المسودة في المكتب كل تلك التفاصيل/ التخاريف التي كتبتها، ولم أستطِع إنهاءها.

وعدت إلى البيت في ساعة متأخرة، وما كدت أغفو حتى صحوت على رنين البيجر قبل الفجر. تمنيته رقم إبليس لو كان لإبليس هاتف، على أن يكون رقم الشايب الذي ظهر في شاشة البيجر. قلت ربما غايب ما زال في ضيافته ولم يغد إلى الجزيرة صباح أمس، وهو مَن يتصل مِن بيت الشامية. واتصلت، لكنه الشايب:

«نحن ذاهبون إلى الوطية».

وأقفل السّماعة المجنون. ارتديت دشداشتي واعتمرت طاقيتي وخرجت مسرعًا إلى السيارة دونما غترة ولا عقال، غير منتبه إلى قدميّ في نعلي الحمام الزرقاوين. وقدت سيارتي بسرعة لعلي أصل من الفيحاء إلى الوطية قبل انتهاء أذان الفجر. لكني وصلت إلى مواقف القرية التراثية بعد انتهائه. ترجلت من سيارتي ومررت بسيارة الشايب الـ «كولت»، والممرض فيها يجلس وراء المقود. طرقت زجاج السيارة فأشار لي صوبَ الساحل، وأسرعت إلى حيث أشار وراء سور القرية، فوجدت الشايب وحده يتعكّز عصاه واقفًا يواجه البحر، يدير ظهره إلى كرسيه المتحرك على درب مرصوف بالطابوق الأحمر قرب الصخور. أقبلت عليه وكان ينظر بعيدًا إلى الأمام. تجاوزته أمشي فوق صخور الساحل، أتخبط بعلب

المشروبات الغازية وزجاجات الكولونيا الرخيصة؛ «جاكسون» و«777». ووقفت أنظر صوبَ ما ينظر إليه، ولم أرَ في غبش الفجر شيئًا. قال وهو يعاود الجلوس على الكرسي المتحرّك:

«راح الرجل.. متى نكمل الجزء الثالث؟».

«قُل لي إنك تقصد أن قاربًا أخذه إلى فَيلَكا».

«راح الرجل عند أبيه.. متى نكمل الجزء الثالث؟».

يتحدث المعتوه كأن مصيبة لم تقع. انفلتت أعصابي:

«إن كان قصدك أنه أغرق نفسه فهذا جنون! سوف أبلغ الشرطة.. لقد أوقعتنا في مشكلة لا يمكن الخروج منها».

تنهّد وهو يجيل بصره بعيدًا:

«لن تعثر عليه الشُّرطة ولن تطفو جثته لأنه لم يمت..».

وتأفف قبل أن يقول جملته الكريهة:

«..ثمّ إن المشكلة لم تبدأ بعد».

أسند عصاه إلى ساقيه وطلب مني أن أدفعه بالكرسي إلى سيارته حيث ينتظره الممرض في مواقف السيارات، وقال:

«..واذهب أنت إلى مكتبك الآن.. وأكمل الكتابة على ما اتفقنا، فأنت تدري إلى أين يذهب سليمان وصنقور، وإلى أين ذهب غايب.. اكتب يا كاتب الأسفار فما مات سليمان والله العظيم.. ولا مات غايب. اكتب لأن الولد يجب أن يسوي أموره مع أبيه».

وذهبت إلى مكتبي مرغمًا لست أدري لماذا. وما استطعت إتمام

الفصل الخامس والأربعين لولا وهمٌ شاهدته من النافذة، خيالًا تجسّد مثل حقيقة في منتصف دوار الشيراتون بعد الشُروق. فهاتفت الشايب لكنه لم يرد، وعاودت الاتصال بعد وقت فرنّ الهاتف طويلًا فرد. وأخبرته أني رأيت من نافذة مكتبي شيئًا لا يدخل العقل. فقال لي:

«أدري.. اكتب ما رأيت.. واكتب ما قلت لك.. زِد على ما تريد، لكن إيّاك أن تُغيّر».

«لكن ما تقوله لا يُصدّق!».

«أكتب يا كاتب الأسفار وسوف تُصدّق».

***

مسوّدة

مشروع الجزء الثالث من أسفار مدينة الطين

(سِفرُ العَتَقُوْز)

مراجعة قبل نهائية

صادق بوحدب

«يهربُ مِن سِفر التَبّة مثل العَنْفُوْن،

فيعودُ إلى بيته القديم مثل المُولاف»

أُم حدَب

سِفرُ التَبّة: 23

يبدأُ سِفرُ العَنْفُوْز

يسبقه سِفرُ التَبّة

(45)

سِفرُ الخروج: من سِفر التَبّةِ إلى سِفر العَنقُوُز

♪ يا حلو صوت البلابل فوق أغصان الزُّهور ♪

خالد العيّاف

اِترك دِشداشتي يا ولد.. اِتركها!

شهقَ صَنقُور ملءَ رئتيه فور خروجه من التَبّةِ في ليلةٍ ظلماء يوم ولادة الهلال. ورأس سليمان، بلا غترة، بين ساقيه تحت الماء لم يزل. هبط ابن خادمة المقام عن كتفيِ صاحبه الغريق، وسحبه من تحت إبطيه مُبرزًا رأسه للهواء، وجرّه إلى الرمل في ساحل الوَطية مثل خرقة رطبة، وقد أنهكته التَبّةُ الطويلة في الموجة السّابعة. استفرغ سليمان مالح الماء وسقط مغشيًا عليه. فعاود صَنقُور جرّه على الرمل بين صخور السّاحل، وابتعد به عن البحر حتى حاذى جدارًا طينيًا يُقابل مشفى الإرسالية. تركه على الأرض، فطرقَ بابًا جانبيًا في الجدار ونادى:

«عيّاد».

سارع كهلٌ عملاق، بسروال داخلي طويل وقميص قطني أبيض، وفتح الباب. وخفضَ رأسه الأصلع إلى ما دون بطنه وأبصر صَنقُورَ القصاصة:

«الله! كولمن؟!».

فتح الباب أكثر يدعوه إلى الدّاخل:

«تفضل كولمن.. تفضل».

لكن صَنقُور لم يتفضل بالدخول، وطلبه في خدمةٍ ورجاهُ أن يتبعه. وسار الرجل ضخم الجُثّة وراء القصاصة. فانحنى على سليمان ورفعه بين ذراعيه العضِلتَين، وعبر به الباب من دون أن يفوه بكلمة. تبعهما صَنقُور متجاوزًا الجدار، ودخلوا ساحةً ترابيةً مظلمة بين بيوت الطين والدّكاكين ذات البيبان الخشبية. ودلف عيّاد بـ سليمان إلى داخل مقهى عتيقٍ يخلو من النّاس، ووضعه على كرسي خشبي طويل. ثمّ التفت إلى صَنقُور الذي أجابه قبل أن ينطق بكلمة:

«لا تنادي أحدًا.. سوف يصحو ونرحل بسرعة».

بدا عيّاد معتكر المزاج على غير ما اعتاد صَنقُور الذي حيّرته عقدة حاجبَي الرّجل. انحنى الكهلُ وأسند أُذنه الكبيرة إلى صدر سليمان، فمرّر كفّه الضّخمة على أنفِه واطمأن. ثمّ خرج من المقهى ودخل بيتًا طينيًا أمام السّاحة الثّرابية، وخرج مرتديًا ثوبًا رماديًا فضفاضًا. وجاء بمقعدين خشبيين وضعهما أمام عتبة المقهى المطلة على السّاحة الثّرابية. جلس صَنقُور يتحرّى من صاحبه أن يفيق. فنهقَ حمارٌ بُنّيٌ مربوط تحت نخلةٍ مائلةٍ إلى بئر، ينوخ إلى جواره بعيزٌ نائم. أجاب عيّاد الحِمارَ من الدّاخل:

«حاضر.. حاضر».

ثم وضع طاولة خشبية صغيرة وكأسَي شاي أمام صَنقُور. واختفى وراء البيت الطّيني الملاصق للمقهى وعاد بحزمة برسيم أسقطها أمام الحمار المربوط إلى جوار البئر. واندسّ في المقهى ثانية

قبل أن يخرج بنارجيلةٍ تتوهّج في رأسها جمرة. وجلس إلى جوار صَنقُور، فسحبَ نفسًا من الدُّخان، ثمّ ناوله القصبة وهو يسأل إن كان في الأمر مشكلة. وثقرقر النّارجيلة، ويحبش شبيه الأقزام دُخانها في صدرِه قبل أن ينفخه منتشيًا. ويوشك أن يردّ على ما اعتاد بصوته الطفل: «لو عرفتَ لن أعود»، لكن الحنَق المتجسّد في ملامح عيّاد على غير المألوف شاغل صَنقُور، فسأله:

«هل أنت بخير؟».

وعيّاد في الملكوت سارحٌ ساكنٌ بين شخب الدُّخان الأزرق لا يستجيب. نبّهه القصاصة وأشار إلى ما بين حاجبيه:

«فُكّهما!».

وما فكّهما عيّاد وبرطم:

«اِنغلبنا من أولاد الكلب الإنكليز».

ولا يدري صَنقُور أي حربٍ كسبها الإنكليز. فعطسَ سليمان داخل المقهى فسكت الاثنان عند عتبة الباب. أفاق ولد شايعة، واعتدل جالسًا على المقعد، فاغر العينين يُجيل النّظر بين الجدران الطّينية المدهونة بالجِصّ ودعائم السّقف الخشبية. استقام ومشى بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى حيث يجلس صَنقُور والرّجل الضّخم عند العتبة، ودِشداشَته سماوية الزُّرقة ما جفّ ماؤها المالح. نظر إلى العملاق الجالس إلى جوار رفيق التّبّة، كبير الأنف والأُذنين، فتحسّس رأسه وأُذنيه قبل أن يقول لـ صَنقُور:

«أين غترتي؟».

«ضاعت منك في البحر أكيد».

جلبَ عيّاد مقعدًا ثالثًا وشايًا وماء. وضع الكأسين أمام الفتى الذي كرع الماء وتبعه بالشّاي وهو يتلفّت حوله. مقاعد خشبية تحت سقيفةٍ من السّعف، ونارجيلات فخّارية مصفوفة على دكّةٍ طينية، ودكاكين غريبة تطلُّ على ساحةٍ لا يعرفها. يرتاب كيف لا يتذكر وصوله إلى هنا. ويمدُّ إليه صَنقُور قصبة النّارجيلة ويردُّها سليمان وهو يُجيل النّظر في المكان. فيضع ابن الصاجّة الضّحوك النّارجيلة في حضن صاحِبه، ويناوله القصبة وهو يقول إن دُخانها سِحريٌّ ليس كمثله دُخان:

«هذه تساعدك أن تصدّق.. طِعني».

ولا يدري سليمان ما يُصدّق، ويحملق إلى عينيّ صَنقُور، حمراوين مُرتخيتَي الجفنين. ويسحبُ زبع نَفَسٍ فيسعل ويُبعد القصبة إلى صاحِبه. فيدفعها القصاصة إليه ثانية ويقول: «طِعني». ويسحبُ ولد شايعة نصفَ نَفَسٍ ويسعل. ويُكرِّر صاحبُه القول فيطيعه سليمان. ويسحب نفَسًا كاملًا، ويكاد أن يطلق الدُّخان من صدره لولا أن هامَسه صَنقُور: «اِحبس». وحبَس. فغرّد في رأسه بُلبُل. وأدرك أنه ليس في الدّيرةِ التي لا تعرف البلابل. *أين أنا؟* تلفّت ثانية وهو يمدُّ يديه بالنّارجيلة إلى صَنقُور الذي مرّرها إلى عيّاد. *هذا ليس مقهى بوناشي*. ولا مقهى الطّواويش في سوق البدر. *ولا مقهى الحمّارة*. وأنصتَ إلى صوت البحر في الجوار، فهجسَ يوهم نفسه. *إنه مقهى مُلّا عبّاس على سِيف الفُرضة*. لكنه لا يتعرّف في البيوت الطينية والدّكاكين من حوله مكانًا مألوفًا في الحيّ الشرقي ولا القِبلي ولا المرقاب. *أيّ مكانٍ هذا وأي شيءٍ جاء بي؟* ودارت قصبة النّارجيلة

على الثّلاثة وقتًا جفّت فيه دِشداشَتا الرّفيقين. وسليمان يُطيل النّظر ويُنقّله بين أُذني عيّاد الكبيرتين وبين منبت إبهامه الموشوم بعلامة + صغيرة. ومال صَنقُور إلى رفيقه وذكّره بما أوصته أمُّه خادمة المقام أوّل خروجه من التّبّة. فتذكّر سليمان أن يسأل عن بيت مَن؟ بيت *مستور الـ ماذا؟*

«نسيت اسمه».

قال سليمان وهو لا يزال يُحدّق إلى أُذنَي عيّاد، فأجابه صَنقُور بنصفِ إغماضة:

«زين إنك ما نسيت اسمك».

انفكّت عقدة حاجبَي عيّاد وأشرع فمه يُقهقه، ثُمّ حثّ صَنقُور صاحبه على الإسراع إلى بيت شقيقه مستور. وشدّد على الحروف وهو يذكر اسمه الذي نسيه سليمان؛ مستور المُصَوْقَر:

«تقدر تمشي؟».

سأل صَنقُور، وأجاب سليمان نافثًا دُخان النّارجيلة الأزرق:

«أقدر أطير».

واختضّ جسد عيّاد يكتمُ الشعال في فورة ضحك، منتشيًا بدُخان نارجيلته. ونهض ابن خادمة المقام يدعو سليمان إلى الباب الذي دخل منه محمولًا بين ذراعي العِملاق. فوقف سليمان يخزرُ عيّاد المُغرب في القهقهة. ومدّ إليه ثمن الشّاي والدُّخان العجيب بالرُّوبِيّةِ الأخيرة من الرُّوبيّات الخمس التي استلفها من سعدون يوم أمس. فهجمَ صَنقُور على كفّ سليمان وخطف الرُّوبِيّة:

«حاسبته قبل أن تصحو».

ودفعه ليمشي أمامه. وسليمان يمدُّ إليه كفَّه:

«مشكور.. هات الرُّوبِيّة».

وعيّاد يتبعهما لا يسأل عمّا لا يعنيه وفق اتفاقٍ سابق مع من يُسميه كولمن. اكتفى حارس المكان بأن يُسايرهما إلى الخروج من الباب الجانبي مودّعًا، وسليمان يستغرب لهجة الرّجل. ودّعه القصاصة على وعد لقاءٍ قريب، ووقف سليمان قبل خروجه أمام لافتةٍ زرقاء مستطيلة أعلى الباب كُتِب عليها: وزارة الإعلام - قرية «يوم البحّار» التّراثية.. رافقتكم السّلامة.

ولم يفهم سليمان إلا أن نارجيلة عيّاد تجيء بالعَجَب. تجاوز الباب الجانبي مع صَنقُور، فاتّسعت عيناه حينما أبصر بُنيانًا ضخمًا غريبًا أبيض يُشبه خيمة أو شراعًا. *هذا ليس حقيقيًا. هذا بفعل نارجيلة عيّاد*. تقدّم بخطواتٍ متردّدة. أدار وجهه عن مبنى البرلمان المعطّل، والتفتَ جنوبًا فشاهد مبنى «بيت الزُّجاج» بين المباني الغريبة، على مسافة عبور شارعين، بينهما رصيف اصطفّت فيه أعمدة الإنارة في طابور لا نهاية له ولا بداية. *والمكان غير معلوم*، والوقت غير مفهوم. *السّماء ليلٌ والأرض نهارٌ*، ولا نجمة في السّماء، كأنما تدلّت النّجوم من أعمدة الإنارة دانيةً من الأرض التي مارت تحت قدميه. وتذكّر قول أُم حَدَب عن النّجوم إن هي نزلت كانت نذيرًا. ومرّت في باله أسطورة بُوْدَرْياهْ. وشعر بنفسه قزمًا أمام الأبنية العملاقة المضيئة. وارتعشت ساقاه فأسند كفّه إلى كتف صَنقُور:

«لا أقدر».

بُهت حينما ضوّت أمامه الـ «كولت» الفضيّة تنعطف في موقف السّيارات الخالي أمام القرية الثّراثية، سيارة غريبة الشّكل لا تُشبه الـ Minerva البلجيكية. *لا تُشبه فيل الأمير.* أطفئ محرّك السيّارة فترجل من الباب الأيمن رجل شائه الوجه يستر عينيه بنظارة سوداء، نظر صوبَ سليمان لثواني، وسليمان لا يفهم ماهية الشيء الأسود على عيني الرّجل. وترجّل السّائق بلباس أبيض. *يشبه لباس سركيس في بيت الزجاج.* وأنزل من صندوق السّيارة كرسيًا غريبًا له عجلتان. وعاون الشّائه والسّائق مُسِنًا أشيب الشّعر على النّزول من السّيارة. وجلس المسنُّ على الكرسي ذي العجلات بدِشداشَةٍ مُقلّمةٍ وشعر كثيف أشيب. وعاد السائق وراء المقود ينتظر، ودفع الرجل المشوّه الرجل المسن بالمقعد المتحرك صوبَ البحر حينما قال الفجرُ الله أكبر. وتوجّسَ عيّاد من حضور أولئك النّاس في مثل هذا الوقت. ووقف يراقبهم وهُم يمضون صوبَ البحر.

سأل سليمان صَتقُورًا لماذا يجلس المُسِنُّ في «عربانة»، وقبل أن يُجيب الأخير انتفض جسد سليمان لصوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر على ما لم يسمع في سني عمره السّبع عشرة. صدحت مُكبّرات الصّوت في مئذنة مسجد «السّاير»، فردّت عليها مآذن المساجد المحيطة وأرعد ذكرُ الله في الفضاء. ودبّ نمل الإجلال القديم في وجه سليمان وفي جسده، وخشعت روحه، كأنما السّماءُ بالأذان تزجره. ورفع الفتى بصره يُجيل النّظر في السّماء، وطلائع الضِّياء تُسابق الشّمس تُبدد غبش الفجر. فبرقَت في خياله سماءُ الحَوِشِ في بيت «المطبّة»، عند باب حُجرة فضّة بعدما صفعته شايعة بالقول إنها أخته لو فكّر في العِناق. كاد أن يخُرّ ساجدًا بعد انتهاء الأذان لولا

ظهور سيارة مسرعة دخلت مواقف السيارات. ترجّل منها رجلٌ هرمٌ يرتدي الدّشداشة والطاقية، يلهث وهو يُسرع المشي بنعلين زرقاوين إلى السيارة الـ «كولت» التي وصلت قبل الأذان. طرق زجاجها فأشار السائق إلى جهة البحر.

أطبق صَنقُور كفّه على معصم سليمان وعبر به الشّارع الأوّل، وقفا على الرّصيف، يتلفّت القصاصة تحت عمود الإنارة، ويسأله سليمان وهُما يعبران الشّارع الآخر صوبَ «بيت الزُّجاج» أو على ما حملت اللافتة أعلى بوابته الرئيسة «متحف المستشفى الأمريكاني – تأسّس 1913»:

«أين نحن؟».

«في الدّيرة».

أجابه صَنقُور عند وصولهما إلى الرّصيف المحاذي لمشفى الإرسالية القديم. وسليمان يتحسّس الأسفلت والرّصيف بقدميه الحافيتين، كأنما يقف على ضِفّةِ نهرٍ من قطران يابس. والفجر يضجُّ بزقزقة الزّرازير وهديل الفواخت وتغريد البلابل. *بلابل؟* تلفّت سليمان:

«أي ديرة؟».

حثّ صَنقُور خطوه بين المباني موليًا ظهره للبحر، متجاوزًا المستشفى عن يمينه، وسليمان وراءه يتحرّى منه إجابة. قال صَنقُور:

«الدّيرة التي لا تريد مفارقتها، لكنك لا تريد أن ترى أهلك فيها..

هذه مطالبك لأمي في المقام البارحة، لا بارك الله في مطالبك.. ها نحن عبرنا التَبّة، وقد مر بنا الزمن سبعين سنة.. لم تفارق الديرة، ولن تقابل أمك ولا أختك من الرضاعة لأنهما تُوفيتا، ولن يلاحقك كلام الناس لأن لا أحد يعرفك في هذا الزّمن.. اذهب وابحث عن ولدك الآن، وأخبره بما شئت، حقق آخر مطالبك قبل أن نعود، لا بارك الله فيك ولا في مطالبك الخايسة».

أبطأ سليمان في مشيه. توقّف فقال:

«هذا الذي اسمه عيّاد..».

أجابه صَنقُور:

«ما به؟».

تلكأ سليمان قبل أن يسأل:

«لماذا أذناه كبيرتان جدّا؟ هل ورثهما عن أبيه؟».

«وما أدراني عن أبيه؟!».

أجاب صَنقُور، فطلب منه سليمان أن يعود به إلى حَوْطة سعدون فورًا، لأن هذا كثير على عقله. توقف صاحبه القصير عن المشي، وقال إنهما سوف يعودان ويظهران مِن مِثل الموجة السّابعة التي غطسا فيها أمام صخرة الوَظية، لكن شرع التَبّة يشترط بقاءهما في هذا الزّمان مدّة، قبل أن يتمكنا من عبورها عودة إلى أمس.

«مدّة؟!».

سأل سليمان، فأجاب القصاصة على ما صرخ حينما جزّهُ صاحِبه

لحظة التَبَّةِ في الموجة السّابعة:

«شهر.. شهر لا بارك الله فيك.. شهر..».

واستأنف صَنقُور المشي والحديث:

«..نعود وقت ولادة الهلال، إذا ما فعل القمرُ فعله بالسّجي والعَّبر».

وقطعا الطريق على أحاديث القمر والمدّ والجزر، بين الكنيسة الإنجيلية الوطنية ومسجد «السّاير» العتيق. وواصلا المسير وسليمان يرفع رأسه إلى الكلمات الكبيرة المُضاءة أعلى المباني، واللافتات السّود عند الإشارات ممهورة بشعار وزارة الصحة أعلى عبارة: لا للمخدّرات، والإيدز مرض العصر. وصَنقُور لا يكفُّ يكيل الشّتائم لصاحِبِه، ويلومه على تشبثه بدِشداشَتِه قبل عبوره التَبَّة. كان ينبغي لـ سليمان العبور وحده ومواجهة مصيره وفق مطالبه من خادمة المقام. وولد شايعة يفهم ولا يفهم، يُصدّق ولا يُصدّق. ويُطمئن نفسه بأنه يحلم، أو أن دُخان نارجيلة عيّاد قد عبث بعقله. وتبع صاحبه مثل مسحورٍ يُبحلق إلى المباني التي لا تشبه بيوت الطّين في شيء. وصَنقُور الخبير بالمكان يقوده إلى مكان. يتجاوز مبنى الخطوط الجوية الكويتية عن يساره، وسليمان يُجيل البصرَ في أعمدة سوره الأسمنتي الأبيض وأقواسه، ثمّ يقطع الشّارع أمام فندق كارلتون تاور وينعطف يمينًا في آخر الرّصيف، مُخلّفًا مُجمّع المثنّى ببنايَتَيه الكبيرتين وراء ظهره. ويُنصت إلى حديث الرجل الحبيس في جسد طفل. يُمطره بأخبار العقود السّبعة؛ تُوفّي الشّيخ سالم بعد معركة الجهراء ببضعة أهلّة، فخلفه نائبه وابن أخيه الشّيخ أحمد، ومن بعده الشّيخ عبدالله بِكرُ الشّيخ سالم، ثمّ أخوه

الشّيخ صُباح، فآل الحكم بوفاته إلى الشّيخ جابر ابن الشّيخ أحمد. وسليمان يُحاول لملمة شتات أفكاره في متاهة الشُيوخ هذه، ويتذكّر حروفًا نقشَها الشّيخ سالم أعلى بوابة القصر: *لو دامت لغيرك*..

«أما زال قصرُ السّيف موجودًا؟».

سأل ولد شايعة وأجابه ولد خادمة المقام وهو يُشير خلفه:

«ما زال.. وما زالت الكلمات القديمة منقوشة أعلى بوابته».

***

عبرَ صَنقُور التّبّة أوّل مرّةٍ قبل بناء الشور بستّ سنوات، ارتحل به الزّمن إلى ربيع عام تسعين من أجل كتابَين لا ثالث لهما. قالت الصاجّات إنهما يُكتبان في الغد ويُحفظان في الأمس. وكلام الصاجّات يُفهم ولو بعد حين. قيل إن في الكتابَين الحقيقة، وإنهما سوف يختفيان ما لم تحتفظ الصاجّات بنسخةٍ منهما. وما فكّر صَنقُور المبعوث من أمس في سِرّ الكتابَين، لكنه ابتاعهما من مكتبة «الرُّبَيعان» وعاد إلى أُمّه من التّبّة بما طلبت، فأرسلت الصاجّة أم صَنقُور ولدها الأصغر مستور من الجزيرة بالكتابَين، يمكث في الدّيرة ينتظرُ تحقُّق النّبوءة؛ أن تحطّ فيها البلابل، فيجيء أحدٌ لا يدري أحدٌ من يكون، يُسلّمه الكتابَين فيقدرُ أن يعود بعدها إلى جزيرته الأثيرة.

وعبَر صَنقُور بعد التّبّة الأولى تبّات، وكان شرط أُمّه للعبور ألا يعرف أحدٌ بسرّ التّبّةِ من خارج الأسفار، وإلا بلعَته التّبّة لو انكشف سِرُّها. وكتمَ ولدُها السّرّ، وعبرَ إلى أزمانٍ وأزمان، يتقصّى فيها أخبار الغد ليعود بها إلى أُمّه خادمة المقام في الأمس، يُنبئها بما تُخفيه الأيام ويكشف لها طالع الدّيرة التي ضاعت عباءتها. ويتبضّع في

كل زمن احتياجاتها من علاجات حديثة تداوي بها أهل الجزيرة. ويعود في كُلّ مرّة بدزينة من زجاجات دواء الأطفال الإنكليزي «ماي غريب» لأم صَنقُور، وطاسات النُّحاس المنقوشة بآية الكرسي، والعجينة السّوداء التي يبعث استنشاق دُخانها على الضّحك، وعلبة بطاريات حجرية يشحن بها مصباحه اليدوي، «الثريك»، مُعجزته التي أبهرت النّاس في فَيلَكا كلّما شعّ من كفّه الضّو، وكلّما حبس الضّوّ في كيس.

ومن بين كُلّ تَبَاتِه، دأبَ صَنقُور على زيارة الكويت سنة تسعين. وظهرت صوره في الجرائد، يجلس في سيارة «فِيات 500» بيضاء قديمة، بدِشداشَتِه ترابية اللّون معقوفة الياقة. وأسمته الجرائد على ما أسماه زوّاد القرية التّراثية والسّوق القديم؛ كولمن الكويتي، لشِدّة شبهه بالممثل الأمريكي ذائع الصيت Gary Coleman. وظهر في تقريرٍ مصوّر في برنامج «استراحة الجمعة» على القناة الأولى. يُغني مع فرقة القرية، ويُبهر الطّفلُ زُوّارها بعذوبةِ صوتِه ومعرفتِه ألوان الفنون التّراثية. ظهر في تقرير البرنامج بالصّوت والصّورة يُغني على الإيقاعات الشّعبية من السّامري والقادري والخمّاري والخِضري، والنّاس من حوله تُصفّق وتُحيّيه.

صَنقُور نفسه استغرب تطابق الشّبَه حينما شاهد كولمن على غلاف مجلة دليل التلفزيون، في إعلان مسلسل Diff'rent Strokes، بحجمه الصّغير وبشرته الدّاكنة وابتسامته الغاطسة بين خدّيه المكتنزين. ولا يدري النّاس من أين يجيء كولمن الكويتي في الحقيقة، فهو يكذب ولا يكذب حينما يُجيبهم بأنه من جزيرة فَيلَكا، غير أنه يسكت عن القول إنه من تلك الجزيرة لكن قبل سبعة عقود

خَلَت، قطع الزّمن وجاء يزور شقيقه السّاكن في القطعة 1 في منطقة كيفان.

ما أحبّ صَنقُور في المدينة مكانًا مثل القرية التّراثية، أليفًا بخلاف البيوت حديثة المعمار التي ألفاها غريبة باذخة الإنارةِ، اللّيلُ فيها يُشبه النّهار، شديدة البرودة كأنها عالقة في شِتاءٍ أبدي. اعتاد في زياراته سنة تسعين أن يقضي مُعظم مدّة التّبّة المرهونة بشهرٍ في ساحة القرية التّراثية، بعدما عقد صداقة مع حارسها عيّاد. تعرّف إليه صَنقُور في تَبّةٍ مبكّرة من تبّاتِ سنة 1990. كان ذلك قبل شهور. يُمضي جُلّ وقته رفقته بعدما تُغلق القرية أبوابها ليلًا، يُطعم الحمار ويشاهد التلفزيون ويشرب الشّاي. ولا يسمحُ له عيّاد بلمس النّارجيلة لأنها بحسبِ قوله ليست للأطفال. وودّ صَنقُور أن يبوح بسنوات عمره الثّلاثين لكن من يُصدّق؟! وسكت عن سِرّه حتى عبرَ ثانية إلى أمس. وشاهد حارس القرية في نهاية تلك التّبّة الطفلَ كولمن، يغطس فجر ولادة الهلال في البحر ولا يخرج. كان عيّاد على ما اعتاد يحملُ عصًا ثبّت في رأسها نصل سِكّين، يصطاد بها السّمك العالق في حُفر المياه الضّحلة ساعات الجَزْر. ولمحَ حارس القريةِ التّراثيةِ الطّفلَ بعيدًا ساعة الأذان ذاك الفجر، وناداه: «كولمن!»، لكن الطّفل البعيد اختفى في موجةِ المَدّ المُقبل. فأبلغ عيّاد الشرطة وتحرّكت زوارق خفر السّواحل وسيارة الإسعاف، ومُشّطت المنطقة وما عُثر على صَنقُور. فنشرت الجرائد خبرًا أسفل صورته بوجهه الباسم وخدّيه المكتنزين: «غرق كولمن الكويتي في ساحل الوَطْية». وتوالت أخبار عدم عثور زوارق خفر السّواحل على الجثة أسبوعًا، ونُسِي الخبر وما نَسي عيّاد صَنقُور. وراوده الشّكُّ أن ما رآه لا يعدو

خيالًا في رأسه بتأثير نارجيلته العجيبة التي يُسميها «الجوزة».

وبعد أسابيع ظهر ابن خادمة المقام الآتي من أمس مرّة أخرى. وما صدّق عيّاد عينيه حينما شاهده يدخل القرية التّراثية بابتسامتِه الغاطسةِ بين خدّيه، ودِشداشَتِه تُرابية اللّون ذات الياقةِ المعقوفةِ وجِرمه الصّغير. والتفَّ زوّار قرية «يوم البحّار» حول كولمن الكويتي، واحتفى به الأطفال وتزاحموا حوله. ولمّا أطبقت القرية بوابتها بعد انصراف النّاس في الليل، حاصر عيّاد صَنقُور بالسّؤال:

«شاهدتك تغرق بعد أذان الفجر قبل أسابيع.. كيف عدت؟».

فحذّره ابن خادمة المقام بأنه لن يعود إلى زيارته إن أجاب على سؤاله. وما سأل عيّاد. وظهرت لـ صَنقُور صورة جديدة في الجريدة بين الأطفال في القرية تحت عنوان: «عودة كولمن الكويتي!». وتزاحم النّاس على القرية في الأيام الموالية. يحسبه الأطفال بطل المسلسل الأمريكي الذي تبثّه القناة الثانية. وتأخذ الأهالي الدّهشة للشبه الخارق بين طفل القرية وطفل التلفزيون. وما فوّت عيّاد فرصةً بعد انصراف النّاس وإغلاق البوابة. اقترح على صَنقُور فكرة يكسب الاثنان من ورائها قرشين بالحلال. ابتسم عيّاد:

«..لي ثلاثة شهور ما استلمت فيها راتبي.. تقدر أن تقول إني أشتغل مثل العبد بلا مقابل.. فما رأيك بشغل يكسبنا ذهبًا؟».

وما فهم صَنقُور إلا بعد يومين، حينما جاء إلى القرية التّراثية قبل افتتاحها في باكر الصّباح. وأدخله عيّاد غرفته المبنية على الطراز الطيني القديم. أعطاه الحارس بنطلون جينز أزرق وتي شيرت أحمر، وحمل بين يديه كاميرا Polaroid. تردّد صَنقُور في استبدال

ملابسه، لكنه سايَر عيّاد وانحنى يرتدي الجينز أولًا تحت الدِّشداشَة، فنزع دِشداشَتَه وظهر صدره العاري. وارتبك عيّاد حينما أبصر الشَّعر المجعّد يغطي صدر الطّفل وينبث كثيفًا في إبطيه:

«نهارك أسود يا كولمن! إيه ده؟!».

«لا تسأل».

أجابه صَنقُور وهو يرتدي التي شيرت الأحمر. فصارَ غاري كولمن بلحمه وشحمه وصوته وثيابه. وعيّاد أمامه تكتنفه الأسئلة عن الطفل البالغ الذي لا يشبه الأطفال. لكنه انصرف عن ريبته عنوة وقد أدرك أن الذي أمامه رجلٌ محشوزٌ في طفل. وقرّب الكاميرا إلى عينه يهمُّ بالتقاط صورة لولا أن انتبه القصاصة إلى علامة الـ ✚ على إبهامه، فصاح:

«سوّد الله وجهك يا عيّاد! ما هذا الوشم على كفِّك؟ أستغفر الله.. صليب؟!».

«خلِّينا أصحاب يا كولمن».

قال عيّاد دونما إكثار حديث. والتقط صورة فورية للطفل الرّجل، هفهفها بالهواء قبل أن يقترب منه، يحمل الصورة بيد، وبيده الأخرى يحمل مجلة دليل التلفزيون يظهر على غلافها الممثل الأمريكي الصّغير. نقّل القصاصة بصره بين نفسه في الصُّورة وبين الممثل على غلاف المجلة غير مصدّق:

«هذا أنا!».

فأجابه عيّاد:

«الصورة بدينار».

فوافقه صَنقُور بشرط أن يُحضر له عيّاد الجوزة الممنوعة على الأطفال. ودخّنها القصاصة بشفاعة شعر صدره وإبطيه. وطابَ له تدخين تبغها العجيب الذي طار به إلى السّماء. بودّه لو يُفضي إلى حارس القرية بسِرّه، لكنه يخشى أن تبلعه التّبّة لو فعل. وسحبَ النّفَس تلو النّفَس يسأل عيّاد عن وشم الصّليب في منبت إبهامه ويُحذّره من سوء العاقبة في نار جهنّم، ولا يُجيبه عيّاد. فسأله صَنقُور عن هذا الشيء السّحري ذي الدُّخان الأزرق. فأخرج له عيّاد من تحت فراشه قطعة سوداء بحجم كتابٍ كبير. قلّبها صَنقُور بين يديه:

«هذي عجينة تمر يابسة!».

خطفها عيّاد من بين يديه وأعادها تحت الفراش:

«هذه أغلى من الذهب».

قال إنها تجيء من هناك، ومدّ ذراعه صوبَ الشّرق. وسأله صَنقُور كيف اشتراها وهي أغلى من الذّهب، وهو بلا معاشٍ منذ شهور بالكاد يُنفق مما يستلف. وما اشتراها عيّاد ولا سعى في طلبها إنما جاءت إليه حسبما يقول:

«حذفها علي البحر».

كان في أمان الله في حُجرته الطّينية في القرية الشّاطئية. ينتظر حلول الجزْر ليحمل رمحه ويصطاد سراطين البحر والسّمك العالق في حُفر المياه الضّحلة. فانطلقت صافرات مركبات الشُّرطة في

موقف السّيارات القريب. وضوّت إنارتها الحمراء والزّرقاء. وما كان الأمر جديدًا فقد اعتاد الحارش مُداهمات رجال الأمن للسّاحل ليلًا. يقرأ تفاصيل المداهمة في الصُّحف بعد يومين؛ القبض على شاربي الكولونيا أو شمّامي صمغ ال باتِكس في السّاحل الفلاني. لكن المداهمة ليلته تلك أفضت إلى عدم جدواها. لم يُعثر لدى المشبوهين السّاهرين على السّاحل أي ممنوعات، ولا أقبل عليهم من البحر زورق متسلّلين أو مُهرّبين. وانفضّت جلسة الشّباب وغادر رجال الشُّرطة المكان. وحمل عيّاد رمحه وربط حاشية ثوبه الواسع حول خصره، وخاض في الطّين بعد انحسار البحر ساعة الجَزْر. وعلى مبعدة مئتي خطوةٍ أو أكثر اصطاد سرطانًا، ثمّ سمكة عالقةً في حُفرةٍ مغمورةٍ بالماء، ثمّ عثر على صندوقٍ فلّينيٍّ مربوط بثقّالةٍ صخرية. حمل ما بداخل الصُّندوق ووضع فيه الثّقالة، وقفل إلى حُجرته في القرية يُفكّر كيف يتصرّف في هذا الصّيد المحرّم الثّمين. أن يُسلّمه إلى الشُّرطة يعني أن يتورط في تحقيق قد يُدخله في مشكلة، أو أن يُكافأ بكلمات شكرٍ للمُقيم الشريف مع نشر صورته في الصُّحف. *ثمّ ماذا؟* لا مكافأة. *والتّحقيق* خطر. ولا طائل من وراء الشُّكر. *هل أبيعه فأعوض ثلاثة شهور انتظار وشركة الحراسة لا تصرف معاشاتي المتأخرة؟* سأل نفسه وتخيّل مصيره لو أجاب بنعم. فاختار أهون الشُّرور وقرّر أن يحتفظ بالعجينة السّوداء لنفسه. لا يغوي بها أحدًا، ولا يكسب من ورائها مالًا حرامًا، فيُدخّنها ويعدل بدخانها دماغه المهموم في انتظار رواتبه المتأخرة.

أنصت صَنْقُور إلى حكاية العجينة السّوداء هِبة البحر. ينفخُ دخان النّشوةِ مُتربّعًا على الأرض بثياب كولمن. وفتح عيّاد بوابة

القرية التّراثية بعدما وصلت حافلات المدارس مُحمّلة بالتلاميذ والتلميذات. وأهمل الزّوار الصّغار تراث القرية وتاريخها ولمحات الماضي وكل مسبّبات الزيارة التحقيفية التي رتّبتها وزارة التربية والتعليم، والتفوا حول كولمن الكويتي شبيه بطل مسلسلهم الأمريكي الشّهير، وعيّاد يُردّد ما يشبه الأهزوجة يناديهم: حيّاهم الله وحيّاهم.. ولبيت مكّة ودّاهم.

وفي آخر اليوم قُسّم دينار الصّورة الفورية على أربع؛ صاحب الكاميرا المستأجرة، والمصوّر، وعيّاد، وكولمن. باعوا أربعًا وأربعين صورة، وتقاسموا المبلغ لكلٍّ منهم أحد عشر دينارًا. وكي يُقدّر صَنقُور المبلغ شرح له عيّاد: يعني مئة وعشر سندويتشات فلافل لكل واحد. وسُرَّ صَنقُور بهذه الثّروة. واحتفظ الأطفال بصورهم مع كولمن الكويتي ضاحِكًا بجينزه الأزرق والتي شيرت الأحمر، وهو يمتطي الحمار البُنّي وراء أحدهم في ساحة القرية، أو يجلس بينهم في عربة الحنطور، أو تتدلّى ساقاه القصيرتان بين سيقان الأطفال في إحدى المراجيح الخشبيّة الكبيرة. وصار لدى نجم القرية التّراثية مبلغ من المال دفعه إلى أن يعود إلى أُمّه بشيءٍ غير حكايات الغد التي لا تنتهي، شيء غير أخبار شقيقه الأصغر مستور وأحفاد ولده الثّلاثة، وغير رسالة مستور القديمة المعتادة: «طال غيابي يا يُمّه وما سألني عن الكتابين أحد». فعاد صَنقُور إلى أُمّه خادمة المقام في الأمس بالهدايا، وبقطعةٍ من العجينة السّوداء غيّرت مزاجها وصيّرتها الصاخبة الضّحوك. عجينة يشمُّ الباكي دُخانها الأزرق فيضحك. وحملها مع معجزة «ماي غريب» الذي اشترى منه دزينة، وشال إلى أمسِه زجاجاتٍ منحت رُضّع الدّيرة والجزيرة سلامًا من آلام البطن،

وأراحت أمهاتهم من سهر اللّيالي.

ومكث صَنقُور يكرّر عبوره التَبّة لسنة تسعين، مرسولًا من أمّه، ليتبضّع لها من الغد ما تريد، وليطمئنها على حال شقيقه الأصغر مستور. ولدها المحكوم عليه من كاتب الأسفار فراق الجزيرة منذ دهر، مرهون الانتظار بتسليم كتابين. ومكث مستور في الدّيرة سنين طويلة حتى طوى السّادسة والتسعين من عمره، لا يموت حتى تحط في الدّيرة البلابل، فيسلّم الأمانة لأحدٍ لا يدري أحدٌ من يكون. وشقيقه الأكبر صَنقُور في سن الثلاثين اليوم، نزيل جسد الطّفل، يقود سليمان إلى كيفان، ولا يدري سليمان أين كيفان، ويجيبه صَنقُور بأنها على بُعد حذفةِ حصاة خارج السّور. ولسوف يقطعان الشّوارع والأرصفة، ولا يمرّان على سورٍ هُدِم قبل ثلاثٍ وثلاثين سنةٍ، ما خلّف منه الهدمُ إلا بواباته الخمس تذكارًا لمدينة الطّين. يُمضي كاتب الأسفار معظم الوقت قُرب واحدة منها منتصبةً في وسط دَوّار الشيراتون، بوابة الجهراء، يكتب الفصل الخامس والأربعين من سِفره الثّالث بغير فهم ولا تخطيط.

***

وارتفعت شمس الخميس حينما أدرك الرّفيقان أوّل شارع فهد السّالم. وسليمان يرفع رأسه إلى السّماء ناحية الشّروق. *لا تُشبه شمس الدّيرة*. وقطعا الشّارع بين عمارة ثنيّان الغانم نِصف الدّائرية ودوّار فندق الشّيراتون. وسليمان ما زال ينظر إلى الشّمس التي بدت له مُنطفئة، كأنما تحولُ دونه ودفء ضوئها غلالة غير مرئية. فانتبه أمامه إلى بوّابة السّور القديمة ماثلة بلا سور. والزّرازير والفواخت تحطّ عليها في منتصف الدوّار المزروع بالشّجيرات والعُشب. يُنصت

إلى تغاريد بُلبُل شجيّةٍ بين زقزقة الزّرازير ويحسبُ أنها في رأسِه. وكأنما يتوق إلى أن يُكذِّب وجوده في الدّيرة في زمنٍ غير الزّمن. فتنفلت تغريدةٌ أخرى لا يُحدِّد وجهتها. *هذا ليس صوت الدّيرة.* ويُلقي نظرة أخرى شرق السّماء ويقول لـ صَنقُور:

«الشّمس».

ويُظلِّل صَنقُور عينيه بكفِّه وهو ينظر إلى الشّرق:

«سوف تتعوّدها».

وعبر سليمان الشّارع وراء الدوّار يتبعُ رفيقه. وكاتب الأسفار وراء ظهريهما في العمارة نصف الدّائرية.. يطلُّ من نافذة مكتبه في الدّور الثّالث، وقد عاد قبل قليل من أمام القرية التراثية في الوطية ليُنهي الفقرة الأخيرة في الفصل الخامس والأربعين، على أنغام الـ «سَنكِني» كما اعتاد تهيئة جوّه في كتابة الأسفار. فأبصر من النّافذةِ شابًا حنطيًا وطفلًا أسود، يعبران الشّارع أمام بوابة الجهراء التذكارية في وسط الدوّار، وما صدّق عينيه فأسدل السّتارة يستعيذ من خيالاتٍ شوّشت عليه الحقيقة. جلس وراء مكتبه وأمسك بالقلم، واستأنف كتابتهما على ما سَمِعَ من الشّايب. وأنهى الفصل بكتابتهما في دربهما إلى بيت مستور المُصَوْقَر في منطقة كيفان:

..وقطع سليمان الشّوارع وراء صَنقُور، يُلفي نفسه في مكانٍ لا يُشبهه، مُنطفِئًا مثل سمكةٍ عَنفُوزٍ في مساطب سوق السّمك بعيدة عن بحرها. دخلا منطقة الشّامية، وعبرا الأرصفة، والسيّارات بألوانها الكثيرة وأشكالها الغريبة تتزايد كُلّما ارتفعت شمس الضّبح باهتة في عيني سليمان. فرفع رأسه عند آخر رصيف في الشّامية، يتفقّدُ

بُلبُلًا أفلتَ تغريدة في شجرةِ بُرهامةِ أمام أحد البيوت المطلّة على شارع الدّائري الثّاني. فأطال النّظر إلى شجرةٍ ما أَلِفها في الدّيرة يومًا، والطائر الرّمادي أسود الرأس أبيض الخدّين أصفر المؤخرة يحطُّ على غصنها. وكأنما تأكد له أنه في مكانٍ ما عرفه قط، وهو يتذكّر قول بِن شاؤول عن بلابل البصرة التي لا تُفارق البصرة إلا في أقفاص. قال لـ صَنقُور:

«كيف نكون في الديرة والديرة، على ما خبرنا، لا تعرف البلابل؟».

«كان ذاك في الأول..».

قال صَنقُور، وهو على الرّصيف ينتظر مرور سيّارة مسرعة. أردف:

«..منذ قامت الحرب حول شط العرب قبل عشر سنين، جفّت أهواره وماتت بساتينه ويبست فيه أشجار النّخيل، فهجرته البلابل وحطّت في الدّيرة».

قطع الطّريق إلى الرّصيف المقابل عند مدخل شارع إشبيليا، واستدار ينظرُ إلى سليمان الذي ما زال يقف على آخر أرصِفة الشّامية قُرب البُرهامة. صاحَ صَنقُور:

«وصلنا كيفان».

***

(46)

ألو

«كاتبُ الأسفار يتورّط بالأسفار»

قدتُ سيارتي ثانية صوب قرية «يوم البخّار» التراثية قبل صلاة الجمعة. قررت بلا منطق أن أزورها بعدما أتممت كتابة الفصل الخامس والأربعين، أول فصول «سِفر العَنْقُوْز» الذي أنجزت منه فصولًا متفرقة. ما زرت القرية في حياتي قط، ولا أعرف مواعيد عملها. ووجدتها مغلقة يوم الجمعة قبل الصلاة. طرقت الباب الجانبي قبالة مواقف السيّارات، ففتحه حارس أمنٍ بجلابيّةٍ رماديةٍ واسعة الكُمّين، وطلب مني العودة بعد صلاة العصر. وقبل أن يُطبق الحارس الباب سألته وأنا أحدّق إلى أُذنَيه الكبيرتين: أنت عيّاد؟ ارتبك الحارس وأجاب بنعم. فارتبكت وما أجبت بشيء. فهل أقول له إني كاتب الأسفار؟! سألني الحارس:

«أي خدمة؟».

«شكرًا، جئت أسأل عن صنقور».

«صنقور من؟».

«الولد الذي ظهر في الجرائد.. ذاك الذي يُشبه..».

«كولمن؟ هو يجيء كل يوم لكن ليس له ساعة محددة.. أنت صحفي؟».

تلكأتُ، وأنا الذي تقدّمت بسحب عضويتي من جمعية الصحافيين

بعد تعطيل مواد الدستور وفرض الرقابة المسبقة على الصُّحف والمجلات. فأومأت بالإيجاب. وواريت ارتباكي بالسُّؤال:

«هل جاء صنقور.. أقصد كولمن.. هل جاء فجر اليوم مع شاب اسمه سليمان».

برطم عيّاد عاقدًا حاجبيه قبل أن يُجيب:

«في الفجر؟! سليمان؟!».

اعتذرت وقلت إني سوف أعود في وقتٍ لاحق. *أي غباء قادني إلى هنا؟* استدرتُ وقفلتُ إلى سيارتي. *هل صدقتُ ما كتبت؟* جلستُ وراء المقود أفكّر. *شغّل مُخّك!* شغّلت محرّك السّيارة وأدرت المقوَد. *لكن الحارس بالفعل اسمه عيّاد!* وقدتُ سيارتي إلى المكتب. *وأذناه كبيرتان على ما كتبت بتلقين الشّايب*. أفكر في تلك الحكايات التي أكتبها على ما أسمع من شايبٍ تمادى في الخيال. *كنت أفكّر من أين يجيء بتلك الحكايات التي صارت*. أو ربما أصابه الخرف. صرت *أفكر كيف يجيء بتلك الحكايات التي تصير*. وهل صار شيء؟ *عيّاد وكولمن حقيقيان!* وسليمان؟ أين سليمان خارج أوراقي؟ *من يدري؟!* أدركتُ مكتبي وانحنيت على الأوراق. وشرعتُ أبحث عن أول سطر أستهل به الفصل السادس والأربعين، غير أن بالي المشغول ما ركّب حرفًا على حرف. فحملت غترتي وعقالي من المشجب واعتمرتهما، وخرجت إلى صلاة الجمعة في مسجد «الجِبلاوي» مُقابل بيتي في «الفيحاء»، بعدما هجرت الصّلاة فيه لأسابيع تجنُّبًا لهجوم خطيبه. وصلت باكرًا فتركت سيارتي قرب الباب. دخلت المسجد وأدركت الصف الأول عن يمين المحراب، وتربعت على الأرض صامتًا

والمصلون يفِدون فرادى ثم جماعات قُبيل الخطبة. وارتقى الخطيب عمران آل كريم عين شدّة المنبر، يحمل في يده ورقة ما طلّ فيها بعدما أبصرني بنظرة صقر، أجلس عن شِماله في أوّل صفوف المصلين. قلّب الورقة على ظهرها فوق المسند الخشبي أمامه. وعوضًا عن قراءتها استهلّ خطبة مرتجلة بصوتٍ قرارٍ يحمد الله ويُعظّم صفاته. فصدح صوته يذمُّ حمَلة الأقلام الذين ما خافوا الله فيما يكتبون. الضّالين الفاسقين، المحرضين على الرجس والسّحر والشذوذ والمجون. ولا اكترثت بقول الخطيب بقدر ما أدهشتني قدرته على تفريخ الكلمات واستيلاد القوافي، يعرفُ من أول الجملة بأي كلمة يُنهيها بصوت جهوَري يُقشعِر أبدان المصلين، وأنا أحدهم.

وأطال الخطيب خُطبته المُقفّاة حتى جاء على ذِكر الكتابين صراحةً «سِفر العباءة» و«سِفر التبّة». وأتبعهما بقافية جديدة من كلمات التّقريع. وتوعّد كاتبهما بالويل والثّبور وعظائم الأمور. ورماني بالكفر وهو يشاهدني في الصف الأول في هذا المسجد بعد غياب. فنهضت قبل انتهاء الخطبة وبداية الصلاة مسدلًا غترتي على جانبي وجهي، وقطعت طريقي إلى الخارج بين صفوف المصلين، والخطيب يختم قوله صائحًا بآيتين من القرآن الكريم:

«..فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين، الذين هُم في خَوضٍ يلعبون».

وركبت سيارتي مثل مكذّبٍ فارٍّ ما عرف إلا الكتابة يخوضُ بها لعبًا في الخيال، بالكاد أخرجت السيّارة من بين السّيارات المتكدّسة المخالفة لوقوفها على جانبي الطّريق حينما صدحت المئذنة بإقامة الصّلاة. بيتي ليس ببعيد، هو على الرّصيف المقابل، لكني آثرت الذهاب إلى المكتب كأنما أردت إفراغ غضبي على خطيب الجمعة

بكتابة فصولٍ جديدة في الجزء الثّالث. غير أني ما خططت حرفًا. فرفعت السماعة وأجريت مكالمةً ما توقف فيها صياحي منذ أول: ألو.

***

«أنجزتُ كتابة الفصل الخامس والأربعين، وتوقفت وما استطعت كتابة حرفٍ مما قلته عن حكاية سليمان وصنقور بعد عبورهما التّبّة من خريف 1920 إلى صيف هذه السّنة ووصولهما إلى كيفان. أنت على ما يبدو خَرِفٌ متأثرٌ بسلسلة أفلام «العودة إلى المستقبل» وجئت تُفرغ هذه الخيالات لديّ. أنا لا أستطيع مواصلة كتابة ما تحكيه. هذا عبث لم تخبرني به منذ البداية. وأنا غير مقتنع بهذا الانقلاب المفاجئ في الجزء الثالث أستاذ حمَد. هذه تفاصيل لا تمت للجزأين الأول والثاني بأي صلة. عبور الزمن وعيّاد وحكاية كولمن! لا يمكنني أن أنشر هذا الهراء، لا في الكويت ولا في بيروت ولا في أي مكان».

«لا تنشره».

«ولماذا أكتبه ما لم يكن للنشر إذن؟».

«النشر النشر.. هذا كل ما تفكر فيه يا حضرة الروائي المخضرم؟! أكتب لأن الولد وأباه يجبُ أن يُسوّيا أمرهما».

«ملعون الولد وأبوه! وما شأني أنا بكل هذا؟!».

«تقول ما شأنك الآن؟! ألم تدخل نفسك بين الولد وأبيه في الجزأين الأول والثاني غصبًا وزيادة على ما أحكيه لك؟ كاتب

الأسفار قال وكاتب الأسفار فعل! حتى الصاجّة أُم اللّوْه أبدلتَ اسمها على غير ما اشترطتُ عليك في لقائنا الأول. خالفت الشرط وأسميتها أُم حَدَب! أنت طرفٌ في هذه المشكلة التي أدخلت نفسك فيها، ويجب عليك أن تُنهيها يا.. كاتب».

«أي مشكلة؟».

«المشكلة التي لم تبدأ بعد».

«أنا لا أريد أن أكتب هذه الخرابيط يا رجل!».

«أنت تكتب الحقيقة مثلما أقولها لك.. وأنت الآن موجودٌ في الجزء الثالث».

«يا سيدي هناك رجل أغرق نفسه عند القرية التراثية بسببك وما زال موضوعه يُرعبني».

«وهل رأيت في الفجر جثته طافية؟».

«لا. لكن..».

«ما طفَت جثته لأنه عبر التَبّة من اليوم إلى أمس، لأنك بعدما أحضرته إلى بيتي وبعدما كلّمتُه بالحقيقة صدّق، لأنه رجل عاقل، وقال إن لديه خمس رغبات يُريد أن يُحقّقها بعدما سمع مني ما سمع، مثلما عبر سليمان وصنقور من أمس إلى اليوم، لأن لديه ثلاث رغبات أراد تحقيقها.. مثلما كتبتَ تمامًا.. عليك أن تواصل كتابة ما أقوله لك حتى ننتهي من هذا فقد تعبت من الانتظار».

«أنت سليمان.. صح؟».

«أكتب».

«أستاذ حَمَد.. أنت تعرف أن ما نكتبه خيال».

«خيال؟ والله؟ لكنك بعدما كتبت وصول سليمان وصنقور إلى دوار الشيراتون فجر اليوم صدقت أن ما تكتبه حقيقة. حينما وقفت أمام النافذة تنظر إلى بوابة الشور في منتصف الدّوار، فشاهدت سليمان وصنقور حيثما توقفت عن كتابتهما في أوراقك؛ وراء الدّوار.. خيال؟! أهو الخيال الذي جعلك تتصل بي مرعوبًا في وقتها وتخبرني بأنك رأيت شيئًا لا يدخل العقل؟».

«تراءى لي من بعيد خيال اثنين أول الصبح من نافذة مكتبي هذا صحيح.. لكني كنت متعبًا ساهرًا حتى الشروق.. الأكيد أنني تأثرت بما أكتب على ضوء ما تقول.. ربما كانا عاملي تنظيف أو أي عابرَين، فالمسافة لم تكن بذاك القرب لأتحقّق من شكليهما و..».

«عامِلا تنظيف؟! شاب حنطي وطفل أسود؟! ماذا عن لونَي دِشداشتيهما؟ أما قُلت إنهما على ما كتبت من الألوان؛ سماوية وبيجيّة؟ يا أستاذ صادق أنت لا تكتب خيالًا وأنت تدري.. وأنت لم تذهب إلى حارس القرية قبل ساعةٍ لو لم تكن تُصدق..».

«كيف عرفت؟!».

«ليس هذا مهمًا.. عمومًا.. لا أنصحك بأن تبحث عن الحقيقة بهذا الشكل، لأن الحقيقة سوف تجيء إليك.. أكمل الكتابة على ما أقول.. أكمل وسوف نصل، أنت وأنا، إلى الحقيقة».

«أي حقيقة؟».

«الحقيقة التي أقودك إليها لتنهي هذه القصة فاكتب.. اكتب سِرّ التَبّة واحذر أن يعرفه أحدٌ من خارج الأسفار.. سِرُّ التَبّةِ بين كاتب الأسفار والمتورطين بالأسفار، ولو أفشيته يجيئك ما لا يسُرُّك.. وسِرُّ التَبّة لو كُشِف يموت صَنقُور.. اِكتب».

«ماذا أكتب؟».

«اكتب كل شيء.. اكتب ما قلناه في هذه المكالمة الآن منذ أجبتُ اتصالك بـ ألو.. اكتب وكلما أردت معرفة المزيد أعطني ألو.. اكتب عن وصول غايب من سنة 1990 إلى سنة 1920، وعن وصول سليمان وصنقور من الأمس إلى كيفان اليوم.. اكتب..».

«لكني أكتب ما لا أفهم!».

«سوف تفهم.. مثلما فهم غايب وغطس في البحر فجر اليوم.. وخرج من التَبّة في زمن الطين.. خُذ عندك ما حصل، واكتبه على ما اعتدت أن تكتب.. لكن لا تتأخر، بالكاد نلحق وليس لدينا إلا شهر قبل ولادة الهلال الجديد.. والحكايات طويلة».

«شهر؟».

«شهرٌ يقضيه سليمان في زمن الدّيرة اليوم، ويقضيه غايب في زمن أبيه أمس».

«يا رجل! أنا كتبت الجزأين الأول والثاني في سنوات.. كيف أكتب الثّالث في شهر؟!».

«ناع طوعَس بَهموت..».

«أنت تتكلم مثلما تتكلم الصاجّة فيما أكتبه».

«أنت لم تكتب الصاجّة.. هي من كتبتك.. لا تُضع الوقت واكتب أن بعد حصار القصر الأحمر في الجهراء ظهر غايب من البحر في الوطية، في الفجر الذي اختفى فيه سليمان وصنقور في التَبّة، وأنه أول ما ظهر من الماء صاح: يُبَه! ثم..».

***

خريف ١٩٢٠

(47)

سِفرُ الظهور: ظهور بُوْدَرْياهْ في سِيف الحَيِّ القِبلي

«نزيل الحجرة الخامسة في بيت الزُّجاج»

وبعدما رَمَش خَليفُوْه بُعَيد أذان الفجر عند صخرة الوَظيّة، وأقبل على البحر يأخذ غترة سليمان الطّافية بعد غطستِه مع صَنقُور، ألفى انعكاس النُّجوم على الماء المالح كأنما هبطت من عليائها. رفع رأسه إلى سماء الفجر ولا أثر لنجم. خفض رأسه إلى الماء، فظهر الرّجل الغريب من موجةٍ مُقبلةٍ وقال:

«يُبه!».

ارتعدت فرائص أبي القُطاوَة وشلّت ساقاه، لا يصدّق أنه يُبصر ذاك الشيء الذي ظهر من البحر وصاح يُنادي أباهُ مرّةً فظلّ ساكنًا يواجه الدّيرة في ذهول. وارتفعَ صوتُ نورسٍ من بعيد، فانطلقت أُنشودة شيوخ البحر السّبعة تنثرُ شظايا أصدائها في فضاء السِّيف:

«هولو هيهْ.. هولو هيهْ».

فخرجَ المصلُّون من المساجد. وأدارَ خَليفُوْه للرّجل الغريب ظهره معقود اللسان لا ينظرُ إلى الوراء. ويمّمَ صدره وجهة سوق الحريم، يحمل سراجه ويتنكّبُ غُترة سليمان ويحملُ نعليه. يتبعه سركيس تاركًا مقعده عند مدخل المشفى ويسأله عمّا جرى. وركض الرّجل الغريب الذي ظهر من التّبّة بعدما غطس سليمان مع ابن خادمة المقام. خرج من البحر مُبتل الدّشداشَة حافي القدمين، وأقبل على

الرِّجال الخارجين من مسجد «السّاير». هزّهم مرآه بوجهه الشّائه وعينيه الزُّجاجيتين الكبيرتين، وتهيّب الشّبابُ ولاذ الأطفال وراء ظهور رجالٍ قبضوا على كبريائهم ووقارهم وتماسكوا أمام غرابة شكله. تحرّج واحدهم من إبداء خوفٍ أمام الآخر. قال الغريب لاهثًا إنه جاء يسأل عن أبيه. فسأله أحد الرجال بصوتٍ مرتجفٍ من أنت؟ فأجاب الغريب على ما اعتاد طول حياته في جزيرة أمسِه:

«أنا غايب بُوْدَزياهْ».

وكأنما بقوله هذا صبّ قطرة خَلٍّ في بيت نمل. تطاير الرِّجال والصِّبية في كل اتجاه مثل الشّرر، ينجون بأنفسهم من وحش البحر الذي على ما تنبّأت أم حدَب، يجيء ليقتل أباه ويستعيد عباءته السّليبة. وانطفأ المكان وسكتَ إلا من صرير الجنادب. وما كاد الغريبُ بُوْدَزياهْ يدور حول نفسِه يبحث عن وجهة سير؛ حتى تعالت طبول العَرْضة ناحية الشور عند بوابة الجهراء بعد صلاة الفجر. وأدرك أنه بدأ حيثما انتهى سِفرُ التّبّة، كأنما ابتلعه الكتاب وحشره في ثالث أسفار مدينة الطِّين. وما أسعفه الوقتُ ليفكر في حقيقة عبوره إلى سِفر العَنقُوْز وهو يمشي في المكان. دوّت طلقة بندقية من بعيد، وأقبل عليه رجالٌ يصوِّبون إليه البنادق ويشهرون الشيوف، بعدما تعالت صيحات الأطفال: جاء بُوْدَزياهْ ليقتل أباه.. جاء بُوْدَزياه يستردّ عباءته. فاندسّ وحشُ البحر المزعوم بين البيوت متعثّرًا في خطواته. وهرب في غبش الفجر والرِّجال وراءه تُخطئه بنادقهم، حتى ألفى نفسه على مبعدة خطوات عن مدخل «بيت الزُّجاج». ركض حتى أدرك مدخله، فأسقطته على عتبة المشفى رصاصة.

وترك بعضُ الرِّجال الشور، وأقبلوا على المشفى بعد سماعهم خبر ظهورِ وحشِ البحرِ بُوْدَرياهْ في سِيف الحيِّ القِبلي واختفائه في بيت الزُّجاج. وانتشر الهرج والمرج. ولمّا بلغ الشَّيخَ أحمد الخبزَ أرسل سكرتير الحكومة ليستطلع أمر الفوضى حول مشفى الإرسالية. فقابل المُلّا صالح الدكتور ميلْريا وإلينور، وأخبراه بأن لا شيء يدعو إلى الاهتمام، وأن الرجل مجرد جريح. وأن ما يثيره الأهالي عن غرابة شكله مردُّه إلى حرق قديم لا يستدعي كل هذه الضجّة. طلب سكرتير الحكومة من مشرف الإرسالية أن يتحفَّظ على الرجل في هذا الظرف وألا يخرج هذه الفترة، فالدِّيرة لا تحتمل الشّائعات في ظل حصار الإخوان للشَّيخ سالم ورجاله في القصر الأحمر. وخرج مُطمئنًا، وانفضَّ المتجمهرون من حول المشفى وعادوا إلى بوابة الشور. واستأنف الدكتور ميلْريا متابعة الجرحى الوافدين من المعركة. وعادت إلينور مُتعبة إلى حُجرة مبروكة غير مصدِّقة كيف شفاها حِرز أم حدَب من حالةٍ استعصى شفاؤها على الكتاب المقدّس. ومكث غايب بُوْدَرياهْ في عناية مشفى الإرسالية، بعدما أُخرجت الرّصاصة من كتفه اليمنى وقُطّب جرحه، وحُقن بالمورفين ونُقل إلى الغرفة رقم 5.

وجاء خَليفُوْهْ في اللّيل إلى مكتب الطّبيبة، وقد أرسلت في طلبه لإيصال الرسالة التي عثرت عليها في حِرز الرّجل الذي مات مُبتلعًا لسانه على عتبة المشفى ليلة أمس. أقبل أبو الفُطاوَة مكفهر الوجه على غير عادة، وما تلفَّت وراءه التفاتاته المجنونة التي عرفتها الطّبيبة في كل لقاء، لكنه كان يُطبق أصابع كفَّيه على إبهامَيه، بعدما اعتادت منه إطباقَ كفٍّ واحدة على إبهامها. سألته عن سوء مزاجه

فأخبرها بأن الحَوْطة فقدت صاحبها وقت الشُّروق. تأسّفت، وفهمت سبب الحال التي عاد بها سركيس إلى الإرسالية عصر اليوم. وقد أطبق على نفسِه الباب وراح يعزف على آلته التي تُشبه النّاي في سكن الممرضين، وما خرج إلا في اللّيل لاستلام المناوبة. أشارت إلينور لأبي القطاوة نحو مقعدٍ أمام مكتبها:

«تفضل».

جلس خَليفُوْه ساهمًا، ومشهد البَريغصي يخرج من قبر سعدون مبتور الذَّيل لا يُفارق خياله. بادرت الطّبيبة تسأل:

«هل تعرف رجلًا اسمه عبدالعزيز الهذار؟».

«لا يجهله إلا أصمخ».

أجابها أبو القطاوة فورًا، ورأسه يضجُّ بتفاصيل جنازة سعدون ظهر اليوم؛ النّخلة وفسائلها التّسع والصُّوف المدفون في كلِّ شبر من حَوْش الحَوْطة. ثمّ تدارك واعتذر بأنه لا يقصد الإساءة إلى خاتون حليمة وأنه لا يتّهمها بالطّرَش، لكن كل من له أذنٌ في الدّيرة ناله من هذر الهذّار نصيب. وحدّثها عن عزُّوز، وعن لسان عزُّوز الذي يفرخ الكلمات طول الوقت. وإنه رجلٌ من شكّان «المطبّة» يموت لو سكتَ عن الكلام. وإلينور تمطره بالأسئلة وهو يجيب. فبهتَ الأملط حينما عرف أن الهذّار ماتَ مُبتلعًا لسانه كما تنبأت له أُم حدَب قبل سنين.

وطَرق البابَ ودخل سركيس بزيّ التّمريض الأبيض، أحمر العينين مُعتكر المزاج يفوح برائحة اليانسون. قال إن الجريح المشوّه في الحُجرة الخامسة أفاق من التّخدير، وإنه تحدّث بجديّةٍ حديثًا غير

جدّي. أومأت إلينور بوجهها إيماءة عدم فهم. أوضح سركيس:

«يقول إنه جاء يبحث عن أبيه».

تخضّلت عينا خَليفُوْهْ وهو يُنصِت إلى ما بشّرت به آفِلةُ النّجمِ عجوز المرقاب. وسألت إلينور سركيس أين الجنون في أن يبحث رجلٌ عن أبيه. فأخبرها إن الرّجُل يُفضي بكلامٍ غريب. يقول إنه عَبَر الزّمن سبعين سنة وجاء من المستقبل.

«هذا أثر المورفين».

قالت الطّبيبة، لكن الممرّض أجابها على الفور:

«هذا ما قلته أيضًا، لكنه مدّ نظارته السوداء الغريبة إلى الممرضين، وقال إنها على طراز نظارات مايكل جاكسون.. وهي ليست من هذا الزمن..».

«مايكل جاكسون؟ من يكون؟».

وما أجابها سركيس إلا بأن الرّجل الغريب كان يُخَربِط بالكلام رغم أنه يبدو في كامل عقله، وإنه كان يذكر الطّبيبة بالاسم: إلينور كالفِرلي أو خاتون حليمة، ويقول إنها يجب أن تعرف أن هذه النظّارة من الزمن الذي تجيء فيه صاجّة الجزيرة بزجاجات «ماي غريب». والغريب، أن الرّجل يُقسم إنه يعرف ما سيحدث في الغد لأنه جاء من سنة 1990، ولأن ما يحدث اليوم بالنسبة إليه حدث وانقضى. ودلالة على صِدق قوله؛ قال إن معركة الجهراء مع الإخوان سوف تنتهي بهدنةٍ يوم غد، وسوف يعود الشّيخ سالم ورجاله في اللّيل إلى الدّيرة. وبعد عشرة أيام يرسل الإخوان اثنين من رجالهم

للتفاوض، ويجتمع بهم الحاكم في مقهى «بوناشي» عند مسجد الشوق الكبير.

«قلت لك إن هذا أثر المورفين».

كرّرت إلينور بحِدّة، فمدّ إليها سركيس شيئًا قال إن الرّجل الغريب أخرجه من جيب دِشداشَتِه. تناولت إلينور ورقة صغيرة مغلّفة بطبقةٍ شفّافةٍ يُشبه ملمسُها الشّمع. شاهدت صورة الرّجل بوجهه المشوّه، بالغترة والعقال، دونما نظارةٍ شمسية. صورة بالألوان وهي التي ما عرفت الصور إلا بالأسود والأبيض، خالتها من شدّة الوضوح أنها ستنطق. وقرأت الكلمات العربية إلى جوار الصُّورة؛ دولة الكويت، البطاقة المدنية، الاسم: غايب عبدالعزيز حسن عبدالله الهذّار الفيلكي، مواليد: 1920..

تذكّرت اسم الأب في القرطاس الذي عثرت عليه في حِرْز الهذّار بعد وفاته ليلة أمس. قلبت البطاقة بين كفّيها صامتة. العنوان: فيلكا، الزور، قطعة 1، فصيلة الدّم +O، فقال سركيس ينبّه إلينور:

«لا شأن للمورفين دكتورة».

ضربت سطح مكتبها:

«أنا الطّبيبة هُنا!».

استغرب خَليفُوْه ثورة الطّبيبة التي أودعت البطاقة دُرج المكتب وأطبقته بعصبية:

«نعم، لا شأن للمورفين بما يقول.. هذا أثر العَرَق الذي تشربه شُرب الماء حتى غيّب عقلك.. اخرج من فضلك وغد حينما تصحو وإلا

شكوتك إلى الدكتور ميلْريا!».

وانصرف سركيس. ودنا خَليفُوْهْ بمقعده إلى مكتب الطّبيبة الحانقة، ورجاها أن ترسل الجريح إلى بيته عند سوق الحريم ليستضيفه بعدما يستفيق. وبحلقت إليه إلينور بغير فهم. وطلبت منه أن يصرف النّظر عن فكرة الضيافة تلك، لأن سكرتير الحكومة أمر ببقائه في المشفى إلى حين استقرار الدّيرة وزوال خطر إخوان مَن طاع الله. سألته وهي تُسيطر على غضبها:

«لماذا هو من بين كل المصابين؟».

«أقول لك ما لم أقله لأحد غير أم حدَب يا خاتون، لكن.. عِديني أن أصحبه إلى البيت إذا صحا؟».

لم تعِده الطّبيبة بشيءٍ لكن شيئًا في داخلها أراد أن يُنصِت. ورجاها خَليفُوْهْ باكيًا أن لا تُفشي السّر حتى لو لم تُصدّقه، فوعدته. وأخبرها بحكاية بُوْدَرياهْ، الوحش الذي يخرج من البحر ويبحث عن أبيه. قال إنه يعرف وحش البحر هذا، ويعرف من يكون أبوه.

***

أخبرها بأنه قبل شهر من يومهم هذا، بلغه خبرٌ دفعه إلى زيارة البيت المثلّث في المرقاب ليلًا. دخل على أم حدَب بكُحلٍ خطّه على شكل حاجبين وشارب. وانسدح على جنبه إلى جوار العجوز على الأرض في حجرتها المظلمة، يسند رأسه الأملس إلى فخذها. وتمسح الحدباءُ البرصاءُ على كتفِه وهو يُفضي ويعترف بارتكابه الحرام قبل شهورٍ تسعة. وقد بلغه اليوم أن الحرام ورّطه بابن حرام. فحثّته أم حدَب على الزّواج بأمِّ الولد فورًا، لكن أمّه فردوس؛ صُغرى بنات

حمدية القوّادة. فأبت السّاحرة أن يتزوّج صبيُّها بعاهرة. وأمرته بأن يأخذ الولد لأن القوّادة السّمينة إن لم تقتله فسوف ترميه في السّكّة للكلاب والقطط والفئران، أو تشويه وتأكله. وأخبرها بأنه يريد الولد ولا ينوي التّخلي عنه.. لكنه أكره ما يكره في حياته الأطفال. ورفعَ رأسه عن فخذ أم حدَب وراح يصفع نفسه بكلتا يديه: «لا بارك الله في اليوم الذي تغوطت فيه طفلًا يا خَليفُوْهْ!». ونبَحت في وجهه العجوز وأخرسته «لأ!». فألقت عليه قولها مثل تعويذة:

«وإذا جئتك به بعد أسابيع وقد كبَر سبعين سنة؟».

تغضّن جبين خَليفُوْهْ يستفهم. فاستطردت العجوز:

«بشرط ألّا تسعى إلى لقائه، لأن الولد سوف يجيء بنفسه.. يجيء كبيرًا بعد شهر، أقل أو أكثر..».

قطّب خَليفُوْهْ حاجبيه المزيّفين، فقالت أم حدَب من القول ما يُفهم بعد حين:

«..لكن عليك أن ترمش في الوقت الذي عليك ألّا ترمش فيه».

وافقها الأملط وهو يطفح إيمانًا بأن أم حدَب قادرة على الإتيان بالعجب. لكنها حذّرته أن الولد يجيء، على ما يريد، كبيرًا وقد جاوز الطفولة بسنواتٍ طوال، لكن نار السّنين غيّرت ملامحه. فسألها إن كان ولده مثله أملط أمرد أملس، فقالت إن الشّعر ينبت في قِمّة رأسه فوق جبهةٍ بالغة الاتساع. ولم يكترث خَليفُوْهْ بأن يجيء الولد بأي عِلّةٍ، على ألا يجيء طفلًا أجرد ليس في جلده للشّعر منبت. فحذّرته أم حدَب:

«إذن لا تخف إذا ما ظهر لك من حيث لا يجيء على بالك، ولا تهرب إذا صاح بك ولدك في الظلام: يُبَه!».

وخرجت أم حدَب من بيتها المثلّث إلى الرّميلة، وأخذت الرّضيع من حمدية التي انتزعته من حِضن فردوس. وأودعته في بيت أم البنات قُرب حيّ البلوش لترضعه، لكن نارًا شبّت في بيت المرضع، وادّعت أم حدَب أن النّار أكلت الرّضيع. لكنها قبل حادثة الحريق وهبته للهذّار وأمينة.

***

والطّبيبة تُنصت إلى غرابة كلام خَليفُوْه عن الصاجّة ونبوءاتها وخرافاتها وتتصّبّبُ عرقًا. ويحكي أبو القُطاوَة وهو يُجفّف دموعه بكُم الدّشداشَة، يقول إن ولده نُسب إلى الهذّار وأخذته أمينة إلى فَيلَكا، وإن الرّجل المشوّه الذي ظهر له في البحر فجر اليوم ونادى: «يُبَه» هو ولده من فردوس وقد كبر سنينًا، وهذا ما قالت أم حدَب إنه سوف يصير. لكنه أجفل وهرب حينما أبصر وجه من ظنه وحش البحر في غبشة الفجر. نشجَ خَليفُوْه، وحديثه الخرافي عن أم حدَب يُقلّب الأفكار في رأس الطّبيبةِ عن القرطاس الثّالث في حِرز الهذّار، وعن نزيل الحُجرة الخامسة، وعن زوجها القسّ الذي عالج مبروكة بتعويذةِ ساحرةٍ أميّةٍ عجوزٍ بعد فشله في علاجها بالكتاب المُقدّس، وعن صاجّة الجزيرة التي تجيء بدواءٍ إنكليزي لا يدري أحد من أين يجيء، وعن هذه الدّيرة العجيبة التي سوف تُفقدها عقلها. نبّهها أبو القُطاوَة من شرودِها حينما طلب منها أن يأخذ الرّجل الغريب إلى بيته، لأن الولد ما جاء إلا للقاء أبيه، وهو أبوه. وكأنما الطّبيبة لم تسمع مِن قوله كلمة. فتحت دُرج مكتبها بأصابع مهزوزة، وناولت

خَليفُوْه القُصاصة المطوية التي استلّتها من حِرز الهذّار بعد سقوطه من حصانه، ووفاته على عتبة المشفى مبتلعًا لسانه. انفرجت شفتاها وهي تُحملق إلى سطح مكتبها ساهمة:

«ولدٌ أكبر من أبيه!».

بهتَ خَليفُوْه وارتعشت كفّه وهو يفكُّ حروف قرطاس حِرز الهذّار بصمت. فأعاد القراءة على مسمع إلينور التي قرأت الرسالة البارحة:

سامحني يا رب.. يا ربي إني أُشهدك أنا عبدالعزيز بن حسن بن عبدالله الفيلكي وكنيتي الهذار.. أن غايب ما هو بولدنا أنا وزوجتي أمينة.. وهو رضيع أخذته أم حدب من أمه، وأبوه هو خليفوه البرنتى.. اللهم إني كتبت اللهم فاشهد...

والطّبيبة صامتة لا يبدو عليها تصديقٌ ولا تكذيب، فهذا اليوم العجيب منذ شروق الشّمس ما انفكّ يجيءُ بالعجائب والخرافات. وما فاه خَليفُوْه بكلمةٍ بعدما قرأ الرّسالة ثانية. واستأذن منصرفًا فاستمهلته إلينور قبل أن يبلُغ الباب:

«خليفة وبَس».

التفت إليها بعدما نادته باسمه الأحب. وكانت مُطرقة تُحملق إلى سطح المكتب ما زالت. قالت إن الرّجل يستفيق من أثر التّخدير تمامًا يوم غد، لكن رصاصة كتفِه اخترقت العظم ولن يخرج من المشفى قبل عشرة أيام. وإذا ما انقضت المدّة يستطيع أن يخرجه من المشفى بنفسِه.

«لا أقدر.. حذّرتني أم حدَب من السعي إلى لقائه.. قالت إنه سوف

يبحث عني ويلاقيني، وإني لو أقبلت عليه أدبر».

تملّى نظره إلى وجه الطّبيبةِ قبل أن يقول:

«قولي له.. بيت القطاوة عند سوق الحريم».

غادر خَليفُوْه المشفى على أمل أن يزوره ولده بعد عشرة أيام، ونادى أشهب وإلينور اللذين ابتعدا وراء سراطين البحر في ساحل الوَظية. وارتفع صوت امرأةٍ يتردّدُ صداه في فضاء العتمة في الحَيّ القِبلي:

«ما مات سليمان وهذي غترته».

فصاحَ ناطوزُ اللّيل:

«ها؟! من هناك؟».

***

صيف 1990

(48)

بيت مستور المُصَوْقَر

♪ أبشري يا عين جابوا لي خبر ♪

يوسف المنيّع

وصل صَنقُور وسليمان إلى كيفان بُعَيد الشُّروق، بعد قطع المسافة من القرية الثّراثية في ساعةِ مشي. وقفا أمام بيتٍ حكوميٍّ قديم، مبني من الطابوق الجيري رمادي اللّون. بيت ذي طابقين على طراز البيوت الحكومية لذوي الدخل المحدود في أواخر الخمسينيات. وبخلاف جيرانه الذين نزعوا عن بيوتهم الزي الموحّد وألبسوها أزياء عصرية من الحجر الأُردني والرُّخام والجرانيت وأصباغ السيجما والقرميد؛ بدا البيت كئيبًا لا يمتُّ إلى شارعه بِصِلة. ومصابيح سوره يغطيها الغُبار والسّعف اليابس. تركنُ أسفل السّور ثلاث سيّارات؛ «فِيات 500» طراز 1976 بيضاء، وسيّارتا شيفروليه طراز 1980؛ «كورفِت» مُغبرة، و«كَمارو» مُبعّجة مهشّمة النّوافذ. والسيّارتان الأخيرتان غير معلومتَي الألوان بفعلِ طبقات الغُبار عليهما. وإلى جوار بابٍ حديديٍّ صدئٍ تقشّر دهانه الأسود عُلِّق صندوق جريدة أزرق، وصندوق بريد خشبي قُرب لافتةٍ أهرأت حروفَها الشّمس؛ 301 بيت مستور آدم المُصَوْقَر.

طرق صَنقُور الباب الحديدي، وسليمان يُطيل النّظر إلى السّماء الباهتة، كما لو أن بينه وبين الشّمس حاجب. قُرص بلا هالةٍ من المشرق يرتفع، باهت الصُّفرة بغير وهج يكسر العينين. أدار ولد شايعة ظهره لشِبهِ الشّمس، فتهجّى حروفَ لافتةٍ أعلى سور مبنى

قريب من بيت المَصْوقَر؛ مدرسة نائلة المتوسطة للبنات. وفتح باب بيت المَصْوقَر رجلٌ ثلاثينيٌ سمينٌ داكن البشرة، مكويٌ على رأسِهِ، طليق اللّحية يرتدي دِشداشَة بيتٍ قصيرةً مُجعّدة، يُطبِق شفتيه على عود سِواك. أخرج العود من فمه وابتسم وسع شفتيه حينما حيّاه القصاصة:

«أنا رجعت يا آدم».

«حيّاك الله عمي صَنْقُور!».

قال بصوتٍ أجش. وتعانق صَنْقُور القصاصة وحفيدُ ابنِ أخيه. يتعلّق الأوّل بكرش الثاني مثل طفل. فيوسِع حفيدُ ابن الأخ فرجة الباب ويطلب من عمّ جدّه ورفيقه الدُخول.

«حيّاهم الله.. حيّاهم».

ويدخل سليمان وراء الاثنين حَوش البيت الحكومي الصّغير، ويستغرب فعلَ الزّمن، أن يصير لأولئك القوم بيتٌ في مثل هذا الحجم والمتانة والارتفاع، مُشيّدٌ من مواد ما رأى لها مثيلًا إلا في قصر السّيف ومشفى الإرسالية في زمان ما قبل التّبّة.

***

أيُّ بيتٍ دخلتَ يا سليمان يا ولد شايعة لو كنت تدري! وأنتَ الغريبُ يا ابن أمس، وكل شيءٍ في عينيك اليومَ غريبٌ. لكن غرابة هذا البيت تَمثلُ حتى في عيون أبناء اليوم لو أنهم زاروه، غير أن أحدًا لا يزوره. بيتٌ خارج الزّمن، عالقٌ مثل صاحبه الهَرِم بين أمس واليوم. ما انفكّ الموتُ يستثني مستورًا حالَ مروره في الجوار،

ويتجاهل ابنَ خادمةِ المقام المنفي من الجزيرة إلى الدِّيرة منذ سبعة عقودٍ وسِتّة أعوام خلت. يأخذ الخلان والأبناء والأحفاد والجيران، ولا يُبقي أحدًا إلا هو. ولا انفكّ مستور المنسيُّ من الموت يكنزُ الأغراض في مساحةٍ ما جاوزت ثلاث مئة وخمسين مترًا مربّعًا هي مساحة البيت الحكومي وحَوْشِه الصّغير، مثل قبر فرعوني مُجهّز لحياةٍ آخرة. وما تخلّص صاحبُ البيت من شيء مهما اهترأ أو تعطّل عن العمل، لعلّه يستعيد في يوم الحياة. على كلِّ شيءٍ في هذا البيت أن يبقى قيد انتظار، حتى صار البيث مثل بسطات الثّحف في سوق الجُمعة، أو متحفٍ رديءٍ لجامع تُحفٍ غشيم.

ما سكنَ مستور ابن آدم في حياته المديدةِ إلا ثلاثة بيوت. بيت مولده وصباه وشبابه في الجزيرة، حتى بلغ العشرين وهو يخدم المقام مع أمّه وشقيقه الأكبر المحبوس في جسد طفل. وبيت في المرقاب حيث أرسلته أُمّه إلى الدّيرة بالأمانة قبل بناء السّور بسِتّةِ أعوام. كان كلُّ شيءٍ يشبه نفسه في البيت الثّاني، بيت المرقاب الطّيني، قبل انتقاله الأخير إلى كيفان بعد ما يربو على أربعة عقود من هجره الجزيرة ومكوثه في المرقاب.

مكثَ في ثاني البيوت أوّل سنةٍ من وصوله الدّيرة وما حطّت البلابل. وعابَ عليه صَحْبُه انتظار البلابل في ديرة لا ماء فيها ولا زرع، لكنه آمن بقول أُمّه، وتحرّى مجيء أحدٍ يسأله عن الكتابين وما سأله عنهما أحد. فعرف أن أمره في الدّيرة يطول. وقرّر أن يتزوّج قبل أن يسرقه الانتظار. ولفّ الكتابين بخرقةِ قماشٍ وأودعهما داخل صندوق، وملأ الصندوق بحبوب الرّز والملح لئلا تُتلِف الكتابين الرُّطوبة. وتزوّج مستور بن آدم «عبدةً» معتوقةً اسمها وردة، وأنجب

منها في بيت المرقاب آدم الثّاني وثلاث بنات. وفي السّنة السّادسة من هجره الجزيرة التحق بصفوف جيش الشّيخ سالم في معركة الجهراء. كرّ كاملًا وفرّ بذراع. وبذراعه اليُسرى ظلّ يُجدّد حبوب الرّز والملح في صندوقه كل سنّة. يُخرج الحبوب الرّطبة والملح المتكتّل ويلف الكتابين بخرقة قُماشٍ جديدة، ويدفنهما في جديد الرّز والملح سنة تلو أخرى. وما انفكّ يُرسل امرأته إلى الصاجّات تسألهن متى يجيء صاحب الأمانة؟ فتتّحد إجابات الصاجّات تؤخّر مجيئه بعد مجيء البلابل، ولا نهر ولا زرع في الدّيرة يُسوّغان مجيء الطّيور الغِرّيدة.

تزوّجت آخر بنات مستور المُصوقَر وتفرّقت مع من سبقنها في بيوت أزواجهن، وماتت زوجته وردة بالشّل وما جاء بُلبُل. وعاش مع ولده الوحيد آدم ينتظر أن يُسلّم الأمانة، أو أن تأذن له أمُّه بالرُّجوع إلى الجزيرة بعد سنواتٍ طوالٍ من هجره. وكبَر مستور، وشقيقه صَنقُور يداوم على زيارته بين زمنٍ وزمن. يعبرُ التَبّة مرّاتٍ ومرّات يحضر فيها أعراس ومآتم ذريّة شقيقه، في بيت المرقاب وتاليًا في بيت كيفان. ويتبادل الشّقيقان أخبار زمنيهما، ويُقلّبان الذكريات وهما يحتسيان شاي العصر بين شهور وشهور، في ساعةٍ ما أحبّ الشّقيقان مثلها إذا ما اجتمع أحدهما بالآخر: «حتى طعم الشّاي يصير أحلى»، على ما يقول مستور لأخيه الزّائر من قديم الزّمان. ويذرف دمعةً كلّما أنصت في الراديو إلى صوت عايشة المرطة تُغني: «أبشري يا عين جابوا لي خبر»، ويسأل مستور شقيقه صَنقُورًا: متى تُبشّرني الأيامُ بخبر مجيء صاحب الأمانة؟ ويَتِمُ صَنقُور تَبّة الشّهر فيَقفل إلى أمس الجزيرة مثل كُلّ مرّة، يحملُ لأمّه العجيبَ من السّلَع

والعجينة السّوداء وأخبار أجيال مستور وأحوال البلاد وما سوف يصير.

وعاش مستور مع ولده آدم الثّاني في بيت المرقاب وما تزوّج ثانية. ورهن حياته في سبيل ولده الوحيد، وانتظر مجيء البلابل بشيرةً قبل مجيء صاحب الأمانة، وما جاء بُلبُل. وكبر آدم الثّاني وبلغ الثّانية عشرة حينما أخرجه أبوه من المدرسة المباركية، واكترى له دُكّانًا صغيرًا في السّوق الدّاخلي، يبيع فيه ما يشتريه بالجُملة من الرُّز والحنطة والعدس والماش. عرّف النّاس دُكّانَ آدم الثّاني في السّوق بدُكّان آدم الوطني، لأنه لصيق المكتبة «الوطنية» لابن رُوَيِّح. وتزوّج آدم الوطني من خير دُكّانه لمّا بلغ الخامسة عشرة. فأنجب ولده مستور الثّاني في سنة الجُدَري، المرض الذي أجهز على زوجته في مشفى الإرسالية الأمريكية أوائل الثّلاثينيات. وواصل الجدُّ والابن والحفيد عيشهما في بيت المرقاب، وبلغ الحفيدُ السّابعة في ديسمبر 1938، في الشّتاء الذي أبطل فيه الأمير الحاكم أحمد الجابر المجلس التّشريعي المُنتخب. والتحق الحفيد مستور الثّاني بالمدرسة المباركية التي خرج منها أبوه آدم الثّاني، أو آدم الوطني، بنصف عِلم. والجدُّ ما زال يُجدّد حبوب الرُّز والملح في صندوقه القديم.

وفي أحد أيام تلك السّنة المشؤومة، بُعيد شهور من إبطال الحاكم للمجلس، خرج آدم الوطني بعد صلاة الفجر إلى دُكّانه في السّوق الدّاخلي. وأبطأ المشي بعد خروجه من مسجد السّوق يقطع شارع الأمير، يتهجّى حروفًا على الجُدران ممهورة باسم كتلة الشّباب الوطني. ثُمّ أسرع الخَطو في الدّرب الذي يقطعه الحاكم من قصر

السّيف إلى السّوق، يغضُّ الطّرف عن الشّعارات المكتوبة؛ «عاش النّواب المطالبون بحقوق الوطن».. «حِب الشّعب يرفعك الشّعب».. «إخلص للأمانة تخلص لك».. «لك الحكم ولنا التشريع». وشاهد في سِكّةٍ جانبيةٍ بضعة رجالٍ يمحون عباراتٍ غير مألوفة شديدة اللّهجة ضدّ الحاكم. فأسرع آدم الوطني إلى مقهى بوناشي يحتسي كأس الشّاي مثل كل يومٍ على عجل، كأنه ما رأى شيئًا من مخطوطات الجدران، لكن المقهى بخلاف كل يوم كان مزدحمًا بمجموعة من الشّباب المتورطين في السّياسة، يجهرون بآرائهم ضد تسلط البريطانيين وتدخلهم بشؤون البلاد منذ اتفاقية الحماية المبرمة مع الشيخ مبارك قبل أربعة عقود. فتنازل آدم عن حصّتِه من الشّاي وآثر السّلامة. وانسحب إلى دُكّانه وفتح أكياس الخيش ووضع المكاييل على الحبوب، وأسند الميزان إلى الدّكّة الطّينية أمامه. واستفتح الرّزق يكيلُ الرّز والعدس والماش للنّساء والرّجال في السّوق أوّل اليوم.

ولمّا ارتفعت الشّمس فوق الرؤوس أقبل الفداوية ورجال الأمن، يسحلون رجُلًا معصوب العينين مُقيّد اليدين وراء ظهره. فثارت جلبة في المكان، وردّد البعض اسم محمد المنيّس، ولا يدري آدم الوطني من هو المنيّس، فارتفعت هتافات كتلة الشّباب الوطني في مقهى بوناشي، تُطالب بعودة مجلس 1938 المنتخب وإطلاق سراح من سُجن من أعضائه. وتزاحم النّاس في السّوق والتهبت الهتافات. وآدم الوطني بين الحبوب في دُكّانه، لا يفقه في السّياسةِ ولا يدري ما هو المجلس المنحل ولا مَن سُجن، يهتف مع الهاتفين تعاطفًا مع المسحول الذي مسحت به الحكومة ممرّات السّوق. وخرج مستور

الثّاني مع من خرج من تلاميذ المدرسة المباركية على إثر الفوضى. ودخل في زحام السوق الدّاخلي، يعبر إلى دُكّان أبيه القريب من المدرسة. واندسّ بين مجموعة من الشّباب الثّائر اندفعت نحو رجال الأمن والفداوية، فزغردت البنادق. وصُرع رجلان في الفور برصاصتين، قيل إنهما طاشَتا من أحد رجال الأمن في الفوضى. ومستور الثّاني يتأبّط كتب المدرسة، بين الهتافات والأعيرة النّارية، يُطبق كفّيه على أذنيه ويركض إلى دُكّان أبيه. فأدرك عتبة الدُّكّان وما جاوزها إلى الدّاخل، وقد أبصر أباه مُمَدّدًا فوق خيشة الماش منقوعًا في دمه.

وفي بيت المرقاب كبَر الحفيدُ وشاخ جدُّه الذي ما انفكّ يُجدِّد الرُّز والملح في صندوق الأمانة. وعمل مستور الثّاني بعد إتمام دراسته المتوسّطة في دائرة الصّحّة كاتب ملفّات. فألفى نفسه مع مُجايليه في أمواج مَدّ خاطف، يُجدِّفون ويُديرون الأشرعة في بحر السّياسة. وخرج مع من خرج للتظاهر ودعم إعلان تأميم قناة السويس في مصر منتصف الخمسينيات. فأسماه الجيران في المرقاب، عوضًا عن مستور الثّاني، مستور القومي. ووقّع القومي مع من وقّع في الأندية الثّقافية على بيان تأييد الزّعيم عبدالناصر. وقُرِئ البيان في إذاعة صوت العرب في القاهرة فانتشى مع المنتشين، وتظاهر ضدّ الإنكليز والفرنسيين واليهود بعد العدوان الثُّلاثي على مصر. وثار مع من ثار ضدّ القنصل البريطاني في الكويت، ولاحق سيارته بدرّاجةٍ ناريةٍ فقُبض عليه. وهَوَت على ظهره الخيزرانات في مديرية الأمن العام. وما انفكّ مستور الكبير ينهى حفيده عن مناطحة الشيوخ والحكام والسّاسة، وما كفّ الحفيد يُناطح. فقرّر الجدُّ تزويجه عساه يعقل

ويتوب عن مناطحاته الخاسرة مع الكبار. وتزوّج مستور القومي. وحضر العُرسَ صَنقُور من أمس الجزيرة. وأمضى شهر التَّبّة صُحبة أخيه في بيت المرقاب، يُزجّيان الوقت على ما اعتادا في أوقاتهما الأثيرة، يُقلّبان الذّكريات في جلسات شُرب الشّاي الذي يحلو في لقاء الأخوين على ما يقول مستور الكبير. وفي الحين نفسه يمكث مستور القومي مع عروسِه يقضيان من شهر العسل في حُجرتهما أيامًا.

وفي آخر سنة لهم في بيت المرقاب أنجب مستور القومي ابنه البِكر. أراد أن يُسميه جمال عبدالنّاصر تيمُّنًا بالزّعيم العربي سنة وحدة مصر وسوريا، لكنه على الغُرفِ المتوارث أسمى ابنه الأوّل آدم الثّالث، سَميّ جدّه آدم الثّاني؛ آدم الوطني الذي مات على الماش.

وانتقل مستور الثّاني مع زوجته وولده وجدّه إلى هذا البيت الحكومي في كيفان أواخر الخمسينيات، آخر ما انتقل إليه مستور الكبير وقد سلّم بيت المرقاب بعد تثمينه إلى الحكومة لقاء البيت الجديد، عقب هدم الشّور وتوزيع المناطق السّكنية الحديثة خارج حدود الدّيرة. وحرّم الحفيذ على جدّه أن يحمل معه أي شيءٍ قديمٍ من بيت المرقاب البالي. وما حمل مستور الكبير من بيت أمسِه في مدينة الطّين مفرشَ حصيرٍ ولا موقد فحمٍ ولا تذكار. ما أحضر إلا صندوق الأمانة العتيق، يُحيطه بذراعه الوحيدة إلى صدره. وتخلّص حفيده مستور الثّاني من كل شيء يمتّ بذكرى الطّين وزمن الفقر وأيام الشّقا، وتركه في بيت المرقاب الذي تسلّمته الحكومة بعدما رشّ النفط الدّيرة بخيرِه. وأقبل على البيت الجديد واستبدل بالدّشداشةِ البنطلون والقميص، ولولا الحياء لَنزع الغترة

المكوّمة على رأسه دونما عقال. وألفى مستور الكبير نفسه غريبًا في مكانٍ خالٍ من الألفةِ لا يُشبهه، وأشياء لا يفهمها وأغراضٍ لا يُحسن استعمالها. فتمرّد على حداثة الحفيد غير المفهومة، وزاحمها بملءِ البيت بكلّ قديمٍ يفهمُه. ويمرُّ به الزّمن سريعًا كلّما أقبل عليه حفيدُه ببدعةٍ جديدة معقّدة. ويتجاوزه الزّمن، وما حطّت البلابل وهو ينتظر تسليم الأمانةِ لشخصٍ لا يجيء.

وبعد سنواتٍ من انتقالهم إلى بيت كيفان زارهم صَنقُور، بعد إصدار قانون الجنسية، واستخرج له حفيدُ أخيه الأوراق الثبوتية وشهادة الجنسية الكويتية الأولى بالتأسيس، بعدما أثبت وجود أسلافِه بالبراهين في الجزيرة قبل عام 1920، سنة بناء السّور ومعركة الجهراء. فتحصّل صَنقُور المُصَوْقَر على الجنسية في السنة التي أقرّ فيها البرلمان المادة 206 لقانون منع بيع وتعاطي الخمرة في الكويت في عام 1964.

وفي البيت الجديد أنجب مستور القومي بعد آدم الثّالث توأمين متماثلَين، فشطرَ اسم الزّعيم عليهما، جمال وعبد النّاصر. فأدرك مستور الكبير جيلًا من أبناء الحفيد ولا يبدو عليه أنه سوف يموت. ومات مستور القومي في شارع إشبيليا، أثناء عودته إلى البيت من الوردية الثّانية لعمله في مستوصف كيفان. نطحته حافلة مسرعة وحشرته تحت عجلاتها. فسوّته ودرّاجته النّارية بالرّصيف المقابل لساحةٍ ترابيّةٍ أسماها أهالي كيفان «براحة مستور» بعد الحادث الذي روّع أهل المنطقة صيف 67. وترك موت مستور القومي لجدّه ثلاثة أيتامٍ وأمّهم الأرملة، مَن في رعاية مَن؟ رجل في الثّالثة والسّبعين وأرملةُ حفيدٍ لا تعمل، وأطفالٌ أكبرهم في الثّامنة وأصغرهم توأمان

في الثّالثة. لكن على مستور الكبير أن يعيش حتى يُسلِّم وديعة الصندوق. وعاشت الأسرة على ما ترسله من الأمسِ خادمةُ المقام مع صَنقُور من قلائد وحلَقٍ وخواتم وأساور ذهبية تتبرّع بها زائرات المقام، وعلى مبلغ دِيّةٍ فرضتها المحكمة على شركة النّقل العام، تعويضًا عن حياة مستور القومي، مستور الثّاني الذي ناطحَ الكبار، فنطحته الحافلة في شارع إشبيليا.

ومدّ الله في غمر الجدّ الكبير حتى قبَرَ أرملة حفيده، ومات ذِكرُ حفيده مستور القومي لمّا شيّدت شركة النفط محطة بنزين كيفان، في السّاحة التي ما عاد أحدٌ من الأهالي يُسميها «براحة مستور» بعد بناء المحطّة. وعاش الجدُّ الكبير مع أحفاده الثّلاثة. يُنفقون من دِيّة مستور الثّاني حتى آخر دينار سنة 1980، حينما اشترى التوأمان جمال وعبدالنّاصر سيّارتيهما الـ «كورڤِت» والـ «كَمارو». سنةٌ مات في أوّلها جمال مُتسمّمًا بصمغ الباتِكس في حُجرته التي لم تُفتح منذ حملت جثته سيّارة الإسعاف قبل عشر سنوات. ومات في آخرها عبدالناصر ثملًا بالكولونيا، في حادثٍ هشّمه داخل سيّارته الـ «كَمارو» في تقاطع شارع البلاجات على بحر الخليج.

وما بقي في بيت كيفان منذ سنةِ موتِ التوأمين إلا شقيقهما الأكبر آدم الثّالث وجدُّ أبيه مستورُ الكبير. وقد دخل حفيد الابن في اكتئابٍ عزله في حُجرته بعد فقد شقيقيه التوأمين، وما شُفي من كآبته إلا بأمر مستور الكبير أن يُكوى في رأسه كي يطيب من فقده، فكُوِيَ حفيدُ الابن في مسجد الخصيمي وما طاب. وما وجد آدم بعد موتِ شقيقيه التوأمين والكَيّ شاغلًا يُلهيه عن ذكرياته، ولا عزاء يمسح على قلبه الفارغ إلا حضور الدُّروس الدِّينيةِ في مسجد الخصيمي

آخر الشّارع. انتشلته دروش الصّحوةِ من غفلةِ اليأس في غمرة أساه على فقد شقيقيه. وطال غمر مستور الكبير وطالت في وجه حفيد ولده لحيةٌ غزيرة. ومكث الاثنان لا ثالث لهما إلا صَنقُور زائرًا بين شهرٍ وشهر.

وبعد سنة هجرة البلابل إلى الكويت كثّفَ القصاصة عبور التَبّة، يُزجّي جلسات الشّاي مع شقيقه، يتحدّثان عن الحرب العراقية الإيرانية التي أرسلت البلابل إلى الدّيرة بشارة. ويتحرّيان وصول صاحب الأمانة. ويُقلّبان في ذاكرتيهما زمن الجزيرة. ويهجُّ صَنقُور بقية اليوم من البيت البارد المصمت إلى أماكن في الدّيرة تُشبه نفسها؛ قرية «يوم البحّار» التّراثية والشّوق القديم وبعض المساجد العتيقة. ويُنهي يومه في صالون الجلوس، يتبارى مع ابن حفيد شقيقه في لعبةِ الـبيبي فوت التي أُغرم بها. ويغيب القصاصة بعد شهرٍ في التّبّة على وعد زيارةٍ في تَبّةٍ جديدة.

والغمر يمر. والجدُّ لا ينفكُّ يُذكّر حفيدَ ولده بعد مجيء البلابل، بأن أحدًا لا يدري أحدٌ من يكون سوف يجيء ويأخذ الأمانة، اللعنة التي أصابته بحياةٍ لا تنتهي. وأدرك بعد هذا العمر كله أنه ما عاد يرغب في العودة إلى جزيرة مولده وصِباه وشبابه، بعدما هُدِم المقامُ وماتت خادمته قبل أربع عشرة سنة. ما بقي لديه من حُلم إلا تسليم أمانةٍ حرّمت عليه الموت ما دامت لديه، فمكث حيًا في جسدٍ يُشاكس الموتَ بالشّيخوخة والمرض، لكن لا يموت.

وآدم الثّالث، بقدر تديُّنِه وانكبابه على دروس المسجد وأنشطة المراكز الدّينية ما استطاع تكذيب مستور الكبير، وهو يُبصر بين حين وآخر مُعجزة زيارات العَم الكبير الذي لا يكبر، صَنقُور. وبقدر

محبّته والتصاقِه بجدّ أبيه فإنه يحلُم بساعة خلاصه، حتى صار كلاهُما ينتظر صاحب الأمانة الذي أبطأ في المجيء.

***

أدخل آدم عمّ جدّه وضيفه في صالون الجلوس في بيت كيفان. واقتعد صَنقُور جانب الحشيّة الأرضية في المكان الهجين بين جِدّةٍ وقِدَم. وتبعه في الجلوس سليمان، وبُلبُل جوزة عيّاد ما زال في رأسِه يُغرِّد. يلمسُ السّجاد بيده، وينظر إلى موجوداتٍ يجهلها في المكان الغريب؛ مكيف الهواء فاغر الفم ينفخ الهواء باردًا، ومروحة السّقف تتدلّى مثل عنكبوت شَبَحِيّ عملاقة، وبُسُط الحصير معلّقة بالجدران، والتلفزيون وطاولة البيبي فوت في منتصف الصّالون. وتربّع آدم أمام ضيفيه يُحيّيهما ويُرحِّب بصوته الغليظ، فقال له صَنقُور وهو يومئ بحاجبيه صوبَ سليمان:

«إياك أن يدري الجيران بوجود الضيف.. لا الجيران ولا أي أحد».

هزّ آدم رأسه متفهّمًا، فاستطرد صَنقُور:

«قُل لأخي جاء أخوك قبل موعده هذه المرّة».

«أبونا نام قبل قليل.. أوصاني بأن أوقظه قبل صلاة الجمعة».

نهضَ آدم يُحضِّر الشّاي لضيفَي مستور الكبير الآتيين من الأمس. وانبرى صَنقُور يحكي لـ سليمان أخبار الزّمن وحوادثه وإلى أين صارت الأمور. وولد شايعة يسمع حديث صاحبه وما كفّت في رأسِه تغاريد البُلبُل. وعاد آدم بصينية الشّاي، وسليمان سارحٌ في أحاديث صَنقُور وهو يُملي النّظر إلى جوار إبريق الشّاي زجاجة ماءٍ وطاسّة

نحاسية، يتهجّى في نقوش الطّاسةِ آية الكرسي تُشبه التي كانت تبيعها أم حدَب. ودارت كؤوس الشّاي مثلما تدور في رأس سليمان الهواجس. وآدم يُخبر صَنقُورًا عن مجريات كأس العالم في إيطاليا، وعن خروج المنتخب المصري يوم أمس من دور المجموعات ومغادرة البطولة:

«واحد صفر.. الإنكليز غلبونا».

وفهم صَنقورٌ سبب عُقدة حاجبي عيّاد قبل سويعة في القرية الثّراثية. وجرّتهم أحاديث كأس العالم إلى طاولة الـبيبي فوت. فنهضَ صَنقُور يُباري آدم بضع جولات. أطبق القصاصة قبضتيه على مَقبَضَي اللُّعبة، فمالَ على الملعب المصغّر يُنقل بصره بين اللّاعبين البلاستيك: «أين راحت رؤوسهم؟». أخرج آدم مطواة من جيب دِشداشتِه، وأبرز نصلها:

«اثنان وعشرون رأسًا، قطعتها بهذه، ورميتها في الزُّبالة».

وقبل أن يسأله صَنقُور سببًا؛ قال آدم إن خطيب مسجد الخصيمي حذّر من دخول التماثيل البيوت، لأنها -مهما كان غرضها- هي في الحق أصنام. وحينما استفتاه آدم عن لاعبي الـبيبي فوت الماكثين في البيت منذ شهور؛ سمح له الخطيب شريطة قطع رؤوسها لئلا تتشبّه بخلق الله، وأوصاه بأن لا تشغله اللُّعبة عن واجباته الدّينية. فسخّن آدم الثّالث نصل سِكّينه بالنّار وجزّ الرؤوس البلاستيكية ورماها في القِمامة.

ولعب صَنقُور وآدم حتى ارتفع أذان الجمعة الأوّل. فأسقط آدم رأسه على صدره كأنما يشمُّ لحيته، وراح يُكبّر ويتشهّد ويُسبّح.

ولمّا انقضى الأذان الأوّل هبّ ليوقِظ مستور الكبير، فقال له صَنقُور باسمًا:

«قُل لأخي جاء أخوك بالخبر».

وترنّم صَنقُور بشطرٍ من أغنية:

♪ أبشري يا عين جابوا لي خبر ♪

وذهش سليمان لحلاوة صوتِ القصاصة. وفغر آدم فمه وبحلق إلى عمّ جدّه، والدّمع يطفر من عينيه ويختفي في مجاهل لحيته. يدري إلام يُفضي هذا الغناء ويدري ما الخبر. قال بصوته الأجش:

«تحلف بالله؟».

سأل آدم فأجاب صَنقُور:

«طِر لأخي وبشّره..».

وعاود التّرنّم بالأغنية. فركض آدم في الممرّ إلى حُجرة مستور الكبير يُبشره بوصول المنتظر. وصاح صَنقُور ضاحكًا منتشيًا:

«..قُلها ولا تُغنّها بصوتك الخايس».

وقهقه والانشراح بادٍ على قسماته. وسليمان إلى جواره يُفكّر في هذا العبث الذي يجري له. وما أطال آدم الثّالث مكوثه في حُجرة الجد الكبير حتى صاح عند بابها:

«حيّاهُم الله.. حيّاهُم».

فنهضَ صَنقُور يتبختر في مشيه إلى الممر، بوجهه الطّفل وابتسامته الغائرة بين خدّيه يعبر بين باب حُجرة آدم وباب حُجرة

مستور الثّاني المهملة منذ سنة النّكسة. يتبعه سليمان يتلفّت حوله إلى الكراكيب التي تملأ المساحات في الأرض والجدران. يشي الغُبار أن هذا البيت بلا امرأة. ويُدرك صَنقُور حُجرة مستور الكبير أمامه في آخر الممر، يُطرِّب في صوته يُسمِع شقيقه الماكث في الحُجرة كلمات أغنية تشي بالبشارة المنتظرة:

♪ أبشري يا عين جابوا لي خبر ♪

***

خريف ١٩٢٠

(49)

رجوع الشّيخ إلى مَثواه

♪ وفي رُبى الجهراء، لو تنطق الأشياء،

لأنشدت قصيدة طويلة ♪

الأخوان رحباني

أسفرَت السّماءُ وأنورَت، واستهلّت غيومُ الوَسْمِ ثانيةً وأمطرت، ورفرفت عباءات الصاجّات في فجرٍ خرافي الوقائع، فوق سطوحٍ بالصّمت والرّجاء تدثّرَت. وتردّدت في فضاء الدّيرة تراتيلُ شيوخ البَحر السّبعة تُحاكي هديرَ الموج؛ هولو هيِه.. هولو هيِه. وتخلّلَ صياحُ الدُّيوكِ نهيقَ الحمير، وعلى ما أبصرَ الدّيك والحمارُ في الوقتِ نفسِه ذاك الفجر؛ كأنما وقعت بين الملائكة والشّياطين واقعة.

اعتلت العجائز المتّشِحات بسود العباءات سطوح دورهنّ الطّينية المنثورة في سِكَك الدّيرة، في الأحياء الشّرقية والقِبلية والمرقاب، وقتَ أرسل الشّيخ أحمد المراكب نجدةً إلى الحاكم والأهالي المُحاصرين في القصر الأحمر في الجهراء. وقفنَ موليات صدورهنّ إلى الغرب تحت السّماء الرّمادية المُشعّةِ بالبُروق. أُم حزام وأُم صلاح وأُم غريب وأُم صَلبوخ وأُم عبدالرّحيم وأُم جابر وأُم عَوَض. وقفنَ مثل عباءاتٍ رطبةٍ معلّقة فوق الشّطوح تلهو بها ريحُ الفجر الغريب. يُمسكن بالسّعفات اليابسة، ويُباعدن بين أذرعهنّ ويَصفِقن الهواء مثل خنافسَ أبي جُعَلٍ تهمُّ بالطّيران، فيُعيدها وزنها إلى الأرض ولا تطير. يُكوِّرن الشّفاه اليابسة وينفُخن جاحظات العيون. يواجهن

مغرب الشّمس وقت طلوعها وراء ظهورهن، شاخصات الأبصار صوبَ شيءٍ بعيد.

***

وعلى بُعد أميالٍ قدرُها ثمانية عشر وراء البحر شرق الدّيرة، وقفت كبيرة الصاجّات أم صَنقُور على رأس التّل في ساحة مقام الجزيرة، غير بعيدٍ عن ضريح سعيدة، تبرقُ في صدرها قلادة الأصداف والأظلاف الموروثة من أُم حَدَب والسّالفات من صاجّات مدينة الطّين. وحولها عشرات من طيور اللّوْهةِ يلمعُ ريشُها الأسود الدّهين، تحطُّ على صخور السّاحل وحول قُبّة المقام تتربّص بعيونها الصّفراء. تقفُ مُشرئبة الأعناق تُطالع الغرب وترفرفُ بأجنحتها وهي في أماكنها ثابتة على الصُّخور. وتهبُّ ريحٌ رخاء من شود الأجنحةِ فتدفعُ بياضَ الأشرعةِ في إبحارها صوبَ الغرب، والموج يتهادى مع الرِّيح مثل كثبانٍ عظيمةٍ زرقاء.

شرّعت خادمةُ المقام ذراعيها تحت العباءة، يتطلّع صدرها العامر نحو الغرب. وتبدّت المرأةُ في طلعة الفجر مثل لَوْهةٍ عملاقةٍ تُرفرف بين أفراخها بجناحيها الأسودين. بدأت تُناور الهواء بطيئة، فتسارعت تحت وابل المطر، ثُمّ بلغت من شِدّة الرّفرفةِ بعباءتها ما كاد يرتفع بها عن الأرض شِبرًا. والزّورق البُخاريّ «مِشرِف» يمخرُ عُباب الخليج يقفُ في مقدّمته الشّيخ عبدالله بِكرُ الأمير وأمير البحر بِن رومي، يُحاذيه السّنبُوك «الحامدي» بصاريتَيه العملاقتين عظيم الشّراع، في أوّل إبحارٍ له من دون شيخ البحّارة سَنَد بن هولين. ووراء السّنبُوك تلوحُ المراكب الخشبيّة موسوقة بالرجال والمؤونة والسّلاح.

***

وعلى بُعد أميالٍ قدرها بضعةُ وعشرون جنوب الدِّيرة، خطفَ شِهابٌ ناريٌّ في سماء الفجر فوق جبل وارة، وهبط عند هيكل الضَّريح الخفيّ للجنّي بُرقان أبي العجائب. فارتفع صوتٌ مُنغّمٌ ليس بالغريب لو كان السّامع من أهل الدّيرة:

يا ربّة الذكرى والشّمسِ والطّين..

والبحرِ والصّحرا.. لو كنتِ تدرين..

سارت أم حدَب ترفعُ سراجها في شِمالها، وبيمينها تحملُ سعفتها اليابسة. ووقفت على أرضٍ تنضحُ القارَ لزجًا أسود على الثّراب وبين صخور البر.

يا الزّرقا يا الصّفرا.. حمرا الشياطين..

إن طاحت الجَهرا.. كثرت سكاكين..

تلفّتت بين خِيام بيوت الشّعر المتناثرة في المكان، والمطر يزخُّ على عباءتها. والبروق تومض في السّماء مثل سياطٍ من لظى. والفضاء يضجُّ بالهزيم مثل نذيرِ السّماءِ للأرضِ أن طامّة كُبرى تحيق بالكويت. وصوت العجوز ما زال يُردّد على لحن أُنشودتها القديمة، ويُكذّب حدسها بسقوط الدّيرة:

يا صاجّة يا صاجّة.. ما صدقتي..

ولا يدري حتى كاتب الأسفار كيف غادرت العجوزُ الدّيرةَ المُسَوّرة، وبوابات السّور الخمس مُحصّنةٌ موصدة، لا تُفتح إلا لِمامًا للفازّين

من معركة الجهراء. كيف انسلّت أم حدَب وجاوزَت السُورَ يا سعفة الصاجّة؟! *قلت لكَ لا تلعب مع أم حدَب يا كاتب الأسفار!* يا صاجّة يا صاجّة.. ما كذبتِ.

خرج شيخٌ مديدُ القامةِ من أحد بيوتِ الشّعر فجرًا قُرب الضّريح الخفيّ، يتتبّع مصدر الغناء والصّوت المألوف بين زخّات المطر. فأبصر أم حدَب تُقبل بعباءتها صوبه تجرُّ سعفتها، بارئةً من البَرَص مستقيمة الظهر يشعُّ وجهها سوادًا أصيلًا. وخرج على صوتها الرجال من خيامهم، وتحلّقوا حول الشّيخ والعجوز التي سكتت عن غنائها ووقفت أمام الشّيخ الذي ما كاد يتعرّفها بوقفتها وبشرتها الجديدتين. نقّلت بصرها بينه وبين الرّجال قبل أن تقول:

«الشيخ سالم ورجاله محاصرون في القصر الأحمر. لو طاح القصر تطيح الجهراء، ولو طاحت الجهراء تطيح الدّيرة».

فوقعت كلمة الدّيرة في نفس الشّيخ فارع الطّول موقع فزع، ففي الدّيرة حشاشةُ القلبِ شايعة الخبارى.

***

وعلى بُعد أميالٍ قدرها ثمانية عشر غرب الدّيرة، فُتِحت بوابة القصر الأحمر على مصراعيها في طلوع الشّمس. أربعة من أبناء أبي السّواعد يدفعون المصراع الأيمن، وأربعة يدفعون الأيسر. والمحاصَرون العطشى يتدافعون على الخيل والأقدام، ينفرون من قصرٍ لا مناص من سقوطه إذا امتدّ الحصار يومًا آخر. وكفّ الإخوان إعمال مناجلهم في الجدار الغربي، وأسقطوا السّلالم المحمولة على الأكتاف، وألقوا بالمناجل وحملوا البنادق وشهروا الشيوف. ونفرَ

الهجّانةُ من معسكرهم في النّاحية الغربية. وأقبلوا على ظهور جِمالٍ يصمُّ هديرُها السّماءَ، ويهزُّ الأرضَ خبيبُها. وبوابة القصر مشرعةٌ تلفظُ المُحاصرين المسلّحين ركضًا إلى الأمام مثل الغمي. مثل الهاربين من موتٍ إلى موت. وضجّت سماءُ الصُّبح بصيحات أمير الإخوان: هبوب الجنّة. وردّ رجاله:

«وين أنت يا باغيها؟».

فدوّت البنادق وصَلْصَلَت الشيوف وصهلت الخيلُ ورَغَت الجِمال. وسالت الدّماء وانسكبت خيوطها على الأرض وتفرّقت خطوطًا متعرّجةً مثل شقوق الجفاف في أديم الرّمضاء. ومات من مات في سبيل جنّتِه. ودوّن كثيرٌ وقيل أكثر. وسَطِرَ في الكُتُب ما تسطّر، فيها الحقيقةُ وما تأسطَر. وكتَبت الكويت وكتَبت نجدٌ وكتبَ الإنكليز مروياتهم. وما ذُكِرَ في كتابٍ ولا نُطِقَ على شِفاهٍ ما يقول كاتبُ الأسفار في مرويته، ذلك أن ولدَيّ بخيتة في فورة القتال تواجها، الخبيرُ راجلًا يدعو الغِرّ أن يترجّل من جواده ويتبعه إلى رجال القصر. والغِرُّ يدعو الخبيرَ أن يمتطي الجوادَ وراءه للعودة إلى معسكر مَن طاع الله. وانتبه «عبدٌ» من «عبيد» القصر إلى ولديّ بخيتة أحدهما يدعو الآخر إلى الجنّة. واحدٌ يقول إن الجنّة في القصر والآخر يقول إنها عند من طاعَ الله. فأسقط «عبدٌ» القصر عطاالله من صهوة جوادِه برصاصةٍ استقرّت في صدره. وأجهز على ساطور بنصلِ سيفِه الهندي، ودحرج رأسه بين الأقدام حتى همدَ مُغبرًا شاخِص العينين صوبَ القصر. ونُسي أمرُهما، «عبدان» قتلهُما «عبد»، دُفِن أحدهما في أحد أحواش القصر، ويبقى قبره إلى آخر الدّهر بلا شاهد، تدوسه أقدام زوّار القصر التّذكاري في الجهراء،

والقِلّة التي تدري بحكاية القبر في قابل الأيام لا تدري من يكون صاحبه: عطاالله الخيزرانة أم ساطور العَرد.

دُوِّن كثيرٌ وقيل أكثر، والخيالُ في دروب التّاريخ يتبختر، وسطّرت الكُتب ما صار وما لم يصِر، وما جاء أحدٌ على ذِكر الفارس الذي أوفى قَسَمَهُ بشاربه وهبّ لنصرة الجهراء لولا أن استيقظ ضميره، فنجا بحصانه، ومات مبتلعًا لسانه. ولا مرّ سطرٌ في هامش كتابٍ يُشير إلى ابن خادمة المقام الأصغر، مُذ هبّ متطوعًا ووهبَ نفسه للدِّيرةِ كاملًا، وعاد من الحرب ناقصَ ذراع، يُقلِّب بذراعه المتبقية حبوب الأرُزّ والملح في صندوق الكتابين السّريين. ولا ذُكر ضمن مشاهير الشُّهداء ثمانيةُ أشقاءٍ أقسموا ألا يتوكأ أبوهم على عصًا ما داموا يشمُّون الهواء. وما عاد فيهم من يشمُّ الهواء وقد أعمَل فيهم الإخوان الرّصاص والسيوف والخناجر والمناجل. فتوكأ أبوهم العصا بعد معركةٍ كادت تنتهي على هزيمة، لولا أعلنت نجدةُ الشّيخ أحمد عن وصولها بدويّ مدفعٍ ضجّ في شرق الجهراء ناحية البحر. وتراءى للمتحاربين الزّورق البخاري «مِشرِف» يُدوِّي مدفعه بعيدًا عن السّاحل، ومن حولِه السّنبُوك «الحامِدي» وبضعة مراكب محمّلة برجالٍ يُدوِّي بارود بنادقهم في الهواء. فارتفعت من المراكب المقبلة صيحات الرِّجال تؤدِّي العَرضة بصوتٍ واحد، تُردِّد الغناء وراء النّهام الأعمى عبدالله في السّنبوك «الحامِدي»:

يا دارًا لنا حقّك علينا

يوم الضِّيق ما نبغى شفاعة

فقُرعت طبول الحرب فوق المراكب وشهِرت السّيوفُ السلائل

لامعةً عالية:

نجعل السلايل في إِيدينا

شبعةً من عقب المجاعة

واقترب القرعْ والصيحات مع اقتراب الأشرعة المنشورة في الهواء:

لو ما إرادة الله ما مشينا

وأسقينا المُعادي سِم ساعة

وسكتت طبول العَرضة وصيحات الرّجال حينما رست المراكب على سِيف الجهراء. وأقبل في الوقت نفسِه من الجنوب جناح الميمنة وقد تزوّد في الدّيرة بالعتاد، بعدما كسره جناحُ ميسرة الإخوان وشتّتت شملهم ظُهر أمس. اصطفّوا خمس مئة من الفُرسان، مُغبري الوجوه طويلي الجدائل وراء قائدهم يُصوِّبون البنادق، على حين ارتفع صوت امرأةٍ وراء تلٍّ بعيد تهزج بعالي الصّوت:

يا الزّرقا يا الصّفرا.. حمْرا الشياطين..

فسكت دوِي البارود وصليل السّيوف. واشرأبت الأعناق صوبَ الصّوت الآتي من بعيد:

إن طاحت الجهرا.. كثرت سكاكين..

ظهرت أم حدَب فوق رابيةٍ صغيرةٍ أمام القصر تحملُ سعفتها اليابسة، تُجيل بصرها بين المتعاركين الذين شَدَهَهُم صوتها الشّجي:

يا صاجّة يا صاجّة.. ما صدقتي..

وكشفت الرّابيةُ عن سَنَد بِن هولين إلى جوار أُم حَدَب، يمتطي صهوة فرَسِه الأثيرة؛ الرّملا، تُرابية اللّون رشيقة الجسد. تقدّم شيخ البحّارة مع شيخ قبيلته، وتبعهما خمس مئة فارس هَبّوا لنجدة المحاصَرين بمباركة عجوز المرقاب التي ما سكتت أُهزوجتها منذ ارتفعت في الفضاء مثل الأذان.

ولمّا حوصِر المحاصرون جهة البرّ والبحر والقصر همَدَت هبوبُ الجنّة، وتراجع باغوها إلى معسكرهم في الغرب، وعلى بركةِ إبراهيم عمود الدّين ومحمّد رسول الله؛ أُعلِنت هدنة.

واقتضت الهدنة أن يسحب الإخوان قوّاتهم من الجهراء إلى آبار الصّبيحية، وأن يعود الشّيخ سالم ورجاله إلى الدّيرة.

وغُلِّقَت مطالب الإخوان ظهيرة يومهم هذا، ونُسِيَ أمرُ العباءة.

***

صيف 1990

(50)

الخبر

«كأس الشّاي الأخيرة»

♪ أبشري يا عين جابوا لي خبر ♪

دخل صَنقُور حُجرة شقيقه الأصغر مستور الكبير يُغنّي له أغنيته الأثيرة، كأنه حفيدٌ حفيدٍ يدخلُ على جدٍّ بعيدٍ يُحتضَر. ووقف آدم وسليمان على عتبة الحُجرة المعتمة لولا شعاع باهت انسرب من شقّ الستارة المهلهلة. أقبل القصاصةُ على شقيقه الممدّد ذابلًا فوق السّرير مثل خِرقة مهترئة. فانحنى عليه باشّ الوجه غاطس الابتسامة بين خدّيه، دامع العينين رافع الحاجبَين، يُصفّق برفقٍ ويُمايل رأسه كأنما يُناغي رضيعًا يصحو من النّوم بعد مغص ليلةٍ طويلة. يُبشّر مستورًا بالعودة إلى حبيبة قلبه فَيلَكا. قبّل جبينه وغنّى له على ما غنّت «عايشة المرطة» في التلفزيون والإذاعة قبل سنين:

أبشري يا عين جابوا لي خَبَر

في حبيب الرّوح باكر تفرحين

علّموني عنّه، قالوا ما قدَر

وكشفَتْ الأيام شوقه والحنين

ومستور الكبير يُشبه جذعًا يابسًا عاريًا من الأوراقِ مقطوع الغُصن. عظامٌ مكسوّة بجلدٍ داكن السّوادِ متغضّن مثل لِحاء طلحةٍ

مُعمّرة. وقِمّة رأسه الأصلع مُحاطة بالشّعر الأشيب الأجعد. يُغطي اللّحاف الصّوفي ساقيه، ولا يتحرّك فيه إلا جمجمته المكسوّة بجلدٍ لامعٍ مثل لحاء الأبَنوس. والرّوح ما زالت في ذراعه الوحيدة النّاجية من المعركة القديمة. يتغضّب الكلمات هامسًا كأنما تكدّس في حنجرته الغُبار:

«أي خبر؟».

قبّل صَنقُور صلعة مستور الكبير ثانية، وأمارات البِشر والتأثر على وجهه. بدا الرّجلُ الطّفلُ في غمرة مشاعر كأنما يوشك على البُكاءِ والضّحكِ في الوقت نفسه. أمسك بكفّ شقيقه اليُسرى وقبّلها:

«الخبر الذي قضيت عمرًا في انتظاره.. جاءك من يسألك ردّ الأمانة يا خُوي».

نظر صَنقُور صوبَ سليمان عند الباب. فدفع آدمُ سليمان بكتفه برفق وهو يقول:

«أبونا كان ينتظرك من قبل أن يولد جدّي آدم الوطني».

قطّب سليمان حاجبيه وما عرف من يكون آدم الوطني، فأوضح آدم: جدّي آدم الثاني، فهزّ سليمان رأسه ثانيةً بلا فهم، ومشى أمام آدم الثالث متردّد الخُطى صوبَ الجسد الممدّد على السّرير. وآدم وراءه يشهد يومًا يشبه أسطورة توارثتها ذُرية ابن خادمة المقام؛ مستور الكبير، الذي يُسلّم الأمانة لأحدٍ لا يدري أحدٌ من يكون. قرّب صَنقُور كرسيًا خشبيًا إلى سليمان ودعاه إلى الجلوس أمام أخيه. فجلس بِن سهيل إلى جوار مستور الكبير متوتّرًا. مالَ بجذعه إليه:

«تسلّم عليك أمك، وتقول لك سلّمني الأمانة وإرجع الجزيرة».

انفرجت أهدابُ الهَرِمِ الشّيباء عن نظرةٍ شاخصة في وجه سليمان:

«من أنت؟».

سأل مستور الكبير كأنما ينفثُ غُبارًا من ثغره، وهو يُكابد في إبقاء جفنيه مفتوحين على اتّساعهما. ولما أجابه ولد شايعة بأنه سليمان بن سهيل، تحقّق طريخ الفراش من الاسم في ذاكرةٍ معطوبةٍ لا يثق بها، فسأل:

«أنا لا أعرفك.. هل تعرفني؟ هل التقينا من قبل؟».

هزّ سليمان رأسه نافيًا، فأغمض مستور الكبير عينه، وقال لشقيقِه صَنقُور:

«هذا من قالت عنه أمي رحمها الله؛ يسألك عن الأمانة أحد لا يعرفه أحد.. هذا والله صاحب الأمانة».

وما تخيّل سليمان أن هذا الجسد الممدّد اليابس مثل حطب الموقد ينضحُ هذا القدر من الدّموع. وفشل صَنقُور بكبح شهيقه المتقطّع لبكاء شقيقه. بكى وهو يمسح على جبين مستور الكبير الذي قال:

«الصندوق يا آدم».

فحمل آدم الصندوق من أعلى خزانة الملابس الخشبية، ووضعه في حِجر صاحِب البيت الذي بالكاد يفتح جفنيه. حاول الاتكاء على ذراعه الوحيدة، فأسنده القصاصة وأجلسه مُدعّمًا ظهره بثلاث وسائد. وفتح مستور الكبير الصندوق بيُسراه ودسّ كفّه في حبوب الرُّز والملح وأخرج الأمانة ملفوفة بخرقة قماش. ناولها سليمان،

وآدم خلفه دامع العينين. وأخرج بن سهيل من خرقة القِماش كتابَين. تهجّى حروف غلافيهما وما فهم ماذا يعني «سِفر العباءة» ولا «سِفر التّبّة». فأمسك بالنسختين ورفعهما أمام مستور الكبير يسأله ما هذا؟

«أنا مثلك والله لا أدري، ما فتحتهما منذ أعطتني إياهما أمي في الجزيرة وأرسلتني إلى الدّيرة قبل سنين طويلة.. لقد تأخرتَ كثيرًا يا ابن سهيل.. ما فاتك الوقت صحيح، لكن فاتني».

وما فاه سليمان بكلمةٍ وهو يُقلّب الكتابين، وجفّف صَنقُور دمعه بكُمّ دِشداشَتِه، وتبسّم في وجه أخيه:

«ما فاتك إلا الشّر يا حبيب قلب أخيك.. أوصلتَ الأمانة وتقدر أن ترجع إلى الجزيرة. أمي تنتظرك، وجلسات الشّاي القديمة.. لا تُضِع الوقت».

أجابه مستور الكبير بصوته المتعب بجملٍ قصيرة متقطعة:

«ما عاد في الجزيرة اليوم شيء تبتغيه النّفس.. منذ ماتت أُمي وهدم المقام وراح كل شيء.. أما إن كنت تدعوني إلى عبور التّبّة للعودة إلى الجزيرة أمس حيث كانت أُمّنا حيّة.. اِعلم أني كبرت عليها وهدّني المرض.. وما عدت أنتظر شيئًا بعد وصول البلابل وصاحب الأمانة إلا..».

صمتَ مستور الكبير يلتقط أنفاسًا ثقيلة:

«..أمانة يا خُوي سلّم على أمي، وقُل لها إن الأمانة وصلت، وإن رائحة الحِنّاء ودخان اللُّبان والدُّخان الأزرق في المقام ما فارقت

أنف ولدها رغم كل هذه السنين..».

ثم التفت برأسه المرتعش إلى سليمان:

«..وأنت يا ابن سهيل.. خذ الكتابين وارحل».

بقي صَنقُور إلى جوار شقيقه في الحُجرة، وغادرها آدم وسليمان إلى صالون الجلوس. جلسا على الحشيّة الأرضيّة، آدم يتصفَّح جريدة، وسليمان يُقلّب الكتابين بين يديه، ويسأل عن التاريخ المدون بالميلادي في الصّفحة الأولى، وهو الذي ما عرف التّاريخ إلا هجريًا في سنين ما قبل التّبّة. أمسك آدم بالكتاب يقرأ تاريخ الإصدار، فأجاب إنه إبريل 1990، قبل شهرين من يومهم هذا. سأل سليمان:

«كيف وجدُكم يحتفظ بهما منذ سنين طويلة؟».

«لا أدري.. اسأل عمّي صَنقُور».

أجاب آدم وهو يُقلّب أولى صفحات «سِفر العباءة». توقَّف عند الصّفحة 21 يقرأ التّراتيل الأثمونية عابس الوجه يستغفر. قصّ من الجريدة طرفًا خاليًا من الحِبر، وأخرج من جيبه قلمًا وشرع ينقل الطلاسم من الرّواية إلى القصاصة؛ ناع طوعَس بَهَموت.. وسليمان يسأله عن الدّاعي فيُجيب آدم: «لا شيء».

التفت سليمان وناظر نفسه في مرآةٍ في ركن الصّالون، وأزعجه انكشاف أُذنيه فسأل آدم:

«ألا ألاقي عندكم غترة؟».

فغاب آدم وعاد بواحدةٍ لفَّها سليمان حول رأسِه. فأُطبق بابُ

حُجرة مستور الكبير. وأقبل صَنقُور على الصّالون من الممرّ ساهمًا كأنما لا يرى شيئًا أمامه. جلس غير بعيدٍ عن سليمان وآدم على الأرض بعدما فتح درج طاولة التليفون وأخرج علبة سجائر ومنفضة زُخامية. وجلس يُدخّن سيجارة ويُراقب دُخانها، كأنما يجلس وحيدًا في الصّالون. سأله سليمان عن الكتابَين:

«جديدان.. كيف تقولون إنه احتفظ بهما كل تلك السّنين؟».

نفخَ صَنقُور وبحلقَ إلى الدُّخان كأنما يبحث فيه عن شيء. لم يلتفت إلى سليمان وهو يُجيب:

«من أجلهما عبرت التَبّة أوّل مرّة إلى زمانٍ غير زماني.. أوصتني أُمي بأن أحضر لها الكتابَين، لأن فيهما الحقيقة على ما قالت أُم حدَب؛ إن الكتابَين سوف يختفيان ويُنسيان ما لم أجئ بهما.. عبرث قبل سبعين سنة إلى هذه السّنة أسأل عن الكتابين، فدلّني النّاس إلى مكتبة الزُّبَيعان، واشتريتهما، فعدت بهما إلى أُمّي بعد شهر.. عندك سؤال غيره؟».

أطبق سليمان جفنيه بشدّةٍ كأنما يُطارد فكرةً في زحمةِ أفكار. وانقطع فكره على فهم لا شيء في دوّامة الزّمن العصيّة على إدراكه:

«لماذا كل هذه المتاهة؟».

أطفأ صَنقُور جمرة السّيجارة في المنفضة بعدما دخّن نصفها، وقال ساهمًا:

«هذه علوم الصاجّات ولا أحد يدري.. لكن كل هذا سوف ينتهي قريبًا».

فصبّ صَنقُور من إبريق الشّاي في كأسين. والتقط نصف السِّيجارة من المنفضة وأطبق عليه شفتيه. وسليمان يُملي النّظر إلى القزم رفيقِ التّبّة غريب المزاج قليل الكلام. حملَ القصاصة الكأسين ومشى إلى الممر، فاستمهله آدم يرفع له آنية الشكر، لكن صَنقُور اختفى في الممر بعدما قال:

«لن يكون طعم الشّاي بعد اليوم أحلى.. مُرٌّ بالشكر ومن دونه».

واستغرب سليمان وجه آدم الذي ابتسم والدّمع ينهمرُ على وجنتيه المكتنزتين:

«الله يرحمه.. والحمد لله».

وانفجر صوت المؤذّن في سمّاعات مئذنة مسجد الخصيمي قُبيل صلاة الجمعة. وضجّ الأذان في رأس سليمان يُزاحم بقايا أثر دُخان جوزة عيّاد، فأخرس المؤذّنُ بذكرِ الله البُلبُل الغِرِّيد.

***

خريف ١٩٢٠

(51)

الصَّرخةُ التَّاسِعة

«ثاكِلان وثماني أرامل واثنا عشر يتيمًا»

وانسحبَ الإخوان من الجهراء بُعيد إعلان الهدنة، وعسكروا غير بعيدٍ حول آبار الصّبيحية يُعزّزون معسكرهم بمزيد من الرّجال والعتاد. وتشمّروا لغارةٍ جديدةٍ على الدّيرة هذه المرّة، ما لم يرِدهم إقرارٌ خطيٌ من بن صُباح بتنفيذ المطالب. وصعد الفُرسان ذوو الجدائل شمالًا إلى سفوان بعد الهدنة. وهبطَ بِن هولين ورجال قبيلته جنوبًا، وودّع أهله في ديارهم وراء جبل وارة صَوب بُرقان قبل أن يُقفِل وحيدًا إلى الدّيرة على صهوة الفَرَس الزّملا، يُمنّي النّفس بلقاء ساكنة القلب شايعة الحُبارى. وأقفلَ الزّورق البُخاريّ «مِشرِف» والمراكب تُبحر وراءه شرقًا إلى مراسي الدّيرة في الحي الشّرقي. وعاد الشّيخ سالم ورجاله إلى البلدةِ التي ضجّ ليلُها بالزّغاريد ودويّ البنادق وقرع طبول العَرضة. والجرحى يُحمَلون بين الأذرع إلى «بيت الزُّجاج» المُستنفر. والعويل في بيوت المترمّلات والثّكالى يُعانق زغاريد النّساء في بيوتٍ عاد إليها الرّجال سالمين. وبين هذا وتلك يرتفعُ صدى صوت امرأةٍ يتردّد في فضاء اللّيل منذ أمسِ بأن أحدهم لم يمُت، وأن غُترته شاهدة على حياته. والفرسان العائدون من متطوّعي جيش بِن صُباح يتوافدون إلى مربط خيل ابن الطاروف يُسلّمون أماناتهم من الخيل المُعارة.

وفي مربط الخيل عاون الفقيهُ عبدالعزيز الرشيد أبا السّواعد على الترجّل من حِصانه في السّاحة أمام الإسطبلات. وترجّل الشّيخ

الثّاكل مُتكئًا على كتف الفقيه، ومضى إلى بيته وحيدًا في اللّيل يُرتّل آياتٍ من القرآن، يجرُّ ساقه المجبّرة يتوكأ على عصاه.

دفع أبو السّواعد باب البيت السّاكت، وألفى زوجته تتحرّى في منتصف الحَوْشِ تُمسك جديلتها الطّويلة بكفّيها، وزغاريد النّصر ترتفع من البيوت المحيطة وهي ساكتة. ولمّا رأته يُقبل بمفرده ببياض عقالِهِ وغترتِهِ ولِحيتِهِ ودِشداشَتِه؛ أفضت بصوتٍ خفيضٍ وهي تحملقُ إلى العصا التي أقسم أولادها الثّمانية ألّا يتوكأ أبوهم عليها وهُم أحياء. سألت هامسةً عساه لا يسمع فيُجيب على ما لا تشتهي:

«وعيالي؟».

ارتعشت كفُّ الشّيخ المُطبقة على عصاه، غنيمة المعركة الوحيدة، وطعن بها الأرضَ وتحشرج صوته:

«زرع الله.. الله سوّاهم والله أخذهم».

باغت الوهنُ نَصرةَ في ساقيها ومارت بها الأرض، فأطاحت بنفسها جالسة على تُراب الحَوْشِ وبركت على جديلتها الطّويلة. ما فاهت بصرخةٍ تُزلزل البيت السّاكت فتخدِشُ سمعَ الجيران. وما سكتت عن صرختها خوفًا على صِيت بيت الأجواد الذي ما ارتفع فيه صوت امرأة، إنما خشِيَت أن يسمع الصّرخةَ الجيرانُ فيُعزّونها ويُباركون استشهاد أولادها فيصير موتهم حقيقة. *ما الحقيقة؟* الحقيقة أنهم ماتوا. *ثمانية يا الله؟!* ثمانية. *أيموتُ حمامُ المسجد في صمتِ المئذنة؟* العوض على الله. *والله؟* والله.

لكن زوجها ما قال إنهم ماتوا. فهل تُسلِّم أنهم..؟ ما تفهّمَت نَصرة

قول أبي السّواعد. تطارشت عن الحقيقة، وحملقت إلى وجه زوجها الذي أقبل مُتخشّب السّاقين مكسورًا يتعكّزُ عصاه، والدُّموع تصبُّ على وجنتيه وتتفرّق في منابت لحيته البيضاء. ففهمت، وأيقنت أن المعركة أبدَلَت العصا بثمانيةٍ من أولادها التّسعة.

«ما لنا إلا سعدون يا نَصرة.. ما لنا إلا سعدون».

قال أبو السّواعد وهو يجثو إلى جوار زوجته السّاكتة وسط حَوْشِ بيتِه السّاكت. ففُتح بابُ حُجرة أكبر الأبناء سعد، وما كادت زوجته تُبصر والدي زوجها على الأرض، والعَصا إلى جوار أبي السّواعد، حتى أفلتت صرخةً شُرِّعَت على إثرها سبعة أبواب تطُلُّ على الحَوْش. فظهرت زوجات سعود وسعيد ومساعد ومسعود وأسعد ومِسعِد وسعيدان. كُلُّ بابٍ يُفتَح على صرخةٍ مُرسلةٍ إلى عَنان السّماء تُبدِّد أسطورة البيت السّاكت. وسمع الأحفاد ثماني صرخاتٍ زلزلت جُدران بيتٍ خلّفه موت السّواعد بثاكِلَين، وثماني أرامل، واثني عشر يتيمًا.

ولمّا أصبح الصُّبح تعكّز الحاج عبدالله بن صالح على عصاه، نامَ عن صلاة الفجر ولا صلّاها في المسجد بعد سهر ثُلثَي اللّيل في حسرة، وهو الذي ما فاتته صلاة في مسجد منذ عقود إلا صلوات البيت ساعات المطر الشّديد، وصلوات الصّحراء في دروب الحج. وقادته أُم السّواعد مُسربلة بعباءتها إلى ناحية سوق الحريم. وبعضُ من معارفه يوافونه في الطريق يُباركون له شهادة أولاده: حمام المسجد يُرفرف الآن في الجنّة. ويدعون له بشفاعتِهم وبالعَوَض في الأحفاد وهداية من بقي من الأبناء. والشّيخ ساكتٌ مُذ قال قوله البارحة: ما لنا إلا سعدون يا نَصرة. يُقاد وراء امرأته بلا حولٍ

ولا قولٍ ولا اعتراض إلى حيث يقطن أصغر أولاده. وسارت نَصرة في السّكك أمام زوجها أوّل مرّة مُذ تزوّجا. تمشي كالخرساء مبتلعة صرختها منذ البارحة. تقطع سِكّة سوق الحريم، وتنعطفُ يمينًا عند زاوية بائعة الباقلاء المنقوعة الصاخّة أم عبدالرحيم. ووقفت أمام بيتٍ صغيرٍ أسفل بابه كُوّة موصدة بلوحٍ خشبي. بيت يرتفع فيه مُواء القِطط وتفوح منه رائحة السّمك المتحلّل. طرقت الباب وأجفل خَليفُوْه لمّا فتحه ورأى عينيّ أبي السّواعد تتطلّع إليه مِلؤها الرّجاء.

«أين سعدون؟».

سألت نَصرة في حضرة زوجها السّاكت. وهان على خَليفُوْه أن يأخذهما إلى قبر سعدون على أن يفُوه بخبر موته. فلا يحتملُ الأملط أن يبدأ يومه بمناحةٍ عند باب بيته تُزاحم مواء القِطَط. لاثَ إزاره النّيباري حول رأسه، وخرج مع أشهب وإلينور يقودون العجوز والشّيخ إلى المَنسَى. والدّيرة ما هجعت منذ البارحة تقرعُ طبولَ نصرها، وتنثرُ زغاريد نسائها بين أهازيج الرِّجال. ولمّا جاوزوا المقبرة القديمة في المرقاب توقف أبو القطاوَة، وأشار للشّيخ وزوجته صوبَ حوْطة سعدون في الزّاوية آخر السّكّة. فسألت نَصرة:

«هذي هي الحوطة؟».

أومأ خَليفُوْه بنعم، وفي هاجسه يُردّد قول سعدون؛ *اسمه المَنسَى ولا تنسى*. وهمّ بالعودة إلى بيته، فأوقفه أبو السّواعد من دون أن يخرج عن سكوته، فعاجلت أم سعدون تقول ما عجز عن قوله زوجها معتنق الشكوت:

«اِطرق عليه الباب.. نحن لا ندخل هذه الأماكن يا ولدي.. ناده».

اعتذر خَليفُوْه بإشارة من يده ومضى في طريقه:

«لن يسمع».

استغفر الحاج في دخيلته وهو يتخيّل ولده ثملًا في الحَوْطةِ، منقوعًا في المنكر منذ الصّباح. وما طاوعته قدماه والعَصا على المضي خطوة لولا خبّت نَصرة إلى مسكن ولدها. ولمّا بلغا الباب سَمِعا صوتًا غريبًا يجيء من داخل، فأنصَتا. صوتٌ شفيفٌ تسرّب إلى قلبيهما نغمةً ما سمعا مثلها قط. ليست رنّة عودٍ ولا أنّة نايٍ ولا نوحَ رَبابة ولا نغمة مزمار القربة. صوتٌ لا تعرفه حاضرة الدّيرة ولا باديتها ولا جُزُرها ولا قُراها. صوتٌ يقول شيئًا يُحس ولا يُفهم. لحنٌ يجيء من الأرض والجدران يستعطفُ الأشياء في فضاء الحَوْطة وما حولها، ويستدر الدّمع في غير حزن. صوتٌ يُشبه.. صوتًا لا يُشبهه صوت.

وأبصرت نَصرة شعلة تشبه السّراج معلقة على الباب، تعرفها طريقة اليهود يعلقونها على أبواب بيوتهم إذا ما مات لهم أحد. لكن أبو القُطاوَة أشار صوبَ البناء قبل قليلٍ وقال إنه حَوْطة سعدون. *فما شأن اليهود؟!* طرقت الباب فسكت النّغم الشّجي. ومرّت لحظات صمتٍ قبل أن يعود الصّوت المُنغّم مثل السّحر ينسلُّ في الأُذن الصمّاء فيرتعش لها القلب المُصمَت. فاستعاذ أبو السّواعد في سِرّه من الشّيطان ومزاميره وطرق الباب بعَصاه، فسكت المزمار في الدّاخل. وفتح الزّمّار الباب يحمل قصبة الدُودوك في يمينه، بالكاد يرفع جفنيه يسأل من يكونان؟

«أنا أُم سعدون.. و.. وهذا أبوه».

وسركيس في ورطةٍ على عتبة الحَوْطة. يفتح الباب أم لا يفتح؟ اقتربت منه أم السّواعد أكثر يغشاها السّواد:

«قُل له أن يجيء.. قُل له إننا عند الباب ننتظر».

أوسع سركيس فُرجة الباب ومدّ ذراعه اليُمنى إلى زاوية الحَوْش، ولم يفُه بكلمة. أطلّ أبو السّواعد من وراء الباب إلى حيث أشار الأرمني يسار المدخل، فأبصر في الرُّكن قبرًا مرشوشًا بالماء يستظل تحت نخلة ميتة. دخل إلى الحَوْش تسبقه عصاه بعدما أشار بكفِّه إلى زوجته أن تنتظر عند عتبة الباب.

وكأنما لم تُبصره نَصرة. رفعت حاشية عباءتها وتخطّت العتبة، وخَطَت وراء زوجها المكسور متيبّسة السّاقين. نقّل المكلومان بصريهما إلى التُّراب المُقلّب والصُّوف المدفون في الحُفَر حولهما. وانبرى سركيس يسوّغ فعل صاحب الحَوْطة:

«قيل له إن الله يسامحه لو أثمر الصُّوف».

وابتلع الشّيخ عبراته جاحظ العينين يُنقّل حدقتيه بين الحُفَر. وتوقّف الاثنان عند النخلة الميتة بين فسائلها التّسع. فالتفتا إلى سركيس يتبدّى على وجه الشّيخ سؤالٌ سكت عن نطقه. فأطرق سركيس يتشاغل بقصبة الدُّودوك بين يديه عن النّظر إلى وجهيهما:

«هي وصيته أن يُدفن هُنا.. كان يدري أن أحدًا لن يمشي في جنازته أو يُصلّي عليه».

كمّمَت أم السّواعد فمها بكفّيها لئلّا يسمع صوتها رجلٌ غريب، واستدارت تحثّ الخطى إلى بيتها تتعثّر بعباءتها، تاركة أبا السّواعد

يتربّع عند قبر سعدون. ومكث الشّيخ معقود اللّسان لا يبكي ولا يدعو الله غفرانًا لولده الأصغر ولا رحمة. ظلّ شاخص العينين إلى القبر ثابت الحدقتين مثل أعمى. يُفكّر في قوله القديم للغلام السّؤول، ويُبصر ثمرة الصّوف قبرًا في مكانٍ نجس. وما كاد يُلملم شتات أفكاره حتى ارتفع صوتُ صفقةٍ من البناء الطّيني المُطل على الحوْش، أو ما تخيّله صفقة. فارتفع صوت امرأة من الدّاخل:

«اِضربني يا عاموس.. اِضربني!».

وتوالت بعدها الصّفعات وارتفعت الآهات. فتعكّز أبو السّواعد عصاه، وغادر الحوْطة مُستغفرًا، مُخلّفًا بابها مفتوحًا وراءه، تتوهّج فيه شعلةٌ علّقها اليهودي على موت رفيقه الغِرّيد.

وتجاوز الشّيخُ المقبرة القديمة يجرُّ ساقيه متوكئًا على عصاه، في الوقت الذي دفعت فيه أُم السّواعد باب بيتها. صفقته وراءها. فضجّ حوْش البيت السّاكت بصرخةٍ تاسعةٍ مؤجّلة:

«وا فؤادي!».

***

صيف 1990

(52)

عزاء المُصَوْقَر

«كيفان، قطعة 1، الشّارع الخامس عشر»

أنا الذي أبلغ ذروة المنى وتمامَ الرّضا إذا ما كتبت في اليوم فصلًا واحدًا من رواية؛ ما شعرت بشيء بعد كتابة فصولٍ منذ ظهيرة أمس. أكتب كي أقرأ، كي أفهم. وأركض وراء الحكايات عساني أبلغ آخرها، ولا أبلغ إلا مزيدًا من القلق والشّك في حقيقة ما أكتب، في حقيقة وجود شخصياتي، وفي حقيقة وجودي.

دخلت مكتبي اليوم وما لمست الجريدة ولا تحققت من البريد، وانكببت على فصول الأمسِ أعيد كتابتها وتشذيبها، عاجزًا عن المضي إلى فصلٍ جديد، والشّايب يتمادى بتلقيني ما لا يقبله عقل. ما فارقت الأوراق مُنذ الصّباح حتى غروب الشّمس إلا لتحضير القهوة أو للتحرّز منها. ولمّا أظلمت السّماء وراء النافذة المطلّة على الدوّار تركت قلمي على الأوراق، وأعددت قهوتي الخامسة. فأمسكت الجريدة أطالع في صفحتها الأخيرة عمود الوفيات في المنتصف، أعلى إعلان كبير تشكر فيه عائلة الأديب أحمد مشاري العدواني المعزين في وفاة الفقيد الكبير. وتوقفت كثيرًا وتعرّقت أكثر أمام اسمٍ في عمود الوفيات ضمن ثلاثة أسماء فارق أصحابها الحياة يوم أمس الجمعة؛

الوفيات في الكويت

• لولوة عبدالرحمن علي سليمان السقيفاني (40 سـنة) الروضة قطعة 4 شارع 146 منزل 13 تلفون: 252925.

• علي محمد مبارك (70 سـنة) الشـامية قطعـة 6 شـارع 163 منـزل 3 تلفون: 481928.

• مسـتور آدم المصوقر (96 سنة) كيفان، قطعة 1، شـارع 15، منزل 301 تلفون: 481720

مضت دقائق أفكر قبل أن التقط سماعة الهاتف. حذرني الشّايب في المكالمة من مُطاردة سليمان وصَنقُور، لأنهما حسبما قال:

«سوف يجيئان إليك مِن نفسيهما.. وعليك أن تحضر لي سليمان إذا ما جاء، مثلما أحضرت لي غايب».

ثُمّ شدّد على كلماته:

«إياك أن تلاحقهما».

أطبقت السّماعة. وحملت مفاتيح سيارتي وخرجت من مكتبي ليلًا، يقودني العنوان المدوّن في الجريدة إلى الشّارع في كيفان.

قدت سيارتي في شارع إشبيليا وانسللت بين الشوارع الداخلية في القطعة 1. وانعطفت وراء مسجد الخصيمي على ناصية الشارع، وتجاوزت مدرسة نائلة عن يميني فأبصرت عن شِمالي بيتًا لا يشبه بيوت الحي يحمل رقم 301. وجدته على ما سمعت من وصف الشّايب وما كتبت، بالغبار وصندوق الجريدة الأزرق، وصندوق البريد الخشبي، والسيّارات الثّلاث؛ فِيات وكورڤِت وكَمارو. وعلى ما خطته يدي في أوراقي؛ قرأت لافتة إلى جوار الباب تحمل اسم صاحب البيت المكتوب في الجريدة، وأسفلها ورقة كبيرة بيضاء خُطّ عليها: عزاء عائلة المُصَوْقَر.

وما فكرت في النزول من السيارة، وقد انتهى يوم العزاء الأول بغروب الشمس. وأجفلت من النظر إلى البيت المُغبر فالخيال ورطني في الحقيقة. والشّايب يقول أشياء لا يمكن إنكارها. كرهت الكتابة وشعرت أني وراء موت مستور الكبير. مات الرجل الذي قبرَ ثلاثة أجيال من ذريته، لأني أمس كتبته يموت! وخرجت من الشارع الخامس عشر هاربًا مثل مجرم، لكني انعطفت بسيارتي ثانية عند آخر الشارع، وعاودت القيادة حول بيت مستور مثل العائد إلى مسرح جريمته. أوقفت سيارتي أمام الـ «كَمارو» المهشّمة واستنفرني غبارها. فاستبقت نوبة الرّبو وملأت صدري من بخاخ القنتولين، ونزلت وكبست زر الجرس. وعاودت الكبس بعد دقائق وما فتح لي أحد. فطرقت الباب الحديدي الأسود وفتحه رجل مُلتحٍ بدين يحمل في جانب رأسه أثرَ كيٍ. سألته إن كان هو آدم، فهزّ رأسه المكوي أن نعم. قدّمت إليه عبارات العزاء وترحّمت على الفقيد. والبدين يشكر المعزي السخيف الذي تأخر عن ساعات العزاء وجاء

بعد الغروب. فيقول المعزي:

«إذا سمحت لي.. أردت أن أسأل عن اثنين يقيمان في هذا البيت منذ أمس».

عبسَ آدم:

«اثنان؟! ليس في البيت بعد وفاة جدي الكبير إلا أنا!».

«هل أنت متأكد؟ ألا يوجد غيرك؟».

سألته، فارتفع صوته:

«أنت رجل لا تستحي.. تطرق باب البيت أيام عزاء، وتسأل أسئلة غريبة!».

فدوى ارتطام الباب الحديدي وثار غباره. وسارعت بركوب سيارتي وأنا أطبق شفتي على بخاخ الفنتولين. أدرت محرك السيارة وآنست من نفسي ارتياحًا رغم زجر آدم ونفيه معرفة الشابين، لأن ليس كل ما يقوله الشّايب صحيحًا. *لكني شاهدت طيف شابٍّ وطفلٍ وسط دوّار الشيراتون أمس الصُّبح*. قدت سيارتي إلى البيت وفي منتصف الطّريق تراجعت وعدت إلى مكتبي. *من أين يجيء النّوم؟* أضأت المكتب وأسدلت السّتارة على النافذة، وقلّبت الفصول التي كتبتها أمس وتوقفت عند اسم مدرسة نائلة، وتحققت من وصف الشارع والبيت الحكومي القديم على ما وصف الشايب، وأنا الذي ما دخلت تلك الناحية من كيفان قط. *إذا كتبت الشيء يصير.. معقول؟!* مرّت بي فكرة بدت تافهة في أول الأمر فطردتها من رأسي. فألحّت عليّ وتشاغلت عنها فتملكتني. أمسكت بالقلم وكتبت في صفحة بيضاء:

ووقفَ صَنقُور وسليمان على دوار الشيراتون، يُحدِّقان إلى إحدى نوافذ الدّور الثّالث في عمارة ثنيّان الغانم..

ثم تركت القلم على الورقة. ومشيت متردد الخطوات إلى النافذة وأمسكت بخيط الستارة. تمهلت بضع ثوانٍ قبل أن أرفعها على دوّار بوابة الشور القديمة أتحقق من وجودهما. فضحكت في نفسي على نفسي، ولم أرفعها. *وهم! لا وجود لـ سليمان ولا صَنقُور، ولا علاقة للمدعو كولمن الكويتي بابن خادمة مقام الجزيرة*. وعدت إلى المكتب ووقفت أمام الرفوف في الجدار وراءه. مررت سبابتي على كعوب الكتب قبل أن أسحب كتاب إلينور كالڤِرلي في طبعة الأصل الإنكليزي. وقلّبت الصفحات إلى تدويناتها عن ليلة معركة القصر الأحمر، وعاودت قراءة بضعة سطور متفرقة أحطتها قبل سنوات بدوائر قلم الرصاص. عبارات أشارت إلى مبروكة، وإلى الرجل المشوّه الغريب بغير تفاصيل. ولم أجد شيئًا مختلفًا في شخصية غايب عمّا كتبته إلينور قبل سبعة عقود بوصفه الرجل المشوّه دونما ذكرٍ لاسمه. وما قالته إلينور عن الرجل الغريب لا يتعارض مع ما حكاه الشّايب عن غايب بعد عبوره التّبّة من صيف 1990 إلى خريف 1920، غير أن ما يرويه الشّايب سدّ كثيرًا من فراغات كتاب الطبيبة. *هذا شيء يشبه السِّحر*. أطبقت الكتاب. أعدته وسحبت الطبعة الأولى لكتاب الرشيد «تاريخ الكويت»، تصفّحت أوراق النسخة القديمة النادرة بحذر، وتتبعت أخبار من وردت أسماؤهم في حكاية عثور البحارة على العباءة في فصل أهوال البحر؛ بِن هولين والهذّار. وقلّبت فصول معركة الجهراء وخروج الهذّار على صهوة حصانه الأصهب من القصر، وطابقته مع خبر وصوله إلى الكويت

على حصانه الذهبي بحسب ما وصفته إلينور في كتابها، ثمّ موته مبتلعًا لسانه في مشفى الإرسالية.

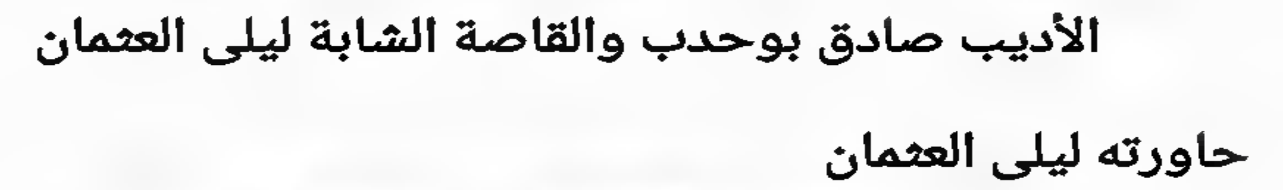
أطبقت كتاب الرشيد، وحينما حاولت إعادته إلى الرّف تعذّر دخوله بين كتابين. أدخلت كفّي وتحسّست ورقة سدّت الفُرجة بينهما، فأخرجت صفحة جريدة قديمة عالقة بجدار الرف وراء الكُتب. شدّتني صورتي الباسمة وملامح العافية على وجهي. جلست إلى مكتبي أقرأ في صفحة الجريدة حوارًا أجرته معي القاصّة ليلى العثمان حينما كانت تتلمس بداياتها في الصحافة أواخر السّبعينيات.

***

من كواليس مسرحية «على أطلال المقام»

صادق بوحدب: أكتب ذخيرة أيام الخرف!





الأديب صادق بوحدب والقاصة الشابة ليلى العثمان

حاورته ليلى العثمان



عبر مسيرة أدبية امتدت ثلاثة عقود، بين المقالة الأدبية والقصة القصيرة والشعر والرواية والمسرح والدراسات، استطاع الأديب الكويتي صادق بوحدب أن يتبوأ مكانة اتكأت على نتاج أدبي رصين في مختلف الأجناس الأدبية. وفي هذا الحوار السريع الذي أجريناه في كواليس مسرح سينما الأندلس نقترب من تجربة الأستاذ

بوحدب بعد آخر عروض مسرحيته الأخيرة التي سوف تغادر فرقتها للعرض في البحرين وأبوظبي والدوحة اعتبارا من الشهر المقبل.

• بعد نجاح المسرحية الأخيرة «على أطلال المقام»، ما هي مشاريع الأستاذ صادق بوحدب؟

لا مشاريع، غير أني أحلم بأن أعود إلى كتابة الرواية، وأن أكتب عملا لا أكتب بعده أي شيء.

• كتب الناقد الفلسطيني وليد أبو بكر مقالة في مجلة رابطة الأدباء «البيان» حول المسرحية، ورغم إشادته ببناء النص فإنه رأى فيه انتصارا للخرافة وتكريسا لأفكار بالية يحاربها كُتاب التنوير مثل الكرامات والسحر والشعوذة.. رأيك؟

قرأت المقال في حينه وتحدثت مع الصديق والأستاذ وليد، وكانت ملاحظاته في مجملها قيمة، لكنه لم يقتنع بأن ما أسماه انتصارا للخرافة والجهل إنما أسميه انتصارا للخيال الذي لم تدونه سرديات ومرويات الجزيرة، وهذا الخيال رغم تماديه فإنما هو يؤدي إلى الحقيقة بصورة أو بأخرى.

• صدر لك حتى اليوم ما يزيد عن 17 كتابا بين الأدب والنقد والدراسات.. متى يكتب بوحدب سيرته الذاتية؟

أكتب منذ سنوات طويلة ما يشبه المذكرات، أحيانا، إن كان في يومي ما يستحق التدوين، كتابة غرضها التنفيس والتحرر من عوالق النفس، أو تدوين موقف أخشى أن أنساه، فأكتب تفاصيله

بعناية وأحفظه في دفتر أسميته «ذخيرة أيام الخرف» خشية أن أخرف ذات يوم وأنسى نفسي وأضيع فيما أكتب فلا أعرف ما الحقيقة وما الخيال. لكن لا نية لدي لكتابة سيرة ذاتية بالشكل المتعارف عليه أو بأي شكل آخر. عشت نمطا من الحياة لا يصلح أن يكتب لخلوه من أي معنى لولا الكتابة. ولدت يتيم أب بعدما توفي والدي عبدالرزاق بوحدب -رحمه الله- في الغوص جريحا بفعل عضة سمكة قرش، وعشت مع أمي حياة خالية من أي شيء مبهر أو تجارب تثير الاهتمام. حياة في السوية مع حياة أبناء جيل شهد تحولات الأزمنة منذ ما قبل النفط حتى اليوم. أشياء كثيرة كتبت عن تلك المراحل ولا أحسب أني أكتب المزيد. لدي ذاكرة جميلة ربما، في فترة الدراسة الأولى في المدرسة المباركية، وفترة الدراسة اللاحقة في القاهرة، أو فترة تعلم اللغة الإنكليزية في إنجلترا. وقد أصدرت كتابين عن التجربتين الأولى والثانية. عدا ذلك فليس في حياتي ما يستحق الكتابة إلا ما يتسرب منها إلى ما أكتب من قصص وروايات.

• والمرأة في حياة الكاتب؟

توقعت منك هذا السؤال يا ليلى. لكل كاتب تجربته. أما المرأة في تجربتي الحياتية والكتابية فهي صاحبة الفضل في ما أنا عليه الآن. هي الرمز في ما أكتب، يتجلى فيها الوطن أحيانا، أو الحلم، أو الإنسان في ذروة عواطفه وتناقضاتها. وهي مثالي في الصبر والحكمة إذا ما تمثلت بوالدتي رحمها الله، أرملة أمية شابة رهنت حياتها في سبيل أن أكون، بعد وفاة أبي. وزوجتي سارة، رفيقة الدرب وعشرة السنين وقارئتي الأولى. أستطيع أن أختزل المرأة في

حياتي بهاتين المرأتين رحمهما الله. الأم والزوجة كما عايشتهما.

• حدثنا عن دراستك في القاهرة ضمن أول دفعة مبتعثة من الكويت.

ربما توحي كلمة «دفعة» إلى عدد كبير من الطلبة. في الحقيقة كنا خمسة طلاب كأول مبتعثين للدراسة في الخارج سنة 1939. كنت أنا وعبدالعزيز حسين وأحمد مشاري العدواني ويوسف العمر وخامسنا يوسف البدر لكنه لم يكمل الدراسة بسبب مواقفه السياسية ضد الإنجليز في القاهرة، اعتقل هناك ثم رُحل إلى الكويت. كانت القاهرة بالنسبة لنا نحن الذين لم نسافر إلى أبعد من البصرة أو بغداد أو في أبعد الحالات بيروت ودمشق، كانت عالما جديدا، ومعقلا للطلاب العرب على اختلاف مشاربهم الثقافية. تفتقت عقولنا معرفيا وسياسيا، وأسسنا هناك بيت الكويت في القاهرة، وكان بمنزلة بيت طلاب الكويت، ومن هناك أصدرنا مجلة البعثة سنة 1946، وفي تلك السنة نشرت أولى قصصي القصيرة في تلك المجلة، وكانت القصة بعنوان «ناقشة الحناء». وقد مثلت المجلة صوت طلبة الكويت في وقت كانت فيه الـ...

***

أمسكت عن القراءة. تأثرت بالغ التأثر. ومسني الحنين إلى أمي وزوجتي وشبابي القاهري، بل وإلى ابتسامتي القديمة في صورة الجريدة. وشعرت بأني وحيد على نحو ما عرفته من قبل. حزنت لما صرت إليه، كاتبًا على حافة الجنون يُطارد الوهم، أفرطَ في كتابة الخيال فابتلعته أوراق خياله. وأعدت قراءة أمنيتي في الجريدة،

توقفت طويلًا عند أول إجابات الحوار؛ أن أكتب عملًا روائيًا لا أكتب بعده شيئًا. ورغم أني كتبت ثلاثيتي الأولى؛ ثُلاثية الذّيرة «شرق، قِبلة، المرقاب» تحت تأثير واستلاب كبير لثلاثية نجيب محفوظ بعد ذلك اللقاء الصّحفي بأربع سنوات فإني ما زلت على أمنيتي القديمة، أن أكتب ثلاثية تُشبهني، ووجدت الأمنية ما زالت قائمة أكثر من أي وقت مضى وأنا أمام هذا النص الذي لا يبدو أنه سوف ينتهي. فشحذت قلمي الرّصاص وانحنيت على الأوراق أملأ هذا الفصل بمجريات يومي. وركضت في الكتابة فصلًا بعد فصلٍ في أيامي التي قلبها الشّايب رأسًا على عقب، لعلّي أنجز كتابة ثلاثيتي الجديدة التي أكتب آخر أجزائها بغير تخطيط ولا فهم.

***

خريف ١٩٢٠

(53)

مقهى بوناشي

«وعليه أن يكفّ عن أوهامِه بأن مشاكل العرب يحلُّها العرب»

Major J. C. More

سِفرُ التّبّة: 28

ضجّت سِكّك الدّيرة بصيحاتٍ تردّد صداها عشرة أيام. تنفجر بين وقتٍ وآخر إذا ما ليّل اللّيلُ وأغمضت عيون الأهالي في المهاجع:

«ما مات سليمان وهذي غترته».

وكفّ نواطيرُ اللّيل عن مطاردة صاحبة الصّوت في السّوق والسّكك وعلى الأسياف، لأن الصّوت على ما فسّره النّاس يعود إلى جنيّةٍ يسمعها الكلُّ ولا يراها أحد. وحيكت القصص عن صاحبة الصّوت الخفيّة. وقيل إن العَم سَنَد شيخ البحّارة ما استقرّ لحظة، وما انفكّ يُطارد الصّوت في اللّيالي التّالية لعودته إلى ديرة أخواله مِن صحراء أعمامه، يبحث عن امرأةِ سهيل أم سليمان، في سِكَكِ الدّيرة وأسواقها وأسيافها. وما عثر عليها رغم صوتها الذي تضجُّ به ليالي الدّيرة بين حينٍ وحين. وادّعى من ادّعى أن ناطورًا ليليًا لمحها قُرب سوق الصّفارين تأكل التّمر وتُلوّح بغترة. واختلف النّاس ففيهم من يقول التّمر، وفيهم من يقول الجمر، فرجّح النّاس اللامعقول على المعقول وصدّقوه. أما العاقل فيهم فقال إنها نخلة سوق الصّفارين تخيّلها النّاش في ظلام اللّيل جنيّة. قيل إن شعرها من السّعف وثوبها من اللّيف، وإن أسنانها وأظفارها مثل مسامير

القلاليف. وما سكتت الشائعات والقصص عن صاحبة الصّوت التي أسموها «أم السّعف واللّيف» إلا بوصول رسولين مِن إخوان مَن طاع الله إلى الدّيرة. تشاغل النّاس عن أخبار الجنيّة بتداول خبر وصولهما وتخمين سبب الزّيارة، وكل رجلٍ يدلي بخبرٍ يردُّ مصدره إلى أحد معارفه في قصر السّيف، وتكرُّ الأخبار المنسوبة إلى القصر وليس فيها خبر يشبه الآخر. والنّاس على ما أَلِفت تُصدِّق الخبر ونقيضه مشفوعَين بعبارة تمهيدية: يقولون في القصر. وتُغرِّد الألسنة حول قصر السّيف بالشائعات فالقصر صامت، والناس لا يصمتون.

أقبل الرّجلان ضُبحًا من معسكرهم حول آبار الصّبيحية. ويمّما وجهيهما شطرَ قصر السّيف بعِصابتيهما البيضاوين تحت شمس الضُّحى، وكان أحدهما شيخًا ضريرًا يقوده شاب. قال الضّرير إنهما هُنا لمفاوضة الشّيخ سالم بشأن المطالب التي علّقتها الهدنة قبل عشرة أيام. فحصولهم على العباءة ما منعهم من الإصرار على باقي المطالب التي تُلزم الكويت بالعودة إلى الإسلام الصحيح واعتناق مذهب الإخوان، وترك المنكرات والخمرة والدُّخان، وتكفير الأتراك، وهَدم مَشفى الإرسالية الأمريكية وطرد أطبائها، وإزالة بيوت البغاء، وهدم الأضرحة ومقام الجزيرة.

وما قابلهما الحاكم في القصر، لكنه ضرب لهما موعدًا بعد صلاة الظهر في مقهى «بوناشي». وفي السّوق اكفهرّت وجوه النّاس حولهما، وشرع الرّجال يستفزونهما، يهتفون بأهزوجة العَرضة بلا طبلٍ ولا دفوف. وأرسل الحاكمُ في طلب أبناء عمومته ومُستشاريه وشيوخ الدّين والوجهاء والتُّجار والمعتمد البريطاني لاجتماعٍ في المقهى القديم. واحتشد النّاس في السّوق مقابل القصر يتسقّعون

الأخبار.

خرج الحاكم مع نائبه الشّيخ أحمد الجابر، وولده عبدالله وسكرتيره والفداوية إلى لقاء الرّسولَين. وسكت الهازجون عند مَقدِم بِن ضباح الذي اقتعد كرسيًا خشبيًا في صدر الجلسة. والرِّجال من حوله على المقاعد والدّكّات الطّينية المفروشة بنسيج الصُّوف. مرّ صاحب المقهى على الجلوس يحمل مصبّ القهوة الشّادنية والفناجين. والتفت الشّيخ سالم إلى كبير النّواخذة يُبادره بتهنئةٍ بدت في غير أوانها:

«بالمبارك يا بِن حامد، سمعنا إنك ناوي تعرّس».

ابتسم تاجر اللؤلؤ وقد انتشر في الدّيرة خبرُ قُرب زيجته السّابعة، فقد توفّيت اثنتان من زوجاته وطلّق واحدة، ولم يتبقَّ له إلا ثلاث. والتمعت عيناه وهو يُملي النّظر إلى الحاكم الذي ما رمى التهنئة في غير أوانها عبثًا. يقصدُ بِن صُباح أن يتصرّف كأنما هو في مجلسه الأسبوعي بين قومِه وخُدّامِه. يُنقّل بصره بين الرِّجال على الدّكات الطّينية والمقاعد الخشبية تحت سقيفة سعف النّخيل. ويرفع يمينه بالتّحية يخصُّ البعض؛ الفقيه الرشيد، والسيِّد القزويني، وشيخ البحّارة سَنَد بن هولين الذي ما رآه أحدٌ بعد اجتماع المقهى هذا.

«مسّاك الله بالخير».

فيردُّ الفقيه والسّيِّد:

«مسّاك الله بالنُّور والكرامة يا طويل العمر».

وشيخ البحّارة غائب يُطارد خيال الحُبارى التي هجرت عشّها إلى

أين؟ ويلتفت الشّيخ سالم إلى الرّسول الضّرير الذي احتسى قهوته. ويسأله عن سبب مجيئه، فيخبره الرسول بأن رجالًا كثرًا انضموا إلى صفوف الإخوان في الصبيحية، وأنهم لا يبتغون من جمعهم إلا تنفيذ ما علّقته الهدنة من مطالب. والمعتمد البريطاني بين وجهاء الدّيرة يُنصت دونما تدخُّل. وطالب الرّسول الضّرير بإقرارٍ خطّي من الحاكم بقبول المطالب والعمل على تنفيذها. لكن بِن صّباح ردّ على ما أجمع النّاس برفض التدخُّل في شؤون رعيته في الدّيرة والقُرى والجُزر والبادية وراء سورها. وأشهد الميجور الإنكليزي على قوله. وانتهت الجلسة حينما رفع المُلّا عبدالمحسن أذان العصر. وصلّى الشّيخ سالم بالرّجال والرّسولَين في مسجد الشوق. وقفل إلى قصر السّيف منهيًا مفاوضاته بالصّلاة. فأقبل على القصر بعد صلاة المغرب جمعٌ من التّجار والوجهاء، يتزعّمهم التّوخِذا بِن حامد، وطلبوا لقاء الأمير الحاكم. وأشاروا عليه بضرورة طلب المساعدة من الإنكليز على ما نصّت اتفاقية الحماية مع أبيه الشّيخ مبارك قبل إحدى وعشرين سنة، حفظًا لسلامة الدّيرة ومصالحها وأمنِ تجارتها، فإن الإخوان لن يتوّقفوا عند غارة الجهراء، وأنهم ماضون بجيشهم إلى الدّيرة. وقبل انتهاء الاجتماع صمت الشّيخ سالم أمام رغبة التّجار، وهو يُطيل النّظر إلى سكرتير الحكومة. فأملاهُ طلبًا خطيًا إلى المعتمد البريطاني الذي شهد اجتماع المقهى. فانحنى المُلّا صالح على ورقةٍ وراح يخُطّ الدّيباجة:

من سالم المبارك الصباح حاكم الكويت إلى حضرة حميد الشّيَم الأجلّ الأفخم المُحب العزيز ميجر جي سي مور، بولِتِكل أجِنت الدولة البهيّة القيصرية الإنكليزية بالكويت دام محروسًا.

رفع المُلّا رأسه عن الورقة ينظر إلى الأمير الذي أرسل نظره إلى الجدار. يجيلُ البصر في الإطار الخشبي المذهّب الخالي من عباءةٍ سرقها ولد بخيتة. انفرجت شفتاه عن كلماتٍ مُتمهِّلةٍ دوّنها المُلّا صالح أسفل الدّيباجة:

بعد السلام عليكم والسؤال عن خاطركم دمتم بخير وسرور. بعده، نعرض لسعادتكم بخصوص تعديات الإخوان بتاريخ ٢٦ محرم ١٣٣٩ على الجهرة. وفعلوا بموجب ما بيّنا لجنابكم بوقته. والآن الإخوان نزلوا على الصبيحية وأرسلوا لنا مندوبين يطلبون المسالمة على شروط ليس مُرضية ولا يمكن نوافق عليها. وبناءً عليه..

رفع المُلّا رأسه عن الورقة ثانية حينما سكت بِن ضباح. ولمعت عينا الحاكم وهو ينظر إلى بِن حامد والتجّار، وارتعشت شفتاه قبل أن يُفضي بختام الرّسالة على ما لا يشتهي:

بناءً عليه، بحسب الصداقة التي بيننا وبين الحكومة البريطانية نطلب المساعدة بدفع هؤلاء عن هذا الموقع. ولا زلنا شاكرين فضل الحكومة. وهذا ما لزم ودمتم سالمين.

٦ صفر ١٣٣٩

ومهرَ المُلّا صالح الرّسالة بختم الحاكم. وأرسلها مع أحد رجال القصر إلى بيت الميجور مور في دار الاعتماد، ودخل حاملُ الرّسالة الحيّ الشّرقي الذي ضجّ ليلتها بصيحات أُم السّعف واللّيف، تُقلق راحة الأهالي في البيوت وتُفزع الأطفال الهاجعين في فُرُشِهم.

***

صيف 1990

(54)

نداءُ المكتبيّ

«والغائب في سِفر العَنْقُوْز»

مكثَ سليمان في بيت المُصَوْقَر، يتجرّع الحقيقة مُرّة يومًا بعد يوم، منذ وصوله ساعة وفاة مستور الكبير يوم الجمعة قبل الماضي. وبالكاد بدأ الفتى يألف البيت الغريب غير مفهوم الأشياء: يُبصر في حُجُراته الخمس مكيّفات الهواء الكهربائية، لكن المراوح ما زالت تتدلّى من الشقوف ومهفّات الخوص اليدوية على الأرائك. والأرائك المرتفعة التي احتلت نصف الصّالون تركت نصفه الآخر مفروشًا بحَشِيّات جلسةٍ أرضية من نسيج صوف السّدو. وطاولة الطّعام بكراسيها الأربعة في ركن الصّالون مهجورةٌ والطّعام يؤكل أرضًا على بساط نايلون أو صفحات الجرائد. وعلى مكتبة التلفزيون الكبيرة وراء طاولة البيبي فوت؛ أسطوانات غرامافون وجهاز كاتريج ومسجّل كاسيت. ومقاعد مراحيض إفرنجية في حمّاماتِه الأربعة، لكن مراحيض عربية إلى جوارها في الأرض؛ فتحةٌ في الأرض تُشبه مراحيض مدينة الطّين لولا حوض البورسلان حولها. وفي حُجرة المبنى الملحق في الحَوْش غسّالة ونشّافة أوتوماتيكية، لكن في الحَوْش نفسِه طشت بلاستيكيٌ وحِبال غسيل، هناك غسلَ سليمان دِشداشَتَه بعد وصوله، وأبهرته رغوة مسحوق الصّابون. ذاك ما شافه من أشياء في البيت الغريب، يدخله الجديد، والقديم لا يخرج.

أقام سليمان في حُجرة المرحوم جمال في الطّابق الأعلى. أما صَنْقُور فعلى عادة زياراته ينامُ في حجرة مستور القومي في الطّابق

الأرضي. وزجّى سليمان اللّيلة الأولى يتعرّف إلى الحُجرة الضّيقة، بعدما أطفأ مكيّف هواءٍ يخوز مثل ثور ويُحيل الحُجرة إلى زمهرير. حُجرة بفراشٍ مُفردٍ لِصقَ جدار يحمل غيتارًا، بين صورتين كبيرتين إحداهما بالأسود والأبيض للممثلة Gloria Hendry في شبابها، تبدو مثل سِدرةٍ بشعرها الآفرو، عارية إلا من قطعتين تستران ما بين فخذيها وصدرها المسطّح. تسارع وجيبُه وهو الذي ما خبَرَ امرأة بغير ثيابٍ إلا فضّة، وفي حُجرة مظلمة يتحسّس فيها ويشمُّ ويتذوّق ما لا يُبصر. ثمّ تشاغل عن عري صورة الجدار بالصورة الأخرى، يقفُ فيها أعضاء فرقة جاكسون فايف بثياب صارخة الألوان. فعاود النّظر إلى صورة هِندري شبه العارية، يُقلّب في ذاكرته. تُشبه من؟ فيتذكّر ممرّضة مشفى الإرسالية التي ما خافت الله وباعت دينها للعَنكريز في بيت الزُّجاج. وانصرف عن الصُّورتين إلى القراءة مسحورًا، وقد مسّته بسِحرِها تعويذةُ التّراتيل الأُثمونية في الصّفحة (21) من «سِفر العباءة».

وفي اللّيلةِ السّادسةِ، رغم استصعابه لغة الكتاب، ختم الفصل الثّاني والعشرين، آخر فصول السِّفر الأول من أسفار مدينة الطّين، صفعته الحقائق الصّفعة تلو الأخرى. وبالكاد أسلم عينيه للنّوم على وعدٍ جاء في الجملة الأخيرة من الكتاب:

انتهى سِفرُ العباءة

يعقبه سِفرُ التّبّة

ولَبِث في الحُجرة تالي الأيام يقرأ ثاني الأسفار، لا يخرج إلا لمامًا لسؤال آدم عن كلمة لم يفهمها في الكتاب، أو لقضاء حاجةٍ أو للصّلاة

في المسجد القريب، حافيًا على ما أوصته أم صَنقُور قبل التّبّة. فيعود إلى ثاني الأسفار يستأنف القراءة. وقد حذّره صَنقُور من كثرة الخروج من البيت تلافيًا لأسئلة الجيران من يكون؟ ولماذا مثل المجانين في لهيب الصّيف يمشي حافيًا؟ خصوصًا بعدما أخبرهما آدم الثالث قبل خمسةِ أيامٍ عن الرجل الغريب الذي جاء بعد الغروب يُعزّي في وفاة مستور الكبير، وسأل عن الضّيفين اللذين يُقيمان في البيت. فقال صَنقُور لـ سليمان: «إياك أن تتكلم مع أحد غيرنا أنا وآدم».

وانكبّ سليمان على الجزء الثّاني يلتهمُ سطوره، ويُعيد القراءة كلما استعصى عليه سطر. يُتابع أحداث سبعة عشر عامًا هي قوامُ سيرته القصيرة منذ مولِده، وحتى دخوله الموجة السّابعة مع صَنقُور عند صخرة الوَطية، ويتعرّف إلى سِيَر خَلقٍ ظنّ أنه بالعِشرة يعرفهم. يقرأ ويتوالى عليه الفهم صفعًا منذ الجزء الأوّل. ويُفجع أن شيخ البحّارة بِن هولين، الذي تكفّل بتربيته، كان عاشقًا يعشقُ مَن؟ *أيا خسيس!* ويقتفي بين الشطور أثر ولدٍ اختطفته الصاجّة الحدباء بالحيلة، بعدما فرّقت بينه وبين فضّة بحكاية أُخوة الرّضاع الملفّقة. وصفعته في الصفحة (40) من «سِفر التّبّة» عبارات قالتها أم حَدَب، في الفصل الثّالث والعشرين. كلمات وقعت في نفسِه موقع الفجيعة التي تجيء بحقيقةٍ تُعرّي النّفسَ أمام صاحِبها. أوصاف ما فارقت تفكيره لحظةً طول بقائه في بيت المُصَوقَر. نعوتٌ تضمّنت أربع صفاتٍ ألصقتها به. أنكرها في نفسه، وامتلأ كراهيةً لا يدري لمن، فوجّه غِلّه كلّه إلى صاجّة المرقاب، ليس لأنها فعلت كلّ ما فعلت، إنما لأن شريرة مثلها تقدر أن تقول الحقيقة وتنعته بما يستحق.

وعاد صَنقُور على ما اعتاد بعد أيام العزّاء الثّلاثة. يمضي أيامه التالية يرتدي الجينز والقميص الأحمر، ويأخذه آدم بالـ «فِيات» القديمة إلى قرية «يوم البحّار» لالتقاط الصور مع الأطفال، ويُشاهدان مباريات كأس العالم في مقهى القرية التّراثية، ويعودان آخر اليوم بالدّنانير والمزاج الرائق. ويتباريان في الصّالون بلعبتهما المزعجةِ حتى مُنتصف اللّيل.

وفي اللّيلة التّاسعة ختم سليمان «سِفر التَبّة»، بعدما قرأ فجيعة أمّه به، وبكى في حضوره على الورق جنازة سعدون في الحَوْطة، وعلّقته في آخر سطرٍ من الكتاب الثّاني عبارة:

انتهى سِفرُ التَبّة

يعقبه سِفرُ العَنقُوْز

«ها؟!».

قال في نفسِه مستنكرًا، فأطبق الكتاب الذي يعقبه كتابٌ غير موجود، وخرج إلى الصّالون. فوجد آدم وصَنقُور يتباريان في لعبتهما الأثيرة التي لا يفهمها ويمقث ضجيجها. والقصاصة يعضّ على لِسانِه يُطارد كُرةً تُقرقع حول اللّاعبين مقطوعي الرّؤوس في طاولة البيبي فوت. يمسك مقبض اللّعبة مثل سيف يطعن به بطن آدم في الجهة الأخرى، ويضحك الاثنان فيقاطعهما سليمان:

«هناك كتاب ثالث..».

فيتوقّف الاثنان عن اللّعب وينظران إليه وهو يُردف بعد سكتةٍ وحدقتاه تتنقّلان بين الاثنين:

«..لكن ليس ضروريًا أن أقرأه، لأني سوف أرجع وأوقف كل هذا».

«ترجع إلى أين وتوقف ماذا؟».

سأله صَنقُور وهو يُمسك الكُرة. أجاب سليمان:

«ضاعت مني فضّة وولدي، وفُجِعَتْ بي أمي ومات سعدون.. أريد أن أرجع».

ألقى صَنقُور الكُرة في طاولة اللُّعبة بين اللاعِبين البلاستيك، وأسرع مع آدم يُديران المقابض يستأنفان المباراة بعدما قال:

«لا ثالث لهذين الكتابَين، ولا رجعة قبل أن يولد هلال الشّهر الجديد.. قدّامنا أقل من ثلاثة أسابيع».

دسّ سليمان كفّه بين لاعبي الـبيبي فوت وخطف الكُرة المزعجة. وقال إن الكتابين انتهيا بولده مخطوفًا في بيت أم الخير في فَيْلَكا، فانتزع صَنقُور الكرة من كفّ سليمان، رماها في طاولة اللعبة ثانية وعاود اللعب:

«كان ذلك قبل سبعين سنة».

طاش صوابُ ولد شايعة وهو يسأل عمّن بقي في دِيرة اليوم مِن ذاك الزّمن، أم غايب أو الهذّار أو أي أحدٍ يدله على ولده. فترك صَنقُور مقبضَي اللُّعبة وانفلت يُجيب:

«ما عاد في الدِّيرة أحد من الأولين.. هذه مطالبك الخايسة.. أما قلت لأمي في المقام إنك تريد البقاء في الديرة شرطَ ألا ترى أحدًا من ناسها الذين تعرف؟ وهل الديرة هي الديرة بلا ناسها؟!».

«وقلت لها إني أريد أن ألتقي ولدي وأخبره بكل شيء».

سدّدَ آدم هدفًا على صَنقُور فأمسك الأخير عن اللّعب وقال لـ سليمان:

«مات مع من ماتوا.. كُن رجُلًا لما نعبر التّبّة ثانية واستعد ولدك الرضيع يا دلوع!».

انصرف صَنقُور إلى فراشه في حُجرة مستور القومي:

«تصبّحون على خير».

ومكثَ سليمان مع آدم في الصّالون، يسأل عن سبيل الوصول إلى ولده في القرينية، لكن أحدًا ما عاد يسكن القرينية على ما أجابه آدم، وإن أغلب شكّان فَيلَكا انتقل إلى بيوتٍ غرب الجزيرة في الزّور. والعمل؟ قال سليمان فسأله آدم عن اسم الولد. وأوشك ولد شايعة أن يقول سيف بن سليمان بن سهيل فلزم الشكوت، وفكّر قبل أن يُجيب على ما شمّيَ به الغائب فيما قرأ من الأسفار:

«غايب عبدالعزيز الهذّار».

فأمسك آدم بدليل الهاتف يبحث عن صاحب الاسم بين أصحاب أرقام الهواتف في الجزيرة. وسقط نظره على صفحةِ أسماءٍ تحت حرف الغين؛ غريب وغلام وغلوم وغيث و.. فعاود قراءة الأسماء من أول القائمة في الصّفحة السّابقة، ووجد بعد غازي وغانم؛ غايب عبدالعزيز حسن عبدالله الهذّار الفيلكي، ولا غايب في القائمةِ غيره. فأدار قرص الهاتف يتصل بصاحب الرقم وما ردّ أحد.

***

وفي صباح اليوم العاشر أوصل آدم كولمن إلى القرية التُراثية. وقاد سيارته مع سليمان صوبَ محطّة الإبحار إلى الجزيرة في «رأس السالمية»، وأصعد الـ «فِيات» أولى عبّارات اليوم ومكثا فيها تُحيطهم زرقة السّماء والخليج. مركب ما شاهد مثله سليمان، يشبه زورق الشّيخ أحمد الجابر البخاري «مِشرِف» ولا يُشبهه. دسّ آدم كفّه أسفل المقاعد الخلفية وأمسك بكيس بلاستيكي، وقلّب فيه أشرطة الكاسيت قبل أن يُمسك بواحدٍ ويُلقمه المسجل ليُزجي زمن الإبحار. فانفلتت صرخة من السّماعات:

«..ابصقوا في وجهه!».

فأعاد آدم الشريط من الأول. وما خفض سليمان بصره عن السّماء الغريبة، لا ينصت إلى شيءٍ إلا أفكاره. يطل من نافذة السّيارة، والعبّارة تمخر الموج شرقًا. واليوم صحوٌ ولا غيوم عابرة، لكن ضوء الشّمس في عينيّ ولد شايعة شحيح. ما أغمض عينيه عن القرص المنطفئ مُذ خروجهم من كيفان، مرورًا بالقرية التُراثية في الوَطية. وآدم وراء المقود يُقشّر رأس سِواكِه بنصل مطواةٍ يحملها أينما ذهب، وينظرُ إلى البحر ويُنصت إلى خطبة رجل الكاسيت:

«..هذا ما كان عليه آباؤنا الأولون.. أما من يقول بغير ذلك فهو كذاب منافق مثله مثل الذي تجنّى فيما كتب.. أوصيكم عباد الله كما أوصيتكم من قبل إن رأيتم الممثل سيّئ الصّيت الذي تطاول على شيوخ الدّين في مسرحية «هذا سيفُوُه» أن تبصقوا في وجهه، أقول اليوم لو رأيتم هذا الكاتب الكاذب في أيّ مكانٍ ابصقوا في وجهه.. نعم، سوّد الله وجهه! آهٍ لو أصيدك يا بوحدَب في سِكّةٍ ظلماء.. والله إن جزاء من مثلك لا يزيد على بصقة!».

تنبّه سليمان من شروده، وسأل آدم عن صاحب الصّوت في الكاسيت، فأجابه آدم:

«الشيخ عمران بن محمد بن إبراهيم آل كريم عين».

صمت سليمان يُقلّب في رأسه مَثَل الحبّ الذي يطلع على بذره، وعيناه في عين الشّمس ما زالتا، فسأل:

«أليس بوحَدَب هو كاتب الكتابين اللذين حفظهما مستور الكبير رحمه الله؟».

هزّ آدم رأسه موافقًا، فسأله سليمان:

«لماذا نبصق في وجهه؟».

مطّ آدم شفتيه وما أجاب بكلمة، ولا تحدّث الاثنان يُنصتان إلى الكاسيت حتى رست العبّارة في مرسى فَيلَكا في غضون ساعة ونصف الساعة.

«وكم واحد يسكن الجزيرة؟ ألفين؟ ثلاثة؟..».

قال آدم لـ سليمان بعدما خفض صوت المسجل يهوّن مَهمّة البحث، فاستطرد وهو يُنزل السّيارة إلى مرسى الجزيرة:

«..سوف نلاقيه في ساعة زمان لو سألنا عنه في المساجد أو السوق».

وما كان سليمان متوترًا من أمر العثور على الغائب، إنما الشّمس بحضورها الباهت تؤذيه. وتلفّت يُبصر الجزيرة من حوله، وقد آلت إلى حال الدّيرة على غير الصورة التي يعرفها أيام ما قبل التّبّة.

الأرض تحت قدميه الحافيتين مفروشة بألسِنة الأسفلت المرصوفة، وتنبت على أرصفتها أعمدة الإنارة مثل أشجار عارية من الغصون والأوراق. والبيوت هُنا مثل بيوتٍ ألفاها في الدِّيرة الجديدةِ بعد التَّبّة، كبيرة حديثة ترتفع بالخرسانة عن الأرض طابقين. ويسأله آدم كيف له أن يمشي على القار في لهيب الشّمس من دون أن تؤذي قدميه؟ ويجيب سليمان وهو يُشير إلى الشمس:

«وهل هذه شمس؟!».

موعد صلاة الظُّهر بعد ساعتين، ولا مصلّين في المساجد يُسألون عن غايب. فأدار آدم مقود السّيارة إلى سوق فَيلَكا المركزي، وسأل زائرا الجزيرة في السّوق كلّ من صادفا من رجالٍ عن رجلٍ اسمه غايب عبدالعزيز حسن عبدالله الهذّار الفيلكي. وأجمع الرّجال على قول: لعلّك تقصد غايب بُوْدَزياه؟ وتردّد ذكر العَم بُوْدَزياه بصفته غايب الجزيرة الوحيد على ما فهم الرّفيقان. فسأل آدم عن عنوانه. وقادهما العنوان الموصوف إلى بيتٍ في الزّور، غربيّ الجزيرة، يُشبه البيوت المحيطة، بواجهات الطّابوق الجيري تُرابي اللّون، وخزّانات الماء الفضّية ولاقِطات إرسال التلفزيون تعلو سطوحها. طرقا بابه الحديدي وما فتح لهم أحد. فقال سليمان إنه لن يُغادر قبل أن يلاقي الرّجل. وأشار آدم إلى سيارةٍ على رصيف البيت، ورجّح أن الرّجل في الدّاخل. نظر إلى ساعته وهو يُعاود ركوب سيارته، وقال إن لديهما وقتًا قبل إبحار العبّارة إلى الدّيرة، فلا بأس من الانتظار. أدار المُحرّك وشغّل مُكيّف الهواء، وسليمان يطرق باب البيت وينتظر. ويُعاود الطّرق كلما مرّت دقائق. وآدم يُنصِت إلى الخطيب عمران آل كريم عين في شريط الكاسيت ويفرك أسنانه بالسّواك، ويجمعُ

ما يتقشّر من فُتات العود في ريقِه، يفتح نافذة السيّارة ويُكوِّر لسانه وشفتيه مِثل فُوّهة البُندقية، ويُفلِت بصقة مثل طلقةٍ تستقرُّ على الرّصيف المُقابل. وسليمان يُعاود الطّرق بكلتا يديه هذه المرّة وينتظر، حتى خرج أحد الجيران:

«بُوْدَزياهْ سافر إلى الديرة قبل عشرة أيام».

***

كيف السّبيل إلى لقاء غريبَين في ديرةٍ غريبة؟ تساءل سليمان عند ارتفاع أذان العصر، أثناء نزوله وآدم من العبّارة بالسّيارة في مرسى «رأس السالمية». وفكّر في سَفَر غايب من الجزيرة إلى الدّيرة قبل عشرة أيام، يوم ولادة الهلال وعبورهما التّبّة إلى الدّيرة ويوم لقاء عيّاد حارس القرية ذي الأُذنين الكبيرتين. *ماذا يعني كل هذا؟* وعشرون يومًا لديه في ديرةِ اليوم قبل ولادة الهلال الجديد وعبور التّبّة ثانية إلى أمس، لو أراد بالفعل أن يعود. سوف تتكرّر أمنيته صباح كل يومٍ من أيامه العشرين المتبقيّة هُنا. *لعلّي ألاقي اليوم ولدي*. وليس في الجوار أحد يعرفه منذ زمن مدينة الطّين، فيدُلّه إلى سبيلِ غائبٍ ما غاب عن باله لحظة.

«من أين تشترون الكتب؟».

سأل سليمان عند تقاطع شارع البلاجات، وآدم يقود سيارته خاشعًا في ذكرى شقيقه عبدالناصر وسيارته الـ «كَمارو» التي تهشّمت في هذا الشارع. فانعطف بالسّيارة إلى شارع الخليج، وسليمان يتهجّى حروف اللافتات السّود على الأرصفة عند الإشارات: لا للمخدّرات، والإيدز مرض العصر. وآدم يقود سيارته إلى مكتبات «حَوَلّي»،

فالعاصمة، ثم انتهاءً بالمكتبة الصّغيرة، مكتبة الشوق القديمة، بحثًا عن المفقود الموعود؛ «سِفر العَنقُوز»، لكن العَنقُوز الخارج من التّبّة لم ينتهِ سِفرُه بعد. باهت اللّون منطفئ خارج بحره، ما زال قيد الكتابةِ في التّيه ولا كتاب له في رفوف المكتبات. مشى آدم وسليمان في الشوق الدّاخلي المُرمّم قبل أربعة شهور على طراز الطّين بدعائم الخشب القديم. ووجدا مكتبة الزّوَيّح وسط الشوق تُغلق بابها الزُّجاجي وقت صلاة العِشاء، لكن بابها الخشبي مفتوح الدّفتين. وتسمّر سليمان تحت اللافتة المكتوبة بخط اليد أعلى الباب: المكتبة الوطنية لمؤسّسها فهد محمّد الزّوَيّح تأسست 1920. وقف أمام كتابٍ بُنّي بين الكُتُب المعلّقةِ على دَفة الباب اليُمنى، يحملُ صورة الطبيبة العَنكريزية خاتون حليمة، وتهجّى عنوان الكتاب: كنتُ أوّل طبيبةٍ في الكويت، وجحظت عيناه لمرأى غلاف عددٍ قديمٍ من مجلة «العربي»، يحملُ صورة فتاةٍ تكاد تُطابق في ثيابها وحُليّها وملامحها فضّة في ليلة الزّفاف. قال لـ آدم:

«أُريد المجلة».

فجرّه آدم يحثّه على الإسراع إلى مسجد الشوق العتيق قبل إقامة الصّلاة. وبعد الصّلاة قطعا الدّرب المسقوف ثانية إلى المكتبة. وأمرَ آدم سليمان بانتظاره عند بابها وهو يُشير إلى قدَميه الحافيتين:

«لا تفضحنا».

حمَلَ آدم العدد 270 من مجلة «العربي»، ودخلَ المكتبة الضّيقة. وسأل المكتبيّ عن السّفر الثّالث بعدما دفع ثمن المجلّة القديمة، وما عرف ابن مؤسّس المكتبة ما هو «سِفر العَنقُوز». وقال إن كان

المقصد «أسفار مدينة الطّين» فإنها صدرت في جزأين قبل أسابيع، وإن الرقابة منعتهما وأتلفتهما قبل صدور الثّالث.

«وماذا يصير في الثالث؟».

سأل آدم فأجابه المكتبيّ يبتسم:

«ربما من الأفضل أن تسأل الكاتب».

والحافي خارج المكتبة عند الكتُب المعلّقة على دَفّتَي باب المكتبة الخشبية، يُنصِت إلى حديث المكتبي وآدم. وتنفرط الأفكار في رأسه. *أي كاتب؟* كاتب الأسفار. *أي أسفار؟* أسفار مدينة الطّين. *الذي يعرفني على ما كتب.* ليس بالضّرورة. هو يدري *ما يصير.* وتشاغل عن أفكاره يُنصِت إلى حوار الاثنين في الدّاخل، وهو يُمرّر بصره على عناوين الكتب المعلّقة في الواجهة؛ «تاريخ الكويت» لـ عبدالعزيز الرشيد، «الحكايات الخرافية الشعبية» لـ بزّة الباطني، «كائنات مدينة الطين» لـ صادق بوحَدَب، «فهد العسكر: حياته وشعره» لـ عبدالله زكريا الأنصاري.. فأصاخ إلى قول المكتبيّ لآدم في الدّاخل وهو يُشير نحو أحد الرُّفوف الخشبية.

«هذي كُتب صادق بوحَدَب.. وعلى الباب الخشب في واجهة المكتبة كتاب أو كتابين».

استغفر آدم وهو يُقلّب اسم الروائي في رأسِه، يستعيد حرقة خطيب مسجد الخصيمي في خطبته في شريط الكاسيت عن الكاتب الرويبضة، المحرّض على الحرام، المكذّب الأفّاك مزوّر التاريخ داس الشم في العسل، الواجب البصق في وجهه. وما هداه المكتبيّ إلى عنوان الكاتب حينما ألحّ عليه آدم. جلس وراء مكتبه في عمق

المحل، أسفل مجموعةٍ من الكُتب القديمة وصورة والِدِه مؤسّس مكتبة الرُّوَيِّح. كل شيء حوله ذو طابع قديم في المكتبة الصّغيرة، إلا هاتف الـ «پاناسونِك» الرّمادي ذا الزّر البرتقالي على سطح المكتب الخشبي. ثبّت الرّجلُ نظارة القراءة على طرف أنفه، وتصفّح دفترًا صغيرًا:

«لا أعرف عنوانه بصراحة. أتصل به في العادة على رقم البيجر كلما احتجت نسخًا من كتبه فيعاود هو الاتصال».

طلب منه آدم رقم جهاز النّداء الآلي للكاتب، فضغط المكتبيُّ زرّ السپيكر في الهاتف:

«أستأذنه أولًا..».

ونقّل سبّابته على الأرقام وهو يقول:

«..مِن حُسن حظك أنك جئت اليوم لأني مسافر بعد غد، والمكتبة سوف تكون مغلقة».

نطق صوت المرأة الآلي في السّماعة، ورنّ في أذن سليمان الواقف على عتبة المكتبة مثل صوتِ المذيعات في التلفزيون الذي يهابه:

«نظامُ المناداة من شركة الاتصالات المتنقلة MTC Paging System، اضغط علامة المربع الآن أو بعد إدخال بيانات أخرى».

وأدخَل المكتبيُّ أربعة أرقام:

1

9

2

0

وكبسَ الزِّر # قبل أن يُجيبه الصّوت الآلي في سمّاعةِ السبيكر:

«تمّ قبول النّداء ..Page accepted».

وضغط المكتبئ الزِّر البرتقالي في الهاتف الـ «باناسونِك» يُنهي الاتصال، وابتسم لآدم:

«قد يتأخر في الرّد.. لكنه سوف يتصل».

***

خريف ١٩٢٠

(55)

My Arabian Days and Nights

«لأن المرتاب يشبه موجا من البحر تخبطه الريح وتدفعه»

الكتاب المقدّس

رسالة يعقوب

ـعدما طلب الشيخ سالم المساعدة من الوكيل السياسي البريطاني يوم أمس. أبحرت اليوم سفينتان بريطانيتان مدفعيتان من ميناء بوشهر الفارسي، السفينتان «سبيكل» و«لورنس»، ورستا في ميناء الكويت. وحطت قرب البلدة طائرتان أرسلهما البريطانيون من البصرة، أقلعت واحدة منهما إلى منطقة آبار الصبيحية في الجنوب. وحلقت فوق خيام الإخوان وألقت فوق رؤوسهم نسخا من منشور يحذرهم من الهجوم على الكويت وإلا سيحسبون مجرمي حرب ليس عند شيخ الكويت بل عند الحكومة البريطانية أيضا. وحذرهم الوكيل في رسالته بأن الحكومة البريطانية لن تتهاون معهم وستقوم بأفعال عدائية باستخدام القوة اللازمة. واستقبل أهالي البلدة السفينتين البريطانيتين بالزغاريد والغناء ورقص العرضة ورفع السيوف. ولاحظنا الاطمئنان يعود إلى وجوه الناس بعد القلق الذي أصابهم في وقت زيارة مندوبي الإخوان.

أشعر بالتعب. لا شيء أكثر يستحق الكتابة اليوم. أو لعلي أكمل في الغد، فقد تأخرت عن موعد النوم.

***

أُقسِم بالخيال أن أقعُدَنّ لكِ كابوسًا يُقلق منامك إلينورا فأي نوم يا خاتون حليمة؟ مهلًا فما كتبتِ شيئًا يستحق منذ أيام. اتركي تاريخ السّاسة والحُكّام فإن له من يدوّنوه ويُبروِزوه بإطاراتٍ من ذهب، وإنما جئتِ إلى الكويت يا طبيبة -بأمر الله وإرادته على ما تقولين- من أجلِ النّاس فاكتبي عنهم. لماذا أذنتِ لنزيل الحُجرة الخامسة بمغادرة المشفى اليوم؟ لماذا لم تدوّني كلامه خلال الأيام العشرة الماضية على آلتك الكاتبة؟ *أنا لا أكتب الخرافات في مذكراتي*. ألا يستحقُّ قوله أن يُكتب في المذكرات؟ *أنا أكتب عن عمل الإرسالية*. ونزيل مشفاها الذي خرج من موجة وأسقطته رصاصة على عتبة مشفى الإرسالية؟ *رجل لديه مشكلة في عقله*. ما بالك في السرير منذ ساعةٍ لا تنامين؟ *نداءات المرأة في الخارج أطارت النوم من عيني*. لكنها ما نادت منذ ساعة، وأنتِ لا تنامين. *ربما بسبب شخير إدوين*. والخوف الذي يملأ روحك؟ «*إِذَا اضْطَجَعْتَ فَلاَ تَخَافُ، بَلْ تَضْطَجِعُ وَيَلَذُّ نَوْمُكَ*». ردّدي في سِرّك من ثالث إصحاحات سِفر الأمثال يا طبيبة، واضطجعي فإنك لن تنامي فيلذُّ لكِ نومٌ وأنتِ خائفة. «*لاَ تَخْشَ مِنْ خَوْفٍ بَاغِتٍ، وَلا مِنْ خَرَابِ الأَشْرَارِ إِذَا جَاءَ*». أنتِ خائفة ومرتابة وتملؤك الشُّكوك. هذه *وساوس الشّيطان*. هذا كلامُ ملاكٍ يقول الحقيقة. «*لاَ عَجَبَ. لأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلاَكِ نُورٍ*». هذا ما يقوله كتابك، فأنصتي إلى قولِ كتابي. هذه *أوهام*. غلَبكِ الخيالُ وهزمتكِ الصاخّة وجاءتكِ بمعجزةٍ ما جاءت في كتابك المقدّس. *هراء*. أمضيتِ عشرة أيامٍ تزورين الحُجرة الخامسة. *أقوم بعملي*. تُنصتين إلى غايب بُوْدَرياهْ الذي جاء من الغد. *لا أحد يجيء من الغد*. لكنه جاء وأنت تدرين. *مستحيل*. جاء على ما قالت من تسمينها في مذكّراتك العرافة

المسنّة، ومن أسميها في كتابي أم حَدَب وهي أُم اللّوْه التي تعرفين؛ يظهرُ وحش البحر بُوْدَرياه في السّاحل القِبلي. *خرافات وجهل. جهلٌ* بماذا والرّجل مُحمّلٌ بالمعرفة؟ *تنجيم.* قال إنه يعرفكما، أنت وزوجك القِسّيس، مِن قبل وصولكما مِن البحرين إلى الكويت، بالباخرة الهندية «بارودا» في تاريخ معلوم باليوم والشّهر والسّنة، وحتى تُغادران بصحبة بناتكنّ الثّلاث بعد عشر سنوات. *هذا كلامٌ نصفه معروف ونصفه قولٌ في المستقبل لا يمكن إثباته.* قال سوف تنشرين مذكراتك في كتابٍ عنوانه «أيامي وليالِيّ العربية» في أواخر الخمسينيات، ثم يُترجم الكتاب إلى العربية بعد عشر سنوات فيقرؤه. *أنا لا أصدّق التنجيم.* لكنه قرأ كتابك بعنوانه العربي «كنت أول طبيبة في الكويت»، سنة 1968. وكلمك عن نفسك ما لم تقوليه لأحدٍ غير أوراقك بالآلة الكاتبة، آلتك المفضلة ماركة Underwood الفئة الخامسة طراز سنة 1900 كما وصفتها في أصل المذكّرات.

قومي إلى حُجرة المكتب في الأسفل. *سوف أنام.* واكتبي ما قاله الرجل. *أنا أتثاءب.* وتخفّفي من ريبتك في الكتابة. *بدأت أغفو.* فإنك بغير هذا لن تنامي.

***

قررت العودة إلى غرفة المكتب. لم أستطع النوم بسبب صوت امرأة يتردد في الخارج. وكنت قد سمعت صوتها أكثر من مرة في الليل خلال الأيام العشرة الماضية، وأعتقد أنها مجرد امرأة فقدت زوجا أو ولدا في المعركة. لكن أمر الصوت تحول إلى خرافة جديدة تتداولها النساء في هذه الأيام بأن شبح امرأة أطلقوا عليها اسم «أم

السعف والليف» شعرها من السعف وثوبها من ليف النخيل، ينادي شبحها في الليل ويسمعه الناس لكن لا يشاهده أحد.

وفي ظهيرة اليوم تناقل البعض أن ظل رجل طويل بدأ يتراءى للمارة على جدران البيوت في الأحياء وعلى الشواطئ. يقولون إن الظل جني أو شبح أو وحش أسموه «الطنطل»، يبحث عن حبيبته «أم السعف والليف» في الظهيرة، لكن نداءاتها لا تجيء إلا في الليل، وهو ظلٌ.

نادرا ما نشاهد أطفالا خارج البيوت في الليل هذه الأيام، بعد انتشار خرافة أم السعف والليف، وقد استغلت النساء خوف الأطفال وأرعبنهم من الخروج ليلا. أما اليوم فقد حبس الأطفال أنفسهم في البيوت عند الظهيرة أيضا، بسبب الكائن الخرافي طويل الظل: الطنطل.

صرفنا نزيل الغرفة الخامسة اليوم فلا حاجة لديه إلى البقاء. المهم أن لا يثير الرجل الفوضى في البلدة بشكله الغريب، فبعض الأهالي يقول إن العرافة المسنة تنبأت بمجيئه. ولم تتوقف الشائعات والقصص المتخيلة لوحش البحر الذي كان محتجزا في مستشفى الإرسالية.

* ملاحظة:

زارنا في البيت أمس خليفة وبس. أرسلت في طلبه ليرى مبروكة التي انتفخ بطنها بشكل كبير وبسرعة، وبرزت حلماتها وساء مزاجها أكثر. وقال إنها حبلى في الشهر الأول، وإنها سوف تضع صغارها بعد شهر على الأغلب، وإنه سوف يتكفل بتربية صغار القطط فور

الولادة. وسألني عن نزيل الغرفة الخامسة وأخبرته بأنه تماثل للشفاء وسوف يخرج في الغد.. لا شيء مهم. أظن أنني أستطيع الآن أن أنام.

Eleanor J.T. Calverley

Thursday, October 21, 1920

11:50 PM

تصبحين على خير لكنك لن تنامي. «*في سلامٍ أستَلقي وأنامُ*». وماذا بعد؟ «*ثمّ أفيقُ لأنّ الرّبّ سَنَدي*». ردّدي من مزامير كتابك المقدّس في الفراش وفكري. «*في سلامٍ أستَلقي وأنامُ، لأنّكَ وحدَكَ يا ربُّ تجعَلُ مَسكِني آمِنًا*». مسكنكِ آمنٌ في مدينة الطّين لكن روحك رهينة الشّك يا إنجيلية. عشر جلسات في عشرة أيام مع نزيل الحجرة الخامسة، الرّجل الغريب شائه الوجه. نزيل المشفى الذي تحفظتِ عليه لتعرفي منه مزيدًا يُبدّد أو يؤكّد شكوكك. وأنت تدرين أن لا شأن لسكرتير الحكومة الذي حمّلتِه مسؤولية فضولك بإبقاء النّزيل عشرة أيام في مشفى الإرسالية. بَرهن لك الرّجل الغريب في كل جلسةٍ على أنه جاء من غد. حدّثك عمّا كتبتِ وما لم يُنشر بعد. عن مبروكة القِطّة السّوداء الحُبلى مبتورة الذّيل، و«مبروكة الأولى»، الممرضة الحُبلى التي اعتنت به طوال بقائه في المشفى. حدّثك كيف انتقلت إليك من بيت سيّدها مُلّا مسجد الشّوق. عن حِزز الصاجّة وعن عطاالله والتمثال الرخامي في بيت المعتمد. وعن مقالاتك في مجلّة الكنيسة الدّورية «جزيرة العرب المهملة»، تلك التي نُشرت والتي كُتبت ولم تُنشر بعد. عن تفاصيل اجتماعكم

بالميجور مور وطلبه تجهيز المشفى قُبيل نشوب المعركة. عن شكك وخيبة أملك في هداية النّاس هُنا. وعن قول أبيك قبل سنوات حينما استنكر ورفض سفرك إلى شبه الجزيرة العربية، فأقنعتِ أباك برغبتك، لكنه حذّرك من أن تكوني وجبة طعامٍ فاخرةٍ لأكلة لحوم البشر. وما وجدتِ من يأكل البشر هُنا، لكن مدينة الطّين هذه أكلت عقلك. وهذا الرّجل الذي تماثل للشّفاء لم يكن يكذب، وهو يعرف عنك ما لا يعرفه غير أوراقك أحد. وأنتِ مهزومةٌ عاجزةٌ عن الاعتراف بالهزيمة.

اكتبي ما قاله لك، عن لقائه بالممثل المقعد الذي أرسله عابرًا التّبّة إلى الماضي ليلتقي أباه. اكتبي أنك غير قادرة على تكذيب الرّجل وهو يتحدث عن الكرسي المتحرّكِ والممثلِ في الغد، والدّيرة في يومك لا تعرف المسارح ولا الـ Wheelchairs التي عرفتِها في أمريكا أيام طفولتك وشبابك المبكّر.

اكتبي يا مهزوزة يا مهزومة أنك لمّا هُزِمت، آمنت بأن الشّائه الذي أمامك هو الشّرير الذي صلّيت لأبيكِ في السّماوات ألا يُدخلك في تجربة معه. ابن سوءٍ جاء من جماع عاهرة وزخو، وهو شيطان نبت من تربة الخطيئة. اكتبي أن الشّيطان صار ملاكًا في عينيك بعدما أخبرك بأنك تنجحين في مسعاك الذي جئتِ الكويت من أجله، فثبنى في قابل الأيام الكنيسة على ساحل الوَطية. وأن العرّافة المسنة صدقت، بأن هذا هو الولد الذي جاء من الغد يبحث عن أبيه.

اكتبي، أو لا تكتبي، وأيقظي إدوين من النّوم، قبّلي يديه وجبينه، واعتذري إليه بسبب وقوفك في وجهه واستخفافك برأيه وقسوتك في لومه، حينما فاتتك الحكمة ولم تفُته، ذاك القِسّ الإنجيليّ النّبيه

الذي فهم ما لم تفهمي، وعقد حِززَ الهذّار حول عَضُد مبروكة التي برئت من كوابيسها في الحال.

وقولي له إنك تُصدِّقين.

***

صيف 1990

(56)

صَوْلَجان طوعَس

«عاشَ الجزءَ الثّاني من حياته

في سبيل نسيان جزءها الأوّل»

جاوزت السّاعة الحادية عشرة ليلًا حينما كتبتُ آخر سطرٍ في الفصل الخامس والخمسين. فتركت قلمي الرّصاص على الأوراق. ولولا تنميل أصابعي وآلام رقبتي وكتفيّ لما أمسكتُ عن الكتابة. ولمكثتُ في مكتبي أكتب حتى آخر سِفر العَنقُوْز لأفهم؛ ما الخيالُ وما الحقيقة في هذه المسوّدةِ يا كاتب الأسفار؟ وما بالك تتورّط في ما كتبتَ على ما سمعت؟ ولِمَ أنت هُنا يُناوشك النسيان وما يُشبه الخَرَف؟!

انتابني فضولٌ حول ما قاله الشّايب عن وقوف سليمان أمام العدد 270 من مجلة العربي، فوقفت عند رفوف المجلات في زاوية حجرة المكتب أقرأ أرقام أعداد المجلة على كعوبها، ووجدت العدد الصادر في مايو 1981 وأطلت النظر إلى فتاة الغلاف التي يقول الشّايب إنها تُشبه فضّة، وعنوان العدد «عروس الكويت». وفي الحقيقة ما تخيّلت الفتاة أثناء كتابتها على هذه الصورة، لكن تبادر إلى ذهني: من أين يجيء الشّايب بهذه التفاصيل ما لم يكن كل ما يُفضي به حقيقيًا؟

اعتمرت الغترة والعقال، وحملتُ مفاتيح سيّارتي. وقبل خروجي من المكتب نظرتُ إلى الشّاشةِ في جهاز النّداء الآلي الصّامت على

ما اعتدت وضعه أثناء الكتابة. فوجدت رقم هاتف متبوعًا بالرّمز 1920 على عادة صاحب مكتبة الزُّوَيِّح الذي يُحيل بالرّمز إلى سنة تأسيس المكتبة. كان الاتصال قبل ما يزيد على ساعتين. عادة المكتبيّ الاتصال بي صباحًا من أجل تزويده بالكتب، أما أن يتصّل في التّاسعة ليلًا فهذا غير مألوف. يُصدّق العقلُ أخبار الشّايب عمّا صار، أما أن يقول للخبر صِرْ فيصيرا!

اتصلتُ بالمكتبة وأنا على يقينٍ من أن أحدًا في هذا الوقت لن يرد. وما ردّ أحد. وفي طريق العودة إلى البيت ارتحت لفكرة أن اتصال المكتبي كان من قبيل المصادفةِ مع آخر سطرٍ كتبته في الفصل الرّابع والخمسين، وأن لا شأن لما كتبته عن زيارة سليمان وآدم باتصال المكتبي، وأن سبب الاتصال هو نفاد كتبي لديه. ونمتُ مطمئنًا إلى هذه الفكرة. لكني حينما عاودت الاتصال في صباح اليوم التّالي لم يُجب أحد. فكررت الاتصال حتى الحادية عشرة صباحًا وما من مُجيب. فاتصلت بدُكّان جاره «بن نِخّي» للأقمشة، وقال لي عامل المحل إن العَمِ الزُّوَيِّح سوف يُسافر لأيام وأن المكتبة مغلقة. ولحسن الحظ أن العامل يعرف رقم هاتف بيت الحاج الزُّوَيِّح. أعطاني الرقم وسارعت بالاتصال.

قال المكتبيُّ في المكالمة قُبيل سفره إن شابًا جاء بعد صلاة العشاء البارحة، وسأل عن الجزء الثالث، وإنه ألحّ في طلب عنواني ورقم البيجر، فآثر المكتبيُّ استئذاني، لكني ما رددت عليه ساعة الاتصال بسبب انشغالي في تحرير هواجس إلينور في الفصل الخامس والخمسين. قال إن الشّاب انتظر ردّ النّداء الآلي حتى التّاسعة والنّصف وقت إغلاق المكتبة، وإنه لم يسأله عن اسمه،

ووصَفه بـ بدينٍ مُلتحٍ أسود يحمل أثر حرق في رأسه ويفرك أسنانه بعودِ سِواك، فقلت في نفسي هذا والله آدم الثالث على ما كتبت بعد عودته مع سليمان من جزيرة فَيلَكا بحثًا عن غايب بُوْدَزياهْ. وطلبت منه تزويده بعنوان مكتبي ورقم البيجر إذا ما عاودا الزِّيارة، فسألني المكتبي:

«عاودا؟ لكنه كان شابًا واحدًا».

ما استطعتُ سؤاله عن شخصٍ ثانٍ كان يقف حافيًا على عتبة المكتبة في ما كتبت. استطرد المكتبيُّ يؤمِّل نفسه ألا يزور الشّاب المكتبة ثانية خلال أسبوعين، لأنه يُسافر اليوم والمكتبة سوف تكون مغلقة.

أنهيت المكالمة أصارع الوهم، وأنا أزمع على مهاتفة الشّايب. لكني عوضًا عن مُهاتفته وجدت نفسي في الشّامية قبل الظّهيرة، أوقف سيارتي على الرّصيف في ظل النخلة المطلة من وراء سور البيت. أبغضُ لقاء الشّايب لكني أتوق إلى معرفة حقيقة كل ما يصير منذ التقاني صيف 1986 وبدء كتابة هذه الأسفار اللعينة. أربع سنوات من الكتابة كيف تفضي إلى ما أفضت إليه؟ وإلى أين تسير؟

أوقفتُ سيّارتي عند باب بيته، وما كانت السيّارة الـ «كولت» الفضيّة في مكانها على الرّصيف، فقلت رُبّما ليس في البيت أحد. وما خطر في بالي أن يستجيب لرنين جرس الباب مُجيب، غير أني سمعت وقع خطواتٍ وحسبته الممرض الهندي، لكن الشّايب فتح الباب الحديدي بنفسه.

توقعته يتفاجأ لمجيئي، لكني من تفاجأ بالشّايب المُقعد واقفًا

بساقين راسختين على الأرض. بدِشداشَتِه المنزلية المقلّمة وشعره الأشيب وحاجبيه الدّاكنين، ينظر إليّ ضيفًا يزور في غير موعد. فتح الباب على اتّساعه، كلانا صامتٌ وأنا أنقّل بصري حوله أبحث عن كرسيه المتحرّك. وأخمّن عدد أمتارٍ مشاها من الباب الدّاخلي إلى باب الحَوْش على قدميه، ومن دون عصاه. أشار إليّ أن أسبقه إلى الدّاخل:

«تفضل».

فقلت:

«أنتَ تمشي!».

قطعنا الممرّ إلى صالون الجلوس وهو ورائي يقول بعد ضحكة باردة:

«في بعض الأحيان، حينما يكون جورج خارج البيت».

ما فهتُ بكلمة. جلستُ على الأريكة وجلس على الكرسي المتحرّك، فأدار عجلاته وتوقّف على مقربة مني:

«ماذا تريد؟».

وما كنت أدري على وجه الدّقّة ماذا أريد. واختصرت كل أسئلتي في سؤال:

«قلتَ لي كل ما صار في الماضي.. هذا مفهوم.. لكن كيف تعرف الذي اليوم يصير؟».

«سِحر. ألا تؤمن بالسّحر؟».

أجاب الشّايب. استفزّني هدوءه وقلت له إن هذا كلامٌ مأخوذٌ خيره، لا أحترمه ولا أؤمن به. فأسند ساقًا إلى ساقٍ على كرسيّه المتحرّك وسأل:

«وكيف تكتب ما لا تؤمن به؟».

«هذا خيال».

أجبته وكأنما يدري بالإجابة. انفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ وأشاح بوجهه عني وهو يقول:

«ما تُسميه الخيال أسميه السّحر.. والسّحر هو الخيال الذي إن صدّقته يصير».

واستطرد الشّايب يقولُ ما صار:

«عشت النصف الثاني من حياتي في سبيل نسيان نصفها الأول..».

فأردف يُبرِّر جلوسه على الكرسي المتحرّك منذ اثنتي عشرة سنة، بعد اعتزاله المسرح والتمثيل:

«..أن تُعمّر كل هذه السّنين يعني أن لا سبيل لك إلا التمارض، لعلّ النّاس تمسك ألسنتها عنك، وتكفُّ شرّ عيونها الحاسدة على ما منحني الله من صحة وطول عمر».

ما كفّت النّكات والألغاز المبتذلة تُبتكر عنه في كلِّ يومٍ، جديدة. عن شهادة ميلادٍ عُثر عليها في مقبرةٍ فرعونية تحمل اسم الممثل حمَد حمَد. وعن أكبر الكائنات المعمرة في الكوكب: الحوت الأحدب والفيل الهندي والسلحفاة البرية وحمَد حمَد. وعن الكائن الناجي من الانقراض في العصر الجليدي: حمَد حمَد. وعن كوكب الأرض سنة

ألفين: نهاية العالم وفناء الكائنات كلها إلا حَمَد حَمَد. الممثل الذي مات ذكره في صفحات الجرائد والمجلات الفنية، وعاش في النّكات السّمجة يسمع في كل يومٍ جديدة، ولا يدري الرجل لماذا يضحك النّاس وهم يتمنون له المرض والموت. الذي يدريه أنه كبر إلى حدٍّ ما عاد يطيقُ فيه الحياة، لكن لديه من الأسرار ما عليه أن يبوح به قبلما يموت. عقد حاجبيه قبل أن يقول:

«خلقني الله فنانًا.. غرامي الفن والطرب».

وروى كيف صار ممثلًا في السّتينيات، بلا نيّة أو قرار. عمل في فرق الغناء الشّعبية منذ ما قبل النفط مع الصاجّات زمن مدينة الطّين. وكلّما ماتت صاجة وتشتّت شملُ أعضاء فرقتها انتقل إلى فرقة أخرى. ماتت الصاجّة أم صلاح فعمل مع أم غريب فماتت، وعمل مع أم عَوَض وقد جاوز السّتين من عمره. وقبل بُطلان أسطورة صاجّات مدينة الطّين انضمّ إلى فرقة «عودة مهنّا» الشّعبية، بعد هدم الشور بسنة. وسجّل في إذاعة وتلفزيون الكويت أغنيات التّراث وأهازيج مدينة الطّين مع الفرقة. وصفّق مع الكفّافةِ في أوّل أهزوجة امتصّتها الميكروفونات وحفظتها شرائط البكرات في إستوديو وزارة الإرشاد والأنباء قبل الاستقلال عن بريطانيا: يا صاجّة يا صاجّة ما صدقتي.

«لولا عودة مهنّا ونحن، أعضاء فرقتها، لما سمِعَ أحدٌ اليوم صوت تلك الأيام.. نحن صوت ذاك الزّمن».

يقول الشّايب والحنين يُغلّف صوته المرتجف.

ومع فرقة «مهنّا» قادته الصّدفة إلى أن يعتلي خشبة المسرح

ممثلًا سنة 1964. كان المخرج المسرحي عبدالرحمن الضويحي يُحضِّر لأول أعمال فرقة المسرح الشّعبي؛ مسرحية «سكّانه مرته»، وتطلّب أحد مشاهد الزّار في المسرحية وجود «عودة مهنّا» وفرقتها الشّعبية، ضمن نصّ وسينوغرافيا المشهد. فاعتلى الشّايب خشبة المسرح أول مرّة بدورٍ صامتٍ لامرأةٍ تتخفّى بالعباءةِ بين نساء الفرقة، يلعبُ دورًا مثل أدوار الأطفال القديمة في اللُّعبة الشعبية «بَزْوَي». ووجد فيه المخرج الضويحي خامة ممثل أدوار نسائية تبزُّ إمكانيات الممثل عبدالعزيز النمش في زمنٍ قلّما تعتلي فيه امرأةٌ خشبة مسرح. ولمّا انتهت المسرحية، بعد تسعة وعشرين عرضًا راقبه فيها الضويحي وتفحّصه، استدعاه إلى مقر فرقة المسرح الشّعبي. وحضر الممثل الشّايب النّاشئ إلى مكتب المخرج في بيتٍ عربيٍّ قديمٍ في الوَطية قُرب الكنيسة الإنجيلية. وعرض عليه الانضمام إلى الفرقة المسرحية قبل أن تخطفه الفرق المنافسة. فسأله الشّايب وهو يُشير بسبّابتيه إلى وجهه:

«بوجهي هذا؟».

«يُغيره لك الماكيير».

وما فهم الشّايب ما الماكيير. فسأله الضويحي عن اسمه لاستخراج بطاقة العضوية، وطافت في رأس الشّايب كلُّ الألقاب والنُّعوت التي أُلصقت باسمه قبل أن يُجيب مُنكمشًا: «خليفة وبس».

ضحك الضويحي، وقال إنه لا يستطيع أن يُرسل ملفه إلى وزارة الشؤون الاجتماعية بغير اسم حقيقي. يمكنه اختيار اسمٍ فنيٍّ في الإعلام إن أراد، لكن بطاقة العضوية تشترط تقييد بياناته الشخصية

الصّحيحة. وقيّد المخرج بيانات الممثل الهَرِم المبتدئ: خليفة محمد حَمَد حَمَد الخوّاص. وقال له:

«فليكن اسمك الفني حَمَد حَمَد».

وكان للمخرج ما أراد. وصار للشّايب اسمٌ جديدٌ وكثير وجوه. ومثّل حَمَد حَمَد المسرحية تلو الأخرى، بمساحاتٍ ما لبثت تكبر وتتّخذ أدوارًا رئيسة، وقد غيّر الماكيير وجهه مرّاتٍ ومرّات. صار نجمًا مسرحيًا وتلفزيونيًا، واعتمر من الشّعر المستعار الطويل والقصير، الطليق والمربوط والمرفوع والمجدول. وارتدى العباءات وفساتين الـ كْلوش الملونة، وتقلّد القلائد الذهبية والفضية، ولمعت في أصابعه الخواتم ورنّت في معصميه الأساور، وكحّل عينيه ولطّخ وجهه بمساحيق التجميل. وتهافتت عليه الفرق المسرحية المنافسة تستعين به لأداء الأدوار النسائية. واعتلى خشبات المسارح حُرًّا مع فِرَق المسرح الشّعبي والمسرح العربي ومسرح الخليج. والماكيير الهندي جورج يتبعه من مسرح إلى آخر، لأنه ما وجد وجهًا خاليًا ممتعًا قابلًا للتشكيل في كل مرّةٍ مثل وجه حَمَد حَمَد. وجورج ليس غريبًا عن الأسفار، يقول الشايب، فهو ابن حفيد كانديد طبّاخ المعتمدية البريطانية زمن الشّيخ سالم بِن صُباح. استمرّت سلالته في خدمة دار الاعتماد حتى زمن إقامة المعتمد هارولد ديكسون في الكويت بعد الاستقلال، وبقيت السلالة الهندية نفسها تخدم أرملة المعتمد المتقاعد بعد وفاته في البيت نفسه حتى اليوم.

وحملقت إلى وجه الممثّل الشّهير عيون الجماهير، بعد سنين من عزوف النّاس عن النّظر إلى وجهه الأملس المحرّم. كل الممثلين ينحنون أمام تصفيق وتصفير الجمهور عند صعود خشبة المسرح

إلا حَمَد حَمَد، يضعُ كفَّه اليُمنى على صدره تقديرًا لتحيةِ الصّالة ولا ينحني. وبخلاف ما يوصيه المخرجون كان يرفع رأسه شامخًا يُجيل النّظر إلى العيون المعلّقة به. يسحبُ نفَسًا طويلًا كأنما توقّف بعد ركض سنين. تنتشي روحه، وتبرقُ في مُخيّلته صورة قِطّه القديم «ليل»، وأصحاب الحَوطة، وفردوس، وكل الذين كانوا ينظرون إليه عينًا إلى عين، ولا يعادون وجهه الأملس في أمسِ مدينةِ الطّين، لكنهم ماتوا.

خطف الأبصار على خشبة المسرح، فصار موجودًا بكل وجوهه الأنثوية الجديدة. صارَ مرئيًا لعيون الجميع إلا عائلة «الخوّاص» التي صدّرت في ذاك الوقتِ كتابًا عن أعلام العائلة فاحشة الثراء. يشرحُ الكتابُ اسم «الخوّاص» ويُبرّئ جدّهم من مهنةِ سَفِّ الخُوص وبيعه، وينسب الاسم إلى أصلِه الأزَدي من ذرية الفارس «محمّد الخوصي»، سليل الشّاعر الجاهلي قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي. وسطّر الكتاب بعد ذلك التّوضيح أسماء كثيرة لا يكاد يعرفُها أحد؛ أسماء قُضاة ورجال أعمال ووكلاء وزارات ومستشارين ومحامين وأطباء ولاعبين ما فارقوا دكّات الاحتياط إلا لمامًا، واسم أبيه شهيد معركة الصّريف الذي ما ذُكر في كتابٍ خارج كتاب أعلام الخوّاص. ولم يكن، ولن يكون بين أسماء الكتاب المغمورة اسم ممثلٍ شهير.

تسابقت الجرائد والمجلات بنشر صوره ملونة، بمظهر نسائي كاريكاتوري، بمساحيق وجه صارخة، وتصفيفات شعرٍ غريبة، وألوان فساتين فاقعة. وكان يرى نفسه فيها وفي عيون النّاس غريبًا لا يُشبهه، لكن النّاس ارتضت به على شكلٍ أرادته، وما أراده النّاس

وصدّقوه وإن خالف الحقيقة؛ حقيقة. وكره وجوده، حينما استحال نُكتة في قابل السنين؛ الممثل الشايب قاهر الجلطات والموت، قِطٌّ بسبعة أرواح. وطاردته النّكات وشائعات الوفاة حتى بعد تقديم آخر مسرحياته «على أطلال المقام» صيف 1978. واعتزل وامتنع عن الظهور في البرامج التلفزيونية خوفًا من السخرية وشرّ العين والحسد. ومكث في البيت نسيًا منسيًّا، لا يزوره إلا الماكيير؛ جورج الهندي الذي استغنت عنه الفرقة المسرحية بعد اعتزال حَمَد حَمَد واستقدام ماكيير لبنانيّ شاب. فسكن الهندي بيت الشّامية في المبنى الملحق بالحَوْش، بعدما عرض عليه الشّايب السّكن لقاء لا شيء، إلا حِسّ أحدٍ في الجوار الصّامت. وترك جورج مسكنه في بيت المعتمد البريطاني القديم، وعمل صديقًا مقابل أجر، وماكييرَ خاصًا، يعتني بشعر الشّايب المستعار وحاجبيه، وممرضًا مزعومًا يرافقه بثيابه البيضاء يدفع الكرسي المتحرّك، عسى أن يكفّ النّاس عنه ألسنتهم، وما كفّوها.

اختفى، ولا ظهرت له في المناسبات الفنية صورة إلا مرتين، أولاهما في مهرجان يوم المسرح العربي لتكريم رُوّاد المسرح عام 1985، وثانيهما في جرائد اليوم التالي، في ديوان ولي العهد في قصر السّيف أثناء زيارة الفنانين شفَوِّه عرفانًا بتكريم الدّولة. ظهرَ في صورةٍ كبيرة، يقف فيها أمام كرسيه المتحرّك متكئًا على عصاه الذهبية، ويُصافح وليّ العهدِ رئيسَ مجلسِ الوزراء. فتلقّى بعد الصّورةِ الأخيرة دعوة من ديوان الخوّاص في «القادسية»، مقر تجمّع أحفاد أبناء عمومتِه البعيدين. وكأنما نال الغفران من جيلٍ ثالث لأولئك الذين نبذوه وأنكروا نسبه إليهم زمان مدينة الطّين.

زار الدّيوان مع جورج على كرسيه المتحرّك ليلة احتفاء العائلة بالتّكريم. وشاهد على جدران الدّيوان عشرات الرسومات والصور لمشاهير العائلة على ما شاهد في كتاب «آل خوّاص: أعلام في تاريخ الكويت»، الكتاب الذي استثناه من قائمة أعلام العائلة. تناسى أمر الكتاب وأحبّ الأجيال الجديدة من أبناء عمومتِه وأحبّوه. وخَبُر لأوّل مرّة في حياته أن يكون له أهل وعزوة. وداوم على زيارة ديوان العائلة بعد التكريم لأسابيع، حتى نشرت إحدى الصّفحات الدّينيةِ في الجريدةِ مقالًا، كتبه أحد الدُعاة الشّباب المعروفين بجريء العناوين. سردَ الدّاعية في زاويتِه الأسبوعية «شوارد قلم» قِصّة الفنان (ح.ح.)، المشهور بأداء أدوار (لا تناسب الرجال)، الممثل الذي اعتزل بعدما بلغ أرذل العُمر، فامتهن بعد الفن مهنة أنجس، وأطلق على نفسِه لقب الوكيل الشّرعي لتزويج أشباه الرّجال بعضهم ببعض، وهو يُقيم لهم اليوم حفلات الأعراس في بيته الذي يقيم فيه مع زوجه الهندي (ج.). ابتلع حمَد حمَد تلفيق المقال، ورجّح أن ممثلًا آخر هو المقصود، رغم أنه تساءل في نفسه بعد معرفته تفاصيل الخبر: «حا حا؟!».

وتجاهل الأمر كأنما لم يسمع بقصة المقال الذي انتشر على كل لسان، فليس لديه بعد هذا العُمر ما يخسره. لكنه بعد نشر المقال زُدّ على باب ديوان الخوّاص من أحد أحفاد أبناء عمومته: «الديوان يتعذّرك»، وخسرَ ثانية الأهل والعزوة، فقرّرَ ألا يسكت. ووكّلَ مُحاميًا أوّل مرّةٍ في حياته المديدة لرفع دعوى قضائية على كاتب المقال، لكن الدّاعية الشّاب أنكر التُّهمة في التحقيق، وقال إنه يقصد في المقال ممثلًا آخر.

يقول حَمَد حَمَد لكاتب الأسفار:

«نال الكاتب البراءة لأن لا دليل على أني المعني بالخبر. وصفني الكاتب فيما كتب على ما اشتهرت من صفات وأدوار في المسرح والتلفزيون، لكنه ما ذكر من اسمي إلا (حا. حا.). قالوا البينة على من ادعى، ومن أين أجيء بالبينة بالله؟! وغردت ألسنة الناس بالخبر صبحًا ومسا لكنهم ما قالوا حاحا، بل قالوا حَمَد حَمَد.. فهل أقاضي الناس كلهم على ما يقولون في بيوتهم ومجالس النميمة؟! لا أحد يرد حقك، ولا حتى..».

وتناوبته الشائعات، واستعرّت النّكات والألغاز المبتذلة. ومرّ به الوقت حتى شاهد مسرحية في التلفزيون يسخر ممثلوها من الممثل المعمّر، بلا داعٍ وبخروجٍ فجٍّ عن النّص. تُبالغ إحدى الممثلات الشّابات السّمينات في المسرحية بافتعال الغيرة والحسد للشّايب النحيل الذي لا يكبر ولا يقع له ضرس؛ «مصيبة تصيبه مثل التّمرة ما ضرّها لاحوس، عمره 800 سنة وبشرته أصفى من بشرتي وليلحين عايش!». وجمهور المسرح يقهقه ويصفّق، وهو يموت من الكمَد، لكن غمره المديد.. يمتد.

هشّمته الشخرية من صِحّته حتى رآها سبب عِلّتِه. وبعدما أقعد نفسه في كرسي المرضى افتعالًا قبل سنوات، نوى بعد سخرية المسرحية خلع أسنانه بكمّاشة المسامير واحدًا تلو آخر، وما خلع منها إلا نابًا خلع من جوفه صرخة ألمٍ دامية. فتعاظمت كراهيته للنّاس الذين ما عادوا يحترمون أحدًا ولا يحتشمون ولا يعرفون الحياء. مثل أطفال لا يحسبون حساب كلمةٍ في سبيل انتزاع ضحكةٍ أو لفت انتباه كبير. وفي اعتزاله الطويل اشتاق سيرته الأولى في

زمنٍ ما كان فيه مرئيًا، خَليفُوْهْ البَرَنْعَى، يُشيح فيه النّاس بوجوههم عنه، ويُطلقون عليه الألقاب، لكنهم ما تمنّوا له الموتَ أبدًا.

عاش الشّايب دائمًا في الجوار، يرقب صادق بوحدَب، ويتحيّن فرصة لقائه لكتابةِ حكاياتٍ قديمةٍ أتخمته سنواتٍ طوالًا. كان يدري منذ البدء أن هذا الرّجل المصطفى من أم اللّوْهْ هو الذي سوف يجيئه بولده.. ولد فردوس. الغائب الذي أسموه غايب. يدري الشّايب مُذ كان شابًا وولده في شهره الأوّل يرتحلُ إلى الجزيرة، لكنه لا يقدر على الذهاب إليه لأن على ما تقول الصاجّة: إن أقبلت عليه أدبر. ولكي يردّ الغائب كان عليه أن يقرأ سيرته. وكي يقرأها كان على أحدهم أن يكتبها. ولمّا كُتبت السّيرةُ في سِيَر أسفار مدينة الطّين الغابرة؛ قرأها الولدُ، فجاء يسعى إلى أبيه.

***

صمتَ الشّايب بعدما سمع صوت إطباق الباب الحديدي في الحَوش. قال إنه يتحرّى جورج يجيء بالغداء. عادة الشّياب أن يتغدوا مبكّرين، بزّر لي مبتسمًا، كما لو كنت شابًا أمامه. وأنا ما زلت في سحر حديثه غارقًا غير مُصدّق أني في حضرةِ من كتبته؛ خَليفُوْهْ البَرَنْعَى. الشّاب الذي وُلِد سنة تولي الشيخ محمد بن صُباح حكم الكويت، بعد سنة الجراد الأولى بعامين. كيف له أن يُعاصر ثمانية حُكّام وأن يكون في هذه الصحة وهو في الثامنة والتسعين ما لم يكن في الأمر.. سحر؟! كان أمرًا لا يُصدّق حينما انتبهت لأوّل مرّة أنه يُطبق كفّيه على إبهاميه مُعظم الوقت.

«والصاجّات؟ أين الصاجّات اليوم؟».

سألته قبل أن أستأذنه الانصراف في وقت غدائه. نظر إلى عينيّ طويلًا قبل أن يُفضي:

«بقي منهنّ أربع قبل أن يختفين في الستينات، أم صَلْبوخ وأم عبدالرّحيم وأم جابر وأم عَوَض.. أنت تدري كيف ينتهي زمنهنّ.. لقد كتبتَ ذلك في أحد كتبك قبل حوالي ثلاثين سنة».

«كتاب كائنات مدينة الطين؟ كان كتابًا ضمّ الأساطير والخرافات الشعبية التي كنت أسمعها من العجائز عندما كنت طفلًا.. أنا أسألك عن الحقيقة».

«الحقيقة فيما قالته لك العجائز عن نهاية زمن الصاجّات.. عندما كنتَ طفلًا».

انفلتت مني ضحكة وأنا أجيب على ما سمعت من ضويحبات أمي رحمها الله:

«ينتهي زمان الصاجّات في غدٍ بعيدٍ بعدما يهجوهنّ نهّامٌ أعمى في إحدى أغنياته؟».

اخترقني بنظرة حادة رافقت ابتسامة:

«وهذا ما فعله عبدالله الفضالة رحمه الله حينما غنّى أغنية «العجايز» في الستينات. لا أظن أحدًا في الكويت أو الخليج ما سمع الأغنية في الأسطوانات القديمة».

برِقَت صورة المغني الشعبي عبدالله الفضالة بنظارته السوداء في خيالي، كتبته نهّامًا أعمى يغني على ظهر السّفينة وأنا لم أكن أدري أنه المغني! أيّ كاتبٍ أكون وأنا موغل في جهل ما أكتب؟! وهذا

الشّايب الذي أمامي يعي تمامًا ما يقول.

«والعباءة؟ أين العباءة الآن؟».

«لا أحد يدري يا بوحدَب، لكن الصاجّات الأربع تحدثن عن العباءة قبل سبعٍ وثلاثين سنة، قبل اختفائهن.. قلن إنها تنقلت من يدٍ إلى يد، حتى وصلت الكويت ثانية ولا تسألني كيف لأني لا أدري، ولا صولجان طوعَس أنبأني بالحقيقة. وعملت الصاجّات عملهنّ من أجل الخلاص من العباءة وكفّ شرّها من أن تسقط في يد أحدٍ فيحجب الشّمس عن الدّيرة..».

سكت ولاحَ على وجهه خيال ابتسامة، فاستطرد:

«..لعلّك تتذكّر حكاية طالبات ثانوية «قِبلة» مثلما يتذكرها كل من عاصرها سنة 1953، حادثة حرق العباءة والبُوْشِيّة في ساحة المدرسة وغضب الكثيرين وتأييد القِلّةْ ممن وصفوها بمحاولة رائدة لتحرير المرأة.. كل هذا كلام فارغ، أنا أدري أن الصاجّات كُنّ وراء حرق العباءة في المدرسة، لكني أشكّ أنها هي العباءة نفسها..».

اختلس نظرة سريعة إلى الشّمس الباهتة وراء النافذة قبل أن يُتِم:

«..وأظنها حيلة مثل حيلة أم حدَب حينما أوصت بحّارة السّنبوك الحامِدي بإلقاء عباءة بديلة في مغاص أم الظّين، عسى أن يكفينا الله شرّ بُوْدَرياه، أو شر سقوط العباءة في يد من يُخفي الدّيرة عن عين الشّمس».

لزِمتُ صمتي، وفكّرت في مهاتفة فاطمة حسين، فقد كانت أم حسام على رأس فتيات ثانوية قِبلة اللاتي حرقن العباءة والبُوْشِيّة،

لكني أدري أنها أقفلت باب الحديث عن حادثة الحرق منذ سنوات، لكثرة ما استهلكت، ولانزعاجها من مغالاة المناصرين لحقوق المرأة بتسميتها «هدى شعراوي الكويت.. التنويرية مُحرِّرة المرأة».

أمسكتُ بمفاتيح سيارتي أهمُّ بالاستئذان تفهُّمًا لما حسبته طردًا لطيفًا من الشّايب الذي نبّه إلى موعد غدائه:

«أزورك فيما بعد».

نهضتُ لكن الشّايب استبقاني بإشارة من يده:

«الأكل خفيف.. وسامحنا على القصور».

أسندت ظهري إلى المقعد ثانية دونما إبداء أعذار للانصراف، فما كنت في الحقيقة أريد أن أنصرف:

«ما جئتك لآكل.. جئت لأعرف».

«اعرف ما شئت.. لكن بعدما نضيِّفك».

ودخل جورج بلباسه الأبيض مُقبلًا من المطبخ، يحمل صينية فيها أطباق منقوع الباقلاء وحبوب الحِمّص وشرائح الليمون والتمر وكأس لبن رائب. وضعها على طاولة طعام صغيرة في الصالون، فطلب منه الشايب كأس لبن أخرى لي. وبسم الله، تفضل، قال لي قبلما يجلس إلى الطاولة. ولمّا جلست وعاد جورج بكأس اللبن قال الشايب إنه يعيش على هذا، وهو يشير إلى الأواني على طاولة الطعام. طعامه مُذ كان يقطن صوبَ سوق الحريم، قُرب ناصية بائعة الباقلاء، الصاجّة أم عبدالرّحيم في الأيام الخوالي. غير أنه يُحضِر إلى البيت السّمكَ بين حين وآخر، إذا ما ملّ ليلٌ من طعام القِطَط

المعلب. وإذ تنبّه لاستغرابي مجيئه على سيرة القط رفع صوته ينادي:

«يا جورج.. افتح باب الحجرة الله يعافيك».

وسمعنا صوت مقبض باب وفُتحت في الممرّ حجرة. وأقبل على الصّالون قط أسود يتبختر لامع العينين رافع الذيل. أقعى تحت كرسي صاحبه ينظر إلى أعلى. اقشعرّ جسدي، والتقط الشايب علبة اللبن وصبّ في طاسةٍ نحاسيةٍ وضعها للقط على الأرض. قلت له:

«ما خبرتُ القِطط تحب اللبن المالح».

«لكن الجنّ تُحبه».

أجابني الشايب، فسَرَت القشعريرة ثانية في جسدي، وتحدث عمن أسماه «ليل». وأنا أنصت إلى حكايته على إيقاع وَلْغِ القطّ الذي يمرغ شواربه باللبن ويلوّح بذيله. قال إن ليل هو ليل إيّاه، ما خُلق القط الأسود ليموت، حتى لو دفن حيًا على يد أُم صنقور قرب مقام الجزيرة في «سِفر العباءة». أودع القطُّ الأسود نطفته في رحم مبروكة تحت شجرة سِدر، في ساحة مشفى الإرسالية بعدما بترَ صِبية الحي ذيلها. وحبلت مبروكة في بيت الطبيبة الأمريكية ووضعت مبكرة. ماءت الليل بطوله وتمخضت عن خمسة رؤوس وردية مغمضة العينين بلا أجساد. ومزّق مواء مبروكة هدأة الليل حينما تمخضت عن صغيرها السادس؛ قِطّ يافعٍ شقّ أمّه خارجًا من جوفها بفرائه الأسود الغزير وأنيابه تامّة النّمو. همدت مبروكة، وعاش «ليل» يفعل فعله جيلًا بعد جيل. يُودع نطفته في جوف قطة سوداء سمينة قبلما يموت. ويتشكل من جديد في رحم القطة

الحبلى. فيأكل إخوته في بطن أمه قبل أن يخرج منها بالغًا، كامل الأسنان والمخالب غزير الفراء، فيُرديها قتيلةً مشقوقةً داميةَ الفزج.

اقشعرّ جسدي ثالثة وما تناولت من الطعام لقمة، وأنا أنصت إلى حكاية الكائن المنحني على طاسة اللبن. قاتِل زوجاته وأمهاته وإخوته وأبنائه، عابر الزمن رحمًا بعد رحمٍ وجيلًا بعد جيل. ورغم غرابة ما يقوله الشايب فإني أُصدّق أنه خَليفُوْه البَرَنْتَى، وأنه صادق في نقل ما حدث، كل ما حدث، لكن الكتابة الآن تأخذ منحى آخر من الخيال الذي يدعوه الشّايب سِحرًا.

«أن تعيش هذا العمر كله.. وبهذه المعرفة والفطنة وأنت بالكاد تلقيت دروسك لدى كريم العين في ساحة مسجد سوق الحريم.. كيف؟».

«طوعَس».

أجابني وهو يرمق القط الذي فرغ من وجبته، ومشّ خطمه بكفيه يزيل بواقي اللبن عن شواربه. وتمسّح ليل بساقَي صاحبه القديم الذي انبرى يوضح:

«طوعَس بن ذعيدِع بن خاوين بن وارح بن تِثيام بن بُرقان أبي العجائب بن ملك ملوك الجان وقاضي قضاتهم شمهروش. طوعَس المارد، صاحب صولجان المعرفة مالِك يوم السّديس».

«بُرقان أبو العجائب.. أليس هذا من تأليفك؟».

«ابحث في كُتب السّحر عن اسمه وأنت تفهم.. خادم فلك عطارد ومالك يوم الأربعاء القديم».

نهض الشايب من كرسيه المتحرك بعدما فرغ من طعامه. وخرج يتقصّع في مشيته من الصالون يتبعه القط رافع الرأس نافخ الصّدر شاهر الذيل. وما طال غيابه وقفل يحمل بيده عصاه الذهبية. لوح بها بعدما جلس إلى كرسيه المتحرك، وقال وهو يشير إلى رأس العصا المرصع باللآلئ إن الأسرار كلها هنا. في هذه العصا التي تصبّ فيها الجان معرفتها المسروقة من السماء ومن قصص الخلق. صولجان طوعَس الذي حفظه أبو القطاوة منذ ليلة السّديس الأخير، ليلة طقس تسليم صاجّة المرقاب العهدة إلى صاجّة الجزيرة. ليلة ختمت فيها أم حدَب حياة الكهانة بتسليم خَليفُوْه الصولجان وصيًا على عرش طوعَس، فلا يفارقه الجني المارق متلبسًا القِطّ الأسود، حتى يموت خليفُوْه بعد عمر مديد.

«وإلا من أين لجاهل مثلي كل هذا العلم؟ أنا أعرف ما يسمح لي طوعَس بأن أعرفه».

أفلتَ تنهيدة قبل أن يستطرد:

«..قصصنا جميعًا هنا في هذي العَصا.. أنا وولدي والرّاحلون كلهم وأنت الذي تكتبنا.. فاكتب ما أقول.. اكتب عني أنا المحرّم عليّ أن أقترب من ولدي في بيت أم الخير والجزيرة منذ سبعين سنة. كان عليه أن يجيء من تلقاء نفسه بعد أسابيع من مولده.. قالت أم حدَب إنه يجيء وقد كبر سنينًا طويلة، وما فهمت كيف يجيء لكني آمنت بما قالت وانتظرت.. لكنه ما جاء، فقلت هي نبوءات أم حدَب، يصيب بعضها وبعضها يخيب».

أومأت بوجهي إلى الصّولجان المزعوم بين يديه:

«يا رجل! هذا خيال!».

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ينقصها ناب. كرّر:

«هذا سِحر».

فقلّب العَصا بين يديه، وسألت:

«تعني أن من يُمسك بهذا الشيء.. يعرف كل شيء؟».

«لكل علم غير علم الله حد.. لو سمح لك طوعَس أن تحمله.. سوف تعرف الذي صار وانقضى، والذي اليوم يصير.. لكن لا أحد يعرف ماذا سوف يصير إلا من يعبر التّبّة إلى الغد.. هل في نيّتك العبور؟».

قفز القِط إلى حضن الشّايب على الكرسي المتحرك واستقر. ومسح صاحبه على ظهره، فقلت:

«أنا لا أفهم ولا أصدق لعبة الزمن هذه التي أكتبها في ما أكتب و..».

قاطعني:

«الزمن وهم يا بوحَدَب، إنما هي الحيوات المتجاورة، ما تحسبه جرى في زمن ولّى إنما هو يجري الآن في مكان آخر، في حياة مجاورة.. نحن هنا وأيضًا هناك لكن بمصير مختلف.. وما تجهل حدوثه في الغد إنما هو يجري في هذه اللحظة لكن بعيدًا عن عينيك.. هو شيء مثل الذي يحدث الآن في مكان ما مع غايب بُوَدَرياه، الرّجل الذي بلغ السبعين يعبرُ التّبّة ويزور الديرة في الأمس، وهو في الوقت نفسه، أمس، رضيعٌ في الجزيرة القريبة من الدّيرة..».

أطلق زفرة طويلة وأنا أنصِت إلى حديثه عن الأكوان الموازية، حديث الشّايب شبه الأمّي يشبه ما تؤمن به فياصل المشيعل عن تجليات المرء في أكثر من كونٍ في الوقت نفسِه، وبأحداث ومصائر مختلفة؛ أنت الآن هنا بصفتك كاتبًا مخضرمًا يا صادق، وأنت في أكوانٍ أخرى الآن أيضًا، بصفتك بائع بطيخٍ ربما، قائدًا، أو مهندسًا، أو قوّادًا!

استطرد الشّايب:

«..ما شعرت بالعمر كيف مر.. ولا عرفت كيف أحتال على قول الصاجّة الذي لم يتحقق بعد شهر إلا في كتابتك.. عِشت العمر أنتظر حتى أبلغتني هذي العصا الذهبية أن ولدي المنسوب إلى الجزيرة لا يفعل في حياته شيئًا إلا الزراعة والقراءة. يقرأ ويزرع. كنت أدري أنه لو قرأ يجيء من نفسه. وقد كاد أن يجيء مرة، قبل اثنتي عشرة سنة حينما حضر مسرحية «على أطلال المقام».. كنت أدري وأنا مستتر بعباءتي على خشبة المسرح.. قالت لي هذه العصا إن ولدي بين الحضور، لكني ما رأيته في ظلمة صف المقاعد في بلكونة مسرح سينما الأندلس، وخِفتُ إن أقبلتُ عليه يُدبر.. وها أنت قد كتبت ما كتبت مثلما طلبتُ منك.. وصار ما صار.. قرأ ولدي جزأين من الأسفار وجاء إليك فأوصلته إليّ قبل أيام.. فقلتُ له كل شيء، وقرأ بعينيه وُريقة عزُّوز الهذار يشهد فيها بأنه ليس بولده هو وأمينة، وأنه ولد امرأةٍ أخرى وأنا أبوه. فصدق ما قرأ. ولمس هذه العصا بعدما سمح له ليل ورأى ما رأى، لكنه ما رأى أُمّه ولا عرف من تكون.. وصارت في نفسِه خمس رغبات أراد أن يُخلّصها؛ أن يعرف من هي أمه، وأن يبلغ الشيخ سالم عن خطورة ضياع العباءة،

وأن يزور قبر سعدون، وأن يكلم فضة ويبشرها برجوع سليمان والرّضيع، وآخر رغباته وأهمها قبل الرجوع؛ أن يُلاقي أم الخير زَمْزَم في الجزيرة فيحذرها من نار التّنُّور. فأرسلناه إلى أبيه في الأمس.. إليّ.. إلى خَليفُوْة وبس الأمرد الأملط الأملس، حينما كنت في شبابي، كي يحقق رغباته الخمس، فيعود إليّ كبيرًا بعد شهر من مولده على ما تنبأت أم حدَب، لأقول له: أمُّك فردوس بنت حمدية.. ها؟ أي الحياتين تريد يا ولدي؟».

مددت يدي أطلب منه العصا فماء القط وتراجعت. أسندت ظهري إلى الوراء وانسلّت قشعريرة رابعة في جسدي من نظرة القط الأسود. والشّايب صامت مذ أنهى حديثه عن ولده وفردوس بشجن رقرق الدمع في عينيه. قلت له إني أصدق بعض ما صار، لكني لن أصدق ما يدّعي أنه اليوم يصير.. صَنقُوْر وسليمان.

«أكمل الكتابة وسوف تصدق».

جفلت حينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة ناقصة النّاب. حملقت إلى صولجان طوعَس في يده فابتلعت تساؤلي، فإن المعرفة، على ما يقول، تتجمّع فيه. وأنا أوشك على التّصديق، ولا أصدّق رغم أن الأمر يعجبني وأريد أن أصدق. قلت له:

«أكملُ كتابة ماذا؟ وأنا لا أعرف لمجيء سليمان أي سبب غير أنك في مشكلة مع ولدك.. ولدك الذي غطس ولا أدري إلى أين ذهب..».

«أنت تدري أين ذهب الولد على ما كتبت..».

تلكأت بين إنكار وتسليم، فسألت:

«ماذا عن سليمان الذي على ما تقول إنه عبر التَبّة وحقّق مطلبين من مطالبه الثّلاثة، بقي مطلبه الأخير أن يلتقي ولده..».

فاجأني بصرخة انفلتت في فورة غضب:

«هذه ليست مشكلتي.. كان ولده رضيعًا أمام عينيه لكنه هرب.. ليس له في ذمتي إلا نعلان تركهما على السّيف عند صخرة الوطية قبل سبعين سنة.. فليعبُر بعدها التّبة ويعودُ إلى ولده حيث تركه رضيعًا.. بلا دلع الأطفال والرّخاوة، قطيعة!..».

قال، ثم صمت يفكر قبل أن يستطرد:

«..قالت أم صَنقُوُر إني أعيش الدهر، حتى ينبت في رأسي الشعر. وقالت إني لا أموت ما لم يرجع سليمان، فأعطيه نعلين خلعهما على سِيف الوَطْية ليلة حصار القصر الأحمر.. نعلَين نجديّتين تركهما على السّيف قبلما يعبر التَبّة هو وصَنقُور.. وأنا منذ ذلك الفجر البعيد.. ما زلت أنتظرُ الحافي يعود».

***

خريف ١٩٢٠

(57)

نزيلُ الحُجرة الخامسة

«أيُّ الحياتين تريدُ يا ولدي؟»

أمضى غايب أيامه بعد خروجه من التَّبَّةِ في الحُجرة الخامسة. حُجرة صغيرة في بيت الزُّجاج، بنافذةٍ كبيرةٍ وحَشِيَّةٍ أرضيةٍ نام عليها عشرة أيام حتى اندمل جرح كتفِه وجُبِر كسره. وما نزع الرّجل الغريب نظارته السّوداء، يُدير ظهره إلى النّافذة كلّما أشرقت الشّمس ساطعةً على ما لم يشهد في حياته قط. ضوءٌ يتّقد في الحُجرة ويُحيلها كتلة ضياءٍ ليس لها آخر. ولا فكّ الغريب لِثامه عن وجهٍ مَحاهُ جمرُ التنّور ومغليُّ السّمن قبل عقود. وما دخل عليه في الحُجرة إلا سركيس ومبروكة وإلينور، لكلٍّ منهم وقتٌ مُجدوَل. يُطبِّبه الأول ويطهر الجرح ويستبدل ضمادة جديدة بالقديمة، وتُطعمه الثانية وتقيس حرارته وتجسّ نبضه، وتستجوبه الثالثة وتُنصت إلى عجيب أقاويله، لا تكذبها ولا تصدّقها. ترى فيه رجلًا على قدرٍ كبيرٍ من الثّقافة ما عرفت مثله في الدّيرة قط. تُدهشها أخبارُه من فرط الدّقّة في قول، أو الغموض في قولٍ آخر. لكنها هوّنت الأمر كلما تذكرت ادعاء الرّجل أنه خرج من موجة. وآلت على نفسها أن تصدّق أي شيءٍ إلا حكاية خروجه هذه، مثل قصةِ أطفالٍ دنماركية تقرؤها قبل نوم بُنيّاتها، عن الحورية الصّغيرة الحسناء. أو مثل خرافة فَيلَكاوِيّةٍ عن معجزة ابن خادمة مقام الجزيرة، الذي يختفي في موجةٍ فيعود مُحمّلًا بالكنوز والعجائب.

لم تُطل زيارتها له في اليوم الرّابع. جلست على الأرض إلى جوار

الحشِيّة حيث يضطجع النّزيل. فطلب منها الإذن بالخروج لأن ليس لديه إلا ستة وعشرون يومًا يعود في آخرها إلى الغد، ولأن لديه خمس رغباتٍ عليه أن يُخلِّصها قبل العبور. وتحجّجت الطّبيبة بسكرتير الحكومة الذي ما أمر بصرفه. وبالكاد تحدّثا قبل أن ترتفع صيحات المرأة في اللّيل، تجيء من النّافذة المشرعة: ما مات سليمان وهذي غترته.

قال النّزيل للطّبيبة:

«هذه شايعة، أم سليمان الغيص. تسكن بيتًا في المطبّة.. وتحسب أن ولدها سليمان قد مات».

«تحسبه ميتًا؟».

سألته الطّبيبة، فأجاب غايب وهو ينظر إلى النافذة مضيّقًا جفنيه متحصّنًا بنظارته السّوداء:

«نعم، قيل لها إنه أغرق نفسه بعد أذان الفجر قبل أربعة أيام، لكنه دخل الموجة السابعة أمام صخرة الوَظية وعبر إلى المستقبل.. وسوف يعود يا دكتورة من موجةٍ كما رحل، ويستعيد ولده ويعود إلى زوجته».

أفلتت الطّبيبة ضحكة هازئة:

«تتحدّث عن الموجة كأنك تتحدّث عن قطار.. هذا لو كنت تعرف ما هو القطار».

«بل هي أسرع من القطار، وتصل إلى ما لا تصل إليه سِكك الحديد..».

قال، ثمّ هزِءَ من ضحكتها بضحكة:

«..بالمناسبة؛ جئت من زمنٍ توقفت فيه قطارات الفحم تقريبًا.. القطارات تشتغل بالكهرباء.. وبالزيت.. النفط.. Oil.. Oil الذي سوف ينقّب عنه الإنكليز هنا».

انفلتت الطّبيبة الأمريكية تسأل:

«يعثرون عليه؟».

«أتصدّقين ما أقول؟».

«بالطبع لا».

تغطّى غايب بالشّرشف الأبيض واستدار على جنبه الأيسر يواجه الجدار:

«يجب أن أذهب إلى بيت القطاوة. متى أخرج من هنا؟».

«عندما يأذن سكرتير الحكومة».

ارتفع صوت أم السّعف واللّيف بعيدًا وراء النّافذة. فخرجت إلينور من الحُجرة الخامسة، ثمّ من مشفى الإرسالية، ثمّ من الحي القِبلي على ظهر حمارها الأبيض، يقوده الحمّار إلى بيتٍ وراء مقبرة «بِن حقّان» في «المطبّة». بيت زارته أوّل مرّةٍ يوم ولّدت فضّة قبل شهرٍ وبضعة أيام. ذهبت تستطلع أمر أمّ سليمان، المرأة الطيّبة التي تحترمها وتحسن استضافتها وتسقيها الشّاي من كؤوس أهل بيتها. ترجّلت من الحمار وطرقت الباب. وتلقّتها فضّة بشعرٍ مُهملٍ ووجهٍ بائسةٍ تعابيره. فدخلت حوشًا لا يُشبه حوش البيت الملوّن الصّاخب بالأهازيج ظهيرة دق الهريس.

«هل أنتم بخير؟».

سألت إلينور، فارتعشت شفتا فضّة التي بدت طفلةً في درّاعتها البيضاء ذات الدّوائر الصّفراء، تُشبه طاقة من الأقحوان:

«نحن؟! نحن من؟..».

فانبجست دموعها وانفجرت باكية:

«..مات ولدي محترقًا في بيت المرضع، وأغرق أبوه نفسه في البحر عامدًا، وفقدَت حماتي نصف عقلها المتبقي وخرجت من البيت ولم تعُد. سمعتُ صيحاتها أربع ليالٍ مثلما سمعها كل أهل الديرة، لكن ما رآها أحد. يقولون إنها صارت جنية تأكل الجمر وتلبس الليف وشعرها السعف. وأنا وحيدة في هذا البيت وخائفة».

عانقتها إلينور والأفكار تعتمل في رأسها عن الرّضيعين اللذين احترقا في بيت المرضع، وعن الأب الذي أغرق نفسه. عن حديث *خليفة وبس أن النار لم تمس الابن وأن الأب سوف يعود*. وعن نزيل الحُجرة الخامسة الذي يجيء قوله بالعجب. وعن الورقة التي أخرجتها من حِرز الهذّار يقول فيها إن غايب ليس بولده إنما هو ولد خليفه وبس. *جئتُ لأهديكم فلا تُضِلُّوني*. كادت الطّبيبة تُخبر فضّة أن ولدها لم يحترق في بيت المرضع. *لكن كلام خليفة وبس مجرّد خرافة*. وتماسكت إلينور أمام الفتاة خائرة القوى. *أنا لا أؤمن بالخرافات*. وجلست معها في اللّيوان تهدئها. قالت فضّة إن كبرى زوجات بِن حامد زارتها قبل يومين مع «عبدتها» الشّقراء. تفحّصتها المرأةُ وهي تُطيل العناق والقُبلات، شدّت شعرها وعصرت نهدها وقرّصت زندَيها:

«أنتِ تفهمين ماذا كانت تريد يا خاتون».

خطبَتها المرأةُ لزوجها لقاء بقائها في البيت المرهون له بدَين سليمان وأبيه، يُبقي معها «عبدتَين»، ويزورها بين ليلة وليلة. قالت إن المُلّا عبدالمحسن سيكون وليًا عليها ما دام ليس لها في الدّيرة والٍ. والزّواج ليلة خميس بعدما تتطهّر من حيضتها الثّالثة بعد النّفاس. وتقول فضّة للطّبيبة إنها بحكم المرمية في السّكّة إذا رفضت وأخذ بِن حامد البيت. لا أهل لي في الدّيرة وعائلة أبي جرّاح التي ربّتني أقامت في الهند. ما قالت فضّة لزوجة بِن حامد لا، فتنتهي حياتها في العراء. ولا قالت نعم فعُدّ الصّمت موافقة خجلى. فأرسل بن حامِد في اليوم الموالي فراشًا جديدًا وخزانة خشبية هندية كأنما يدُقُّ وتدًا في البيت المرهون: هذا مكاني.

شكت فضّة إلى الطّبيبةِ أيامًا كانت تمضي بطيئة بعد غياب سليمان والرّضيع، لكن الأيام بعد زيارة زوجة بِن حامد صارت تطير. وأن بِن حامد ما انفكّ يدهمها في الكوابيس منذ ليلتين. منذ جاءتها الجارة شريفة تعرض مساعدتها للنّجاة من هذا الزّواج. قبّحت بِن حامد في عينيها وهي التي تمقته دونما تشنيع شريفة؛ تزوج سِتّ مرّاتٍ ويريدك سابعة، هذا غير «عبداته» اللاتي لا يعدُّهن عدد. شايب عايب، العقل غايب والجسد خرايب. قالت إنها سوف تُرسل لها فاعلةَ خيرٍ بعد أيام، تُنجيها من مصيرها في البيتِ المرهون زوجةً مغصوبة.

ولا تدري إلينور في أي شيءٍ تُفكر، في ضيق الفتاة أم فيما قاله نزيل الحُجرة الخامسة إن سليمان سوف يعود إليها بالولد. هل تُبشّر

الفتاة بفرجٍ قريب؟ *خرافة خرافة خرافة*. سمعت الطّبيبة كثيرًا من الخرافات منذ مجيئها الدّيرة، لكنها تعيشها أوّل مرّة. ما عرفت ماذا تفعل من أجل الفتاة الخائفة من الظلام والوحدة والزواج من شيخٍ لا تعرفه. دعتها إلى المجيء معها إلى الإرسالية، يُدبِّرون لها مأوى ووسيلة كسبٍ عِوَض إجبارها على الزّواج بمن لا تبتغيه. وتلقّت ابنة عبدالرّحمن وقماشة العرضَ كأنما طُعِنَت في شرفها ونسب أسلافها الذين ما رأتهم قط:

«أشتغل؟ أنا؟! أشتغل ماذا؟».

سألت فضّة مستنكرة جرأة العَنكريزية، وما درَت الطّبيبة فيمَ أخطأت وبماذا تُجيب. «أي شيء»، قالت بعد تلكؤ، تعملين في أي شيء: الطبخ للمرضى، تنظيف أدوات الطّبابة، الاعتناء بنظافة عيادة النّساء وخدمة المريضات. بحلقت الفتاةُ إلى وجه الطّبيبة:

«حتى لو أرضعتني أم سرور يا خاتون.. أنا حرّة ولو أرضعتني عبدة، والحرّة لا تشتغل!».

وما عرفت إلينور من هي أم سرور ولا فهمت سبب انزعاج الفتاة. وذكرت في ردّها على فضّة بائعات الدّيرم والكحل وألبِسة النّساء في سوق الحريم، وبائعات الخضار والأقِط والباقلاء واللّبن الرّائب في سوق الدّيرة، والخيّاطات والحوّافات والخطّابات والدلّالات و.. قاطعتها بنت عبدالرحمن وقماشة مُطرقة:

«هُنّ غير ونحن غير».

ولا سألتها الطّبيبة من أنتم. همّت بالانصراف من بيت شايعة لكن فضّة استمهلتها:

«اِصبري خاتون حليمة».

دخلت الفتاة حجرتها وخرجت تمدُّ كفَّها:

«خذي هذي الزجاجة خاتون، لا حاجة لي بها وقد مات الولد.. اسقي الرُّضَّع ولتكن في نومهم وراحتهم صدقة وبركة على روح ولدي سيف بِن سليمان بِن سهيل».

أمسكت إلينور بزجاجة «ماي غريب» بكفٍّ مرتعشة. قلّبتها بين يديها وتحقّقت من الملصَق على الزُّجاجة الأنيقة، ووجدته على حال ما رأت أوّل وثاني مرّة، مُلصَق بلد المنشأ منزوع في أسفله. وعادت الطّبيبة إلى بيتها، تكتب على آلتها الكاتبة أيّ شيءٍ غير شيءٍ أعياها. وكررت زياراتها إلى نزيل الحُجرة الخامسة في الأيام السّتة التالية. ضعيفة أمام ما تُنصت إليه في قول غايب وتنكره رغم ما تُصدّقه في دواخلها. فجاء اليوم الأخير وما بقي لدى الرّجل شيء يقوله، بعدما دعّم كل أقواله بالبراهين. ابتلعت ريقها وما نظرت إلى وجهه الشائه وهي تسأل محاذرة:

«هذا المستشفى.. قُل لي.. كيف يكون في الغد؟».

قال لها غايب إن دكتورًا اسمه لويس إسكدر، آخر الأطباء الإنجيليين المُبشرين، سوف يُسلّم إدارة «المستشفى الأمريكاني» إلى وزارة الصحة في أواخر الستينيات، بعد قرابة الخمسين سنة، فينتهي دورها تمامًا. كتبت الصحف عن ذلك ونشرت صور احتفال التسليم. وإلينور تنظرُ إلى الخارج عبر النافذة وهي تُنصِت، عالقة في جملةٍ قالها الرّجل، ولا تتخيّل أن يكون للكويت صُحُف، فتسأل:

«ينتهي دور المستشفى تمامًا؟».

ولمّا طال صمتُ غايب نظرت إلينور إلى وجهه، فنطق:

«تمامًا.. وما تنصّرَ من الكويتيين عددٌ يُذكر. لكن الحُجرة التي تُقيمون فيها صلواتكم وخدمات يوم الأحد سوف تبقى.. لم أشاهدها في الحقيقة، فقد أمضيت حياتي في فَيلَكا. لكني أدري أنها صارت كنيسة كبيرة لها بُرج بلا ناقوس، في المكان نفسه مُقابل ساحل الوَطية.. الكنيسة الإنجيلية الوطنية، يزورها المئات من المسيحيين.. قليلهم كويتي مسيحي من أصول مهاجرة، وأكثرهم من العاملين في الكويت».

طفرت الدُّموع من عيني إلينور، وما تخيّلت عاملين غيرهم في الدِّيرة:

«عاملون في الكويت؟».

هزّ غايب رأسه وعدّ على أصابعه:

«معلمون، مهندسون، أطباء، عمال، سواقون وطباخون وخدم منازل.. بعد النفط.. **After Oil** يا دكتورة **After Oil**».

جفّفت إلينور دموعها بظهر إبهامها، ورخّصت لـ غايب مغادرة المشفى ظهيرة اليوم العاشر. وأرسلته مع سركيس ليدلّه على بيت القَطاوَة الذي جاء من أجله.

***

تربّع غايب في حَوش بيت القَطاوَة قُرب سوق الحريم. وأسند ظهره إلى الجدار. وتربّع أمامه خليفُوْه وكلاهما في صمت، منذ

طرق الولد السّبعيني الملثّم باب أبيه الشّاب. تلاقت العينان وعدستا النّظارة السّوداء عند عتبة الباب. وتملّكهما خشوعٌ في لحظةٍ تُعاش ولا تُحكى. وما فاه أحدهما بكلمةٍ بعد انصراف سركيس الذي أوصل الولد إلى بيت أبيه. يلتهم كلاهما الآخر بناظريه. هذا يدعو ذاك إلى الدخول بإيماءةِ يد، وذاك في صمتٍ يستجيب. ويفكّ غايب لِثامه، وينزع النّظارة السّوداء عن عينيه، ويتربّع الاثنان على الأرض. وجهٌ شائخٌ يقابلُ وجهًا أملط، وعيونٌ تقول ما لا يُقال. *كلانا* يدري من يكون *الآخر*. وكلاهما ساكت. *من فينا يبدأ الكلام؟* وأي كلام يُقال في عاطفة هذا الظرف الخارق لمسلّمات العقل. *قُل شيئًا*. ويتلفّت غايب في الحَوش يُجيل بصره بين القِطط الثّلاثة والخمسين. ويتعرّف من بينها إلى أشهب وإلينور يتمسّحان بصاحبهما، مثلما قرأهما في «سِفر العباءة» و«سِفر التّبّة» عند قبر زَمزَم. أعاد النّظارة السّوداء يُخفي عينيه، فشمسُ هذه الذّيرة لعينيه غير محتملة السّطوع. وتململ أبو القَطاوة في جلسته، وما طاق الصّمت أكثر:

«قُل شيئًا».

«لا. قُل أنت شيئًا يُبّه».

وقعت كلمة يُبّه مثل دبّوس وخز قلب خَليفُوْه وأدمع عينيه الخاليتين من الأهداب. وهزّ رأسه وغطى شفتيه بيمينه وأومأ بشِماله بعدم قدرته على الكلام. وطأطأ أمام ولدِه كأنما هو الولد يجلس أمام أبيه. وتحدّث غايب وهو يفتعل عدم اكتراث. يتشاغل عن النّظر إلى وجه خَليفُوْه بنفض الغبار عن حاشية دِشداشَتِه، ويُنقّل بصره بين القِطَط في الحَوش:

«أرسلني إليك من الغد رجلٌ مكسور. أخبرني بكل شيء عنك وعن قططك لكنه ما أخبرني شيئًا عن أمّي. يقول لك أبحِر إلى فَيلَكا وخُذ ولدك قبل أن يسقط في التنّور بعد تسعة شهور.. وعِش معه كما يعيش الرّجال يا حِمار..».

بُهِتَ خَليفُوْه وتلكأ غايب قبل أن يستطرد:

«العفو يُبَه.. سامحني.. بُلِّغت ممّن أرسلني أن أقول لك هذا.. خُذ ولدك قبل أن يسقط في التنّور..».

أشار غايب إلى وجهه المشوّه واستطرد:

«..جئت أريك فعلَ التنّور يا يُبَه وأسألك. لماذا أنجبتني؟ ولماذا تركتني؟».

تشاغل خَليفُوْه بمداعبة بطن إلينور المستلقية على ظهرها، وما رفع بصرَه وهو يقول:

«نعَتني الناس على ما أرادوا من أوصاف، وعشت طول عمري أتحاش من نعتٍ يلاحقني أينما رُحت.. تركتك للعاقر وزوجها كيلا يسموك ابن البَرنْتَى. كن غايب بن عبدالعزيز الهذار.. كن ابن كلب أو ابن حمار. كن أي شيء إلا أن يلاحقك اسمٌ مثل تفلةٍ في وجهك كلّما ناداك أحد..».

كزّ خَليفُوْه على أسنانه وبرزت عيناه قبل أن يستطرد دونما التفات إلى ولده:

«..أنا نجّيتك يا ولد».

مال غايب بصدره إلى الأمام، يُحملقُ من وراء العدستين

السّوداوين إلى وجه أبيه المتشاغل بالقِطّة:

«نجّيتني.. فصرتُ بالوهم ولد البطل، ولد شهيد حرب الجهراء الذي انحاش من الحرب ومات مبتلعًا لسانه».

«ما انحاش الهذّار من الحرب لكنه خاف أن يموت على ذنب كذبته الكبيرة».

سرح غايب مع كلمات أبيه قبل أن يقول:

«عشت مع ذكراه عُمرًا لكني ما عشت معه ساعة. وعشت ابن أمينة، امرأةٍ ماتت بعدما وُلدت بشهور.. عشت في بيت زَمْزَم، وسقطتُ في تَنّور زَمْزَم، ونبذني النّاس وصدُّوا عن رؤية وجهي المحروق، ونعتوني بأقبح الأسماء، بُوْدَرياهْ، مثلك تمامًا يا بَرَنْتَى.. قُل لي بربِّك مِمّ نجّيتني؟ لِمَ رميتني رميَ الجرو للآخرين.. يُبَه».

ما رفع خَليفُوْهْ عينيه عن بطن قِطّته:

«حتى لا تكون ابن البَرَنْتَى و..».

قاطعه ولده:

«أنا لا أريدك أصلًا.. أنت صغير يا يُبَهْ وما خبزت الدنيا مثل ولدك.. لكني أسألك.. تتركني؟!».

رفعَ أبو القطاوةِ عينيه وحدّق في انعكاسِه على نظّارة ولده السّوداء:

«حتى لا تكون ابن البَرَنْتَى والقحـــ..».

زمّ خَليفُوْهْ شفتيه على آخر حرفَين. وبهتَ بُوْدَرياهْ وتطارش وأنكر

في نفسِه تخمينه للحرفين النّاقصَين. ما عبر التّبّة إلا أملًا في أن يتعرّف أمّه، وأن يلتقي أباهُ رُبّما يلفاه بحالٍ غير ما وصفته الأسفار، لكنه ألفاهُ على ما كتب بوحَدَب من صفات الرّخاوة. بالكاد ابتلع حقيقة أبيه، فغصّ بحقيقةِ أمّه.

قال له أبو القطاوةِ إنه ولده من فردوس، واحدة من بنات حمدية القوّادة ساكنة الزّميلة، حلقت شعرها الأسود الغزير وغدت قرعاء لئلّا يضاجعها رجل. وشدّد على كلماته:

«..سألتك بالله.. هذا وأنت جئت من الغد.. عشت ما عشت، وشفت ما شفت.. سألتك برب الكعبة ما دمت عرفت الآن.. كيف تريد حياتك؟ على ما عشت في بيت الطّلحة في حضن زَمزَم عمّة الهذّار؟ أم في بيت القطاوَة في حضن أبيك البَرَنْتَى وأمك العاهر؟ يُعايرك النّاس ويتبرأ منك أبناء «الخوّاص» ويدفعونك إلى إخفاء لقبِ أهلك.. سألتك بالله أن تنطق.. رُدّ علي فأذهبُ إلى الجزيرة في الحال وأرجعك إليّ رضيعًا، وأجيء بفردوس من بيت حمدية وأتزوجها ونربيك في هذا البيت بدلَ تربية القِطَط.. أُنجّيك من تنّور زَمزَم شرط أن تقبل بالبَرَنْتَى والعاهرة، أبيك وأمك، فماذا تقول؟».

وما قال غايب شيئًا حينما شمّ في ذاكرته ضَوع ماء الورد، وتراءت في خيالِه أم الخير زَمزَم، تتربّعُ تحت طلحتها مُطرِقةً على قصبةِ النّارجيلةِ كأنما تنفخُ في النّاي، والجراد يحطّ على رأسها وكتفيها. ترفعُ رأسها وتنظر إليه مُخزِّرة عينيها عتبًا على لحظاتٍ فكّر فيها قبل أن يُجيب. *كانت الأم والأب*. فلم يُجب. *كانت الجزيرة*. تنهّد خَليفُوْهْ وتغضّب ابتسامة:

«إن اخترت زَمْزَم فقد اخترت بلاء وجهك، وإن اخترتنا أنا وفردوس فقد اخترت بلاء روحك.. ها؟ أي الحياتين تريد يا ولدي؟..».

وغايب غارق في صمته، وأبوه لا يسكت:

«..أو لعلّك تبقى معي كبيرًا.. ننسى أمر الرّضيع في الجزيرة.. وتمضي أنت ما بقي لك من عمرٍ هُنا.. وتُخلِّصني من احتضان طفل وأنا أخاف الأطفال ولا أُدانيهم..».

وما ردّ غايب وكفّةُ زَمْزَم في ميزان أيامه ترجحُ على كفّة البَرَنْعَى والعاهر، لكنّه يُفكِّر. ولمّا طالَ تفكيره بغير إجابةٍ سأله خَليفُوْه:

«..أيُّ زمانٍ جاء بك؟».

«زمانٌ يصير فيه عُمرك يا يُبَهْ ثمانية وتسعين».

«ومن أرسلك؟».

«رجلٌ عمره يا يُبَهْ ثمانية وتسعون».

تدحرجت حدقتا خَليفُوْه يمينًا ويسارًا، واحمرّ أنفهُ وتخضّلت عيناه، فقال قبل أن يزُمّ شفتيه المرتعشتين عن البكاء:

«كيف يبدو؟».

«في صحة جيدة يحسده عليها الشاب، شعره كثيف لكن أشيب، وحاجباه العريضان في سواد الليل».

تحشرج صوتُ الأملط وتردّد في حنجرته:

«قالت أم صَنْقُوْر فجر التَبّة إني أعيش الدّهر، فينبت في رأسي

الشعر.. قالت إني لا أموت أبدا ما لم أُسلّم النّعلَين إلى صاحبهما الحافي لمّا يرجع.. صدقتِ والله يا صاجّة..».

بكى أبو القطاوَة:

«..ما كذبتي».

***

صيف 1990

(58)

كسوفٌ إلا قليل

«ولو وقعَت في أيديهم.. تخيّل!»

سِفر التّبّة: 37

وبعد عودتهما من مكتبةِ الزُّوَيِّح قبل عشرة أيام، ما وجد آدم وسليمان رقمًا للمؤلف في دليل الهاتف، بعدما أهرأا صفحات حرف الصّاد بحثًا عن بوخدَب. وفي صباح اليوم التالي لزيارة المكتبة هاتَف آدم دليل الاستعلام الصّوتي 101، وكان رقم المؤلف بطلبٍ منه سِرّيًا وفق ما أجابت موظفة الاستعلام. فعادا إلى المكتبة القديمة في السّوق الدّاخلي بعدما أقلّا صَتقُورًا إلى القرية التّراثية. يرجوان أن لا تكون المكتبةُ على ما قال المكتبيُّ قبل يوم: مُغلقة. لكنها كانت.

حبسَ سليمان نفْسه منذ ذلك اليوم في بيت المُصَوْقَر. لا يخرج إلا للصلاة في مسجد الخصيمي عند ناصية الشّارع. ومضَت أيامه العشرة في البيت بطيئة رتيبة. يخنقه الخروج نهارًا، والسّماء صخوٌ رمادية والشّمس لا تُشبه الشّمس. هي للبدر أقرب غير أن البدر في سماء اللّيل أسطع. والمارّة وسائقو السّيارات في الشّارع والمصلون في المسجد، لا يسأل فيهم أحدٌ أحدًا: ما بالها الشّمس؟ وولد شايعة لا يدري كيف يألف النّاس شمسًا كهذه، لا وهج ولا دفء، ولِمَ أكثرهم يرتدي النّظارات السّود تحت شمسٍ تُشرق آفلة، مثلما تغرُب على وعدِ شروقٍ يُشبه الأفول.

عاد ولد شايعة اليوم من المسجد بعد صلاة الجمعة، وما رافق آدم وصَنقُورًا إلى القرية التُّراثية. وجلس في الصّالون يحسب الأيام المتبقية لديه قبل ولادة هلال الشّهر الجديد. وأحصى على أصابعه تسعة أيام يقضيها في ديرة اليوم، قبل عبور التّبّة ثانية إلى أمس. تسعة أيامٍ يبحث فيها عن الحقيقةِ في كتابٍ ما زال يُكتب. ومكث يتحقّق بين حين وحين من صندوق البريد الخشبي على سور البيت، لعلّ رسالةً مرجوّةً وردته من كاتب الأسفار.

***

بحث وآدم في الأيام الماضية عن وسيلة وصولٍ أخرى إلى المؤلف. فتفحّص آدم أوراق أحد الكتابين وقرأ عنوان المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب. فأقلّا صَنقُورًا إلى القرية التُّراثية صُبح الأربعاء، وقطعا شارع الخليج العربي من «قِبلة» إلى «شرق» والبحر عن يسارهما حتى حاذت الـ «فِيات» قصر السّيف، وتعلّقت عينا سليمان بعبارةٍ قديمةٍ نَقَشها الشّيخ سالم بن صُباح أعلى بوابته الرّئيسة: «لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك»، فكبر في نفسه بعد سبعةِ عقودٍ قدرُ الشّيخ سالم أكثر.

وتاها في أروقة مبنى المركز الوطني شرق العاصمة، المبنى الجديد الذي افتتح قبل أيام. وقاد آدم سليمان يسأل في المكاتب المطلّة على الممرات، بين موظفٍ يُحيل إلى آخر، وآخر لا يعرف من يكون صادق بوحدَب، فيُحيلهما إلى آخر. وآدم لا يكفُّ يأمرُ سليمان أن يترُك مسافة بينهما، لأنه لا يُريد لأحدٍ أن يراه يمشي رفقةَ شخصٍ حافي القدمين.

وولد شايعة يمشي وراء صاحِبِه على مبعدة أمتار. يتفحّص أروقة المبنى الكبير الذي لا يشبه أي مبنى عرفه في الدّيرة، لا يُشبه بيتًا ولا قصرًا ولا مشفى ولا سفينة. يتلفّت بين رسومات الزّيت والأكريليك على جدران الممرّات، يُبصر فيها قوافل جِمال تجوب الصّحراء، وبحّارة وشفُنًا خشبية وأشرعة بيضاء، ونساءً مُجلّلات بالعباءات على السّيف وفي السّكك بين بيوت الطّين القديمة، مثل غربان الدّوري فيتذكّر؛ لا غربان في الدّيرة.. لا غربان إلا قليل.

وتقطع الممرّات أمامه الموظفات السّافرات بألبستهنّ الغريبة، فيمسّه حنينٌ مُباغتٌ إلى ماضٍ قريبٍ بعيد، ماضٍ تركه وراءه على سِيف الوَطية فجر التّبّة، قبل أحد عشر يومًا مقدارها سبعون سنة.

ودخل سليمان المصعد مرّة أولى أخيرة، فانتابته ضِيقة خُنّ السّنبوك، وأصابته نوبة هلعٍ أخرجته في الطّابق الثّاني يمشي على أربع. وأقسم لـ آدم ألا يطأ عتبة ذلك الشّيء الذي يشبه القبر مرّة أخرى. وصعد وصاحبه السّلالم في استئناف مهمة البحث. وبلغ الاثنان أخيرًا طابق إدارة المطبوعات والنشر، فأحالهما السكرتير إلى إدارة الثقافة في طابق آخر. وأحالهما الموظف تلو الموظف إلى مكتب موظفٍ مسؤول، وما كان المسؤول موجودًا في مكتبه في باكر الصّباح، ولا في منتصف ساعات العمل، ولا في آخرها.

قفلا خائبين إلى كيفان، وحلّت عطلة نهاية الأسبوع وسليمان يضيق بالشّمس الواهنة في الدّيرة الكئيبة. يرجو الله من ظلمةِ روحه فرجًا ومن همّه مخرجًا. واستأنفا بحثهما بعد العطلة في المركز الوطني. ووجدا أخيرًا المسؤول الذي ترفّق بهما أوّل أيام الأسبوع ومكث في مكتبه. لكنه اعتذر لهما بعد نظرة ريبة لِقَدَمي

سليمان المُغبَرّتَين. قال إن سياسة المركز الوطني تمنع تمرير أرقام الكُتّاب والفنانين إلى العامة، ونصحهما بالسُّؤال عنه في رابطة الأدباء. فانطلقا بالـ «فِيات» إلى مقر الرّابطة في «العديلية»، مبنى متوسط الحجم شديد التّواضع قياسًا بمبنى المركز الوطني ذي الطوابق والدّهاليز. وسارا في ممرّ مرصوفٍ في حديقة الرّابطة يؤدي إلى المدخل الرئيس، وعبرا الممرّ بين يابس الزّرع، غير أنهما وجدا الباب الزُّجاجي مغلقًا فترة الظهيرة.

«نرجع في المساء.. هُنا نجد صاحبك».

قال آدم، واستحسن سليمان الرأي فرارًا من الشّمس الغريبة إلى ليل الدّيرة. وانطلقت بهما السيّارة، يُنصتان إلى الشّيخ عمران في شريط الكاسيت، يحكي عن اعترافات الأسرى الشّوفييت، وكيف استسلموا للمجاهدين الأفغان حينما شاهدوا رجالًا مجهولين يرتدون البياض، ويمتطون خيولًا بيضاء سريعة كالبرق، ما إن تمر خاطفة على جندي سوفييتي حتى تصرعه في الحال. وما يدري سليمان ما الشّوفييت وما الأفغان لكن تسحره مشاركة الملائكة والشّياطين في معركة. وإلى جواره آدم يقود السيّارة برأسِه المكويّ خاشعًا مع صوت عمران آل كريم عين، كأنما يُنصت إلى تلاوة قرآنية.

ووصلا إلى بيت المُصَوْقَر في كيفان.. لو كانا يدريان أن كاتب الأسفار يسكن «الفيحاء» على مبعدة شارع عن «العديلية»! *أو لو أني أذهب إليهما حيث يُقيمان*. ماذا لو ذهب إليهما الكاتب؟ *وأختصر كل هذا الانتظار*. لكنه ذهبَ إلى بيت المُصَوْقَر ليلة يوم العزاء وأنكر آدم وجودهما. *صَنقُور موجودٌ ودلالة وجوده كولمن الكويتي الذي أظهرته الجرائد*. لكن سليمان.. *من يُثبت وجوده خارج الأسفار؟*

والشّايب ما انفكّ يُشدّد على النبوءة؛ *إن أقبلتَ عليه أدبر.*

وتوجها إلى العديلية ثانية بعد صلاة المغرب، وقطعا الممرّ عن يمين المدخل يقرأان اللافتات المعلّقة عند باب كل حُجرة. فتوقّف آدم أمام باب سكرتارية الرّابطة، وطأطأ ينظرُ إلى قدَمَي سليمان قبل أن يطلب منه الانتظار عند الباب ريثما يخرج. وتعذّر السكرتير لآدم بأن الأستاذ بوحدَب لا يسمح بتداول أرقام هواتفه. ولمّا ألحّ عليه آدم أحاله السكرتير إلى أمين عام رابطة الأدباء في حُجرةِ آخر الممر. خرج آدم من مبنى الرابطة وأوصل سليمان إلى السيارة وأمره بالانتظار، مُتعذّرًا بأنه من غير المناسب دخوله على رئيس هذا المكان بقدميه الحافيتَين.

عاد آدم إلى مبنى الرّابطة وقطع الممرّ مُقابل غرفة السكرتارية. وتناهى إليه صوت رجلٍ وامرأةٍ في غرفةِ آخر الممر. فمكث طويلًا على باب الأمين العام، ينتظرُ خروج امرأةٍ مسترسلة في حديثٍ صارم. وما كفّ آدم يتنحنح ويحرّك ميدالية مفاتيحه يُنبّه إلى وجوده، والمرأة تواصل حديثها منفعلة:

«..هذا ثالث معرض فني يتم إغلاقه وأنتم صامتون يا أبا غسّان.. مُنعت رواية وليد الرجيب السنة الماضية وأُحيل إلى التحقيق.. ورواية بوحدَب تُمنع وتُتلف هذه السنة، والرابطة لا تقول أي شيء!».

أنصت آدم إلى حوارهما حينما مرّ اسم بوحدَب في حديث الغرفة. والأمين العام يُجيب المرأة بصوتٍ هادئٍ حازم:

«أنتِ كاتبة وفنانة تشكيلية وتدرين أن الرّقابة، في الجرائد الخمس، منعت بيانًا مشتركًا بين رابطة الأدباء وجمعية الفنون

التشكيلية.. وتدرين أن قوانين جمعيات النفع العام تحظر الخوض في السياسة و..».

قاطعته المرأة:

«أوكي أوكي أدري.. لكن ما شأن السياسة هنا؟ على الرّابطة أن تُقيم ندوة احتجاجية على الأقل!».

تأفف آدم عند الباب ضيقًا بطول الحوار، يؤذيه صوت المرأة البيعارية المرتفع، فسعلَ وطرق الباب ودخل الغرفة يُلقي السّلام. وحملق الرّجل والمرأة إلى الضّيفِ ذي الدّشداشَة القصيرة واللّحية وعود السّواك.

«تفضل».

بادره الأمين العام من وراء مكتبه بعد ردّ التّحية، فاعتذر آدم على مقاطعتهما، وقال إنه يبحث عن الروائي صادق بوحدَب، وإنه وصاحبه جاءا يسألان عن عنوانه أو رقم هاتفه. خطفَ الأمين نظرة تُضمر قولًا للمرأة الجالسة أمامه، فسألت المرأة آدم مقطّبة جبينها:

«صاحبك؟».

لم ينظر آدم إليها وهو يُشير صوبَ الباب. «ينتظرني في السيارة». وأردف أنه في الحقيقة لا يقرأ الكتب، لكن صاحبه قرأ كتابين من كتب بوحدَب، وأنه يُريد الجزء الثالث قبل أن يُسافر في رحلةٍ طويلة. فتنبّهت المرأة إلى أثر الكيّ في رأسه، وسألته:

«من صاحبك؟».

وبعدما أجابها آدم قالت قاطعة إن بوحدَب ليس عضوًا في رابطة

الأدباء، وإن ليس لدى الرّابطة إلا عنوانه البريدي إن كان هذا يهمه. ومسّد الأمين شاربه الدّقيق وهو يُنقّل بصره بين المرأة وآدم. فأخرجت المرأة من حقيبتها دفترًا انتزعت منه ورقة، مدّتها إلى آدم بعدما سجّلت:

ص.ب: 0193201 الصفاة – الرمز البريدي 0939310 – الكويت.

وانصرف آدم. فسأل الأمين العام المرأة:

«لماذا قُلتِ له إن بوحدَب ليس عضوًا في الرابطة؟ ولماذا أعطيتِه رقم صندوق البريد؟».

***

أسندت قلمي إلى الأوراق عند هذا الحد قبل أيام. منذ السّبت الذي زارا فيه رابطة الأدباء. لا أعرف إجابة لسؤال الأمين العام على ما كتبت. أنتظر مثل المجنون رسالة لن تجيء. رسالة أرسلَتها شخصية خيالية في يوم نهائي المونديال وفق ما يقول الشّايب، أي قبل خمسة أيام. وبريد كيفان يبعُد عن بريد الفيحاء مسافة شارعين! أي رسالةٍ أحدس أنها قد تجيء؟ وممن؟ وإن حاولت الإنكار تذكرت مشاكل تأخر البريد في صفحة الشكاوى في الجريدة، وقلت في نفسي: أغدًا تجيء؟

ولا أدري من تكون المرأة في مكتب الأمين العام، غير أني أظنها ثُريّا البقصمي أو فياصل المشيعل. كلتاهما فنانة تشكيلية وكاتبة، لكني أجهل تمامًا إلى أين يقودني الرّكض في كتابة نصّ لا أعرف منتهاه. الأكيد أن رسالة لن تصلني من سليمان، بعدما تحصّل آدم

على رقم صندوق البريد في ما كتبت. لأن سليمان غير موجود. والشّايب لا يكفّ عن اتصالاته يدفعني إلى الكتابة قبل انقضاء الوقت. يمدُّني بأحداثٍ أكتبها بشغف قارئ يُريد معرفة إلى أين يؤدي كلُّ هذا. ولمّا سألته من تكون المرأة التي كانت في مكتب أمين عام رابطة الأدباء أجابني بأن صولجان المعرفة لا يمنح إجابات متاحة. وأقفل الخط بعدما أفضى إليّ بمصير فضّة بنت عبدالرحمن وقماشة ومسألة زواجها بـ بن حامد. أطبقت السماعة ووقفت أمام المرآة أحدق إلى وجهي، ووجيب قلبي يتسارع مع الأفكار الخاطفة في رأسي. أنتَ لست هُنا. أنتَ في مكانٍ آخر وإن بدوت للنّاس موجودًا. هذه الكتابة سوف تفقدك عقلك يا بوحدَب. أنت موجود. سليمان غير موجود. وهذه لعبة ارتضيتها منذ البداية، وسوف تمضي في كتابتها حتى النهاية. اطمئن أيها الكاتب الذي ابتلعته الكتابة. سوف يعود إليك عقلك. امضِ في الكتابة وحسب، فكل هذا سوف ينتهي.

ما ذهبت إلى المكتب في الأيام الماضية، وكررت زيارة قسم بريد الفيحاء. الكل يسأل عن قسم الشكاوى، الكل يشتكي من التأخير. أما أنا فذهبت إلى الموظفة مباشرة، وبطبيعة الحال لم يرِدني ظرفُ مُرسلٍ من خيال. وعرّجت على مُقسّم الاتصالات ورفعت السّرية عن رقم هاتفي في دليل الاستعلام الصّوتي 101. فانهالت عليّ الاتصالات، مَن يسأل عن نسخ من السّفرين الممنوعين «العباءة» و«التَبّة»، ومن يشتم ويهدد ويتوعد ويُقفل الخط.

حرّرتُ اليوم تفاصيل الفصل التّاسع والخمسين قبل صلاة الجمعة. كتبت عن فضّة وبِن حامد في فصلٍ أسميته «رنين الأساور». وبعد عودتي من الصّلاة في مسجد بعيدٍ ما استطعت كتابة حرف، ولا

أنا قادر على القراءة. والتلفزيون يبث في الحين فيلمًا هنديًا يبدو أنه لن ينتهي. هاتفت سكرتارية الرابطة أكثر من مرة وما رد على اتصالاتي أحد. فانتبهت إلى أن اليوم جمعة والرابطة مغلقة. فاتصلت بالسكرتير على هاتف شقته. اعتذرت على اتصالي في وقت غير مناسب متحجّجًا بالسؤال عن روايةٍ مُرسلة من سوريا، «الولّاعة» لـ حنّا مينه، وقلت للسكرتير إن حنّا أخبرني بأنه أرسلها إلى عنوان الرابطة منذ مُدّة، وأنا أنتظر وصولها، فأجاب السكرتير لو أن لي طردًا لسارع بمهاتفتي. وقبل أن أنهي المكالمة ألقيت بسؤالي:

«ألم يسأل عني أحد؟».

ضحك السكرتير وهو يقول إن عددًا من القراء يتصل ويزور رابطة الأدباء يسأل عن «سِفر العباءة» و«سِفر التّبّة» بعد المنع. شكرته فاستمهلني قبل أن ننهي المكالمة، وأخبرني عن شخصٍ سأل عن رقم هاتفي قبل أربعة أو خمسة أيام، لكنه رفضَ تزويده بالرقم، فحصل الشّخص على رقم صندوق البريد من الأمين العام. تلقفت كلماته فسألت:

«شخص؟ أم اثنان؟».

فأجاب مستغربًا:

«لا.. هو شاب واحد.. بدين ملتحٍ أسمر.. لم يكن معه أحد».

«مكويٌ على رأسِه؟».

«ماذا؟».

ما أغباني! تداركت وأسرعت بتصحيح السؤال:

«ما اسمه؟».

«لم أسأله».

«من رآه غيرك؟».

صمت السكرتير قليلًا. شعرت بالحرج وقد أخذت المكالمة طابع التحقيق. أجاب بأن الشاب قابل الأمين العام، وأن أحدًا غير الأمين كان في الغرفة لكنه لا يتذكر من.

«ثُريًا البقصمي؟».

«الأستاذة ثُريًا لم تزر الرابطة منذ مدة.. لكنها بالفعل كانت امرأة، ربما الأستاذة نجمة إدريس أو الأستاذة ليلى العثمان، المعذرة لا أتذكر، أو ربما الأستاذة جنّة القريني.. أو..».

«فيا صل؟».

سألته متجاوزًا الأسماء التي ذكرها، فأجاب كمن أحرز هدفًا:

«بالضبط بالضبط.. أي والله صحيح.. الأستاذة فيا صل المشيعل كانت هنا وقتها».

شكرته وأنهيت المكالمة وما انتهى الفيلم الهندي أمامي على التلفزيون. وطمأنت نفسي بأن سليمان غير موجود خارج هذه الأوراق بعدما أنكر سكرتير الرابطة رؤيته. فهاتفت فيا صل لكنها لم ترد. وهاتفت الشايب بعدها أخبره بما قال سكرتير الرابطة عن زيارة آدم من دون سليمان الذي بدا واضحًا أنه شخصية غير موجودة صَنَعها من خياله، فما أمهلني. قاطعني ومواء قِط يرتفع وراء صوته في السّماعة: إِكتب.. إنه في هذا اليوم.. بعد صلاة الجمعة في

مسجد الخصيمي:

***

صعد سليمان إلى حيث يُقيم في حُجرة جمال في الطّابق العلوي. وصَنقُور وآدم على دأبهما، يتسكّعان بعد صلاة الجمعة في السّوق القديم قبل أن تفتح القرية التّراثية أبوابها للزوّار. ظلّ يُقلّب صفحات السّفرَين الأوّل والثّاني. يُفتّش فيهما عن نبوءات الصاخّة المنثورة في الكتابَين. ويُفكّر فيما أصاب منها وما خاب وما لم يتحقّق بعد. وقرأ من النّبوءات ما يُفهم في حينه وما لا يُفهم وما يُفهم بعد حين. وتوقّف عند أحد السّطور في «سِفر العباءة» يُعيد قراءته، يوجِد لغرابة الشّمس تعليلًا غير ما ظنّه خرافة من خرافات أم حدَب. أيكفُر بالخرافة وقد عبر التّبّة وشهد كلّ ما شهد؟ فقلّب صفحات «سِفر التّبّة» حتى أدرك في الصّفحة (40) عِبارةً أم حدَب ذات الصّفات الأربع التي صفعته قبل أيام في فصل «نبوءات أم حدَب». قرأ السطرين مرّة أخرى بعد مرّات سابقة، وهو يدري منذ قرأ في المرّة الأولى أن عجوز المرقاب صادقة فيما وصَفَت. ما كان ينبغي أن يكرهها بسبب ما قالت وهي محقّة. فهِمَ نفسه في لحظةِ القراءةِ، وكأنما بعبوره التّبّة وقراءة الكتابين قد غمّرَ فوق عمره سبعين حولًا.. ففكّر في إيمانه، وصار رجلًا، وخبِر الدّنيا، فكبَرَ وعَقَل.

وظلّ يُقلّب الصّفحات ضائق الصّدر، كارهًا ذاته مُقِرًا بالهزيمة. يُفكّر لو ما زال في الوقتِ وقت، فيُصلح ما يمكن إصلاحه. تمدّد به الوقت وهو شارد الذّهن، حتى ارتفع أذان العصر من مئذنة المسجد القريب. وتأفّف عوضَ أن يردّد الأذكار مع صوت المؤذن، فاستغفر وهو يتخيّل الطّريق القصير إلى المسجد، كيف يمتدّ به طويلًا تحت

هذي المُسمّاة زورًا بالشّمس. قدّر موضع قِبلة الصّلاة بين وجهات الحُجرة، ونهض رافعًا كفّيه يُكبّر، عازمًا لأول مرّة منذ وصوله أن يُصلّيَ في حُجرته في بيت المُصوقّر عِوَض المسجد القريب. لكن الفاتنة السّوداء، غلوريا هِندري، شبه العارية في صورة الجدار موضع القِبلةِ حملقت إليه بنظرتها المتأملة، فالتقط العدد القديم من مجلّة «العربي» الذي ابتاعه له آدم من مكتبة الزُوَيِّح، واقتطع صورة الغلاف ذات الملامح التي تُشبه الفتاة التي ما خافَ اللهَ فيها، وألصق الصورة فوق وجه هِندري وهو يتفحّص ملامح الفتاة بزينة عرسها ويقرأ عنوان العدد: «عروس الكويت»، وفي دخيلتِه يشتُمُ نفسه على تخليه، فاستغفر وأدار للقِبلة ظهره ونزل يُصلّي في صالون الجلوس.

أطلّ بعد الصّلاة على طاولة البيبي فوت. يُمرِّر نظره بين أكتاف اللاعبين مجزوزي الرؤوس. وأخرج الكُرة من مرماها ودحرجها بين أقدامهم، وأدار المقابض مثلما يفعل آدم وصَنقُور. وما سدّدَ هدفًا ولا أفلح بلمس الكرة. *لا رؤوس لكم!* ففتح التلفزيون وقد بدأ سحره يخبو في عينيه بعدما ألِفه لأيام. وهو الذي في أوّل أيامه بعد التّبّةِ يردُّ السّلام على مذيعي الأخبار إذا ما استهلّوا النشرة: السّيدات والسّادة، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويُطأطئ خجلًا أمام مذيعات البرامج السّافرات المُحملقات إلى عينيه بلا حياء. وبثّ التلفزيون بعد صلاة العصر فيلمًا هنديًا شأن كُلّ جمعة. والتهمَ أميتاب باتشان من نهار الفتى ثلاث ساعاتٍ يلاحق فيها ترجمة الرّطانة الخاطفة أسفل الشاشة، وقفزات باتشان وغضبه وبكاءه وأغنياته تحت انهمار المطر. وبانتهاء الفيلم ارتفع أذان المغرب، فصلّى سليمان في مسجد الخصيمي مع أفول الشّمس، ومكث يقرأ

القُرآن في المسجد حتى صلاة العِشاء. وعاد يتحقّق من صندوق البريد على سور البيت، وما وصله من المؤلف ردٌ على رسالةٍ ممهورةٍ باسمه واسم صَنْقُور. رسالة كتبها بخطّه قبل خمسة أيام. والرسالة ما زالت في دورتها البريدية المتأخرة ما بلغت صندوق بريد كاتب الأسفار في قِسم بريد الفيحاء. ومكث سليمان في حُجرة الجلوس أمام التلفزيون. وشدّه في الجهاز صوتٌ مألوف. وإذ بـ صَنْقُور في إستديو القرية الثراثية يجلس أمام مذيعة مكتنزة الخدين، تنفرج شفتاها فاقعتا الحُمرةِ عن ابتسامةٍ واسعة، تسأله بعد فراغه من أداء أغنية شعبية وهو يرتدي القميص الأحمر والجينز، يُطبِق زرّ الياقة لئلّا ينكشف شعر صدره:

«ما هي أمنياتك؟».

فيعتدل ابن خادمة المقام في جلسته، ويتنحنح قبل أن يُجيب مُطرقًا مثل رجلٍ في حضرةِ الحاكم:

«والله أتمنى أن الأمير الله يطوّل بعمره يشوف لنا موضوع عيّاد.. لأن شركة الحراسة يا طويل العمر ما دفعت له معاشاته من زمان».

توترت المذيعة وانفلتت منها ضحكة مرتبكة ونظرات نقّلتها بين طاقم التصوير والمخرج، وسألته من يكون عيّاد. فأشار صَنْقُور بكفه ناحية مدخل القرية الجانبي:

«الحارس».

تورّد وجه المذيعة ووارت ضحكتها بابتسامة وهي تنظر إلى الكاميرا:

«وهذا نداء عاجل من الطفل المعجزة، كولمن الكويتي، إلى شركة الحراسة بأن تصرف ما تأخر من رواتب عيّاد..».

أطرقت تقاوم ضحكتها، فواصلت نظراتها السريعة إلى الطاقم وراء الكاميرا:

«..والآن ننتقل مع الزميل سعد الخلف في لقاءات مع رواد قرية يوم البحّار التراثية».

وغفلَ مهندس الصّوت عن قطع ميكروفون المذيعة التي اختفت صورتها في بثّ مشاهد للعائلات والأطفال في القرية التّراثية، لكن صوتها تسرّب على الهواء ضاحكًا بين مشاهد ألعاب القرية:

«تقولون عمره عشر سنين؟! والله لا أصدق.. الولد فيه جِنّي ورب الكعبة! كاد أن يورطنا مع الحكومة».

وبينما تنقّلت كاميرا التلفزيون إلى لقاءات سريعة مع زوّار القرية، والمدعو كولمن في خلفية المشاهد يتقافز مثل الأهبل بين الأطفال، كان سليمان وكاتبُ سليمان قد نفد صبرهما، يشاهدان التلفزيون كلٌّ في بيت، في كيفان والفيحاء. أطفأ الأول التلفزيون وخرج إلى الحَوْش ينتظر عودة الـ «فِيات». وأمسك الثّاني بسمّاعة الهاتف يُجري اتصالًا.

ومكث ولد سهيل في الحَوْش ساعة، يجلس على الأرض يضمُّ ساقيه إلى صدرِه، ويُرسل نظره إلى السّماء المنثورة بالنُّجوم، يتذكّر جلسات السّنبُوك في اللّيل يُنادمه شيخُ البحّارة سَنَد، *لكن أين سَنَد؟* ويسرحُ الفتى بخياله في سماء اللّيل ويستعيد صراخ البحّارة في اللّيلة المشؤومة، وهو مُقيّد إلى دَقل «الحامِدي»، يضجُّ في رأسه

صراخ فضّة؛ اِلحق علي يا سليمان! فيقطع هديرُ سيارةٍ وراء السُور صوتَ فضّة في خياله.

وما كاد آدم يوقف الـ «فِيات» إلى جوار الـ «كورفِت» والـ «كَمارو» على الرصيف عند سور البيت؛ حتى ركض إليهما سليمان طائش الصّواب خارجًا من الحوش. فَتح باب السائق قبل أن يفتحه آدم الجالس وراء المقود. وصَنقُور إلى جوار حفيد ابن أخيه، ولا يفهم الاثنان سببًا لثورة سليمان الذي راح يصيح عليهما:

«يكفي إلى هذا الحدا..».

وما فهم راكِبا السيّارةِ عن أي حَدٍّ يتكلم الفتى الذي استطرد:

«..ما عندنا إلا تسعة أيام.. وأنا مللت وتعبت وأريد أن أعرف أين الرجل الذي كتب الكتابين وأين ثالثهما؟!..».

ارتبك صَنقُور خشية سماع الجيران صراخ الفتى الذي راح يضرب على غطاء السيارة:

«..أريد الوصول إلى هذا الرجل الآن!».

ورافسَ سليمان في الهواء مثل طفلٍ وآدم يُطوِّقه بذراعيه ويحمله على كرشه. وفي غرفة الجلوس أفلته وصاح عليه:

«احمد ربك يا حافي على ما أنت فيه!».

فصاح عليه سليمان:

«احمد ربي على ماذا؟ بيتكم بارد مثل شمسكم!».

وهدأه صَنقُور وقال له إن لا حيلة لديهم غير انتظار رد المؤلف

على الرسالة. ولَعلّع سليمان غاضبًا، يقول إنه ينتظر منذ خمسة أيام، وإن هلال الشّهر سوف يولد بعد تِسعة. وراح يضربُ صدره بقبضتِه دامع العينين كازًّا على أسنانه:

«أنا أضعث فضّة.. دمّرث بيتي ويتّمث ولدي خشية أن يقول الناس إني أنام مع أختي من الرّضاع.. بعت أهل بيتي واشتريث رضا الناس، الله يلعن الناس وكلام الناس فليقولوا ما يقولون أنا تعبت.. أنا صحوت.. أنا يجبُ أن أعود، لكني أريد لقاء هذا الكاتب قبل كل شيء».

فأمسك آدم بتلابيب سليمان وقرّب وجهَهُ إلى وجهِهِ حتى كاد يتلامس الأنفان. صاحَ عليه مُحمرّ العينين يتطاير الزّبد من شدقيه:

«لا توجع رأسي..».

فدفعه بعيدًا عنه. وجلسَ في رُكن الحشِيّةِ الأرضية. أخرج المطواة وقشّرَ سِواكه وهو يستغفر. فرمقَ سليمان وهو يُطيل النّظر إلى نصل المطواة:

«..أنا أريده أكثر منك».

فطعن بالمطواة الحشِيّة الأرضية.

***

كتبتُ على ضوء ما قال الشايب، وقبل انتهاء الفيلم الهندي الذي طالَ إلى ما يربو على الساعات الثلاث، رن هاتفي خلالها مرتين، الأولى من قارئة تسأل عن إمكانية الحصول على نسخ متاحة، والثانية من رجل بدا صوته بالغ الاحترام، عرف بنفسه بصفته رئيس

مجلس إدارة المجموعة الحامِدية للاستثمار، وشكرني على ذِكر جده في الرواية، ومازحني بأنه انزعج حينما وصفت جده بالقسوة مع البحارة في الجزء الأول، لكنه في نهاية الجزء الثاني سامحني على حد تعبيره، بعدما أنصفته بالإشارة إلى مشاركة السّنبوك «الحامدي» في معركة الجهراء. وأنهى المكالمة وأنا أفكر ماذا لو قرأ فِعل جدِّه بفضة في الجزء الثالث. لكن هذا الجزء يُكتب لغرض غير النشر على ما يبدو، وأنا لا أفكر في شيء إلا الكتابة عسى أن أفهم.

شاهدت الليلة برنامج المساء يُبث من قرية «يوم البحّار»، مثلما كتبث سلفًا، وفي بداية البرنامج ظهر من أسماه الناس كولمن الكويتي، وهو في صفحات أسفار الخيال صَنقُور. تسأله المذيعة «أمينة الشرّاح» ويجيبها عن كل شيء إلا شيئًا انتظرث سماعه. لم يبدُ على هذا الصبي ذي الصوت الطفولي أنه رجل توقف نموه، ولا يبدو أنه جاء من الماضي. بدا طفلًا، ولا أتخيل أن زرّ ياقته المطبَق يُخفي صدر رجل على ما كتبت، أو على ما يقول الشايب المخبول. تحدث كولمن الكويتي وغنى، وما قال أي شيءٍ يُلمح إلى عبور التّبّة أو وجود سليمان في الحقيقة. سمّى أقاربه في كيفان، جمال وعبدالناصر بعكس ما كتبث موتهما. وتحدث عن فَيلَكا اليوم كما لو أنه جاء منها فورًا يزور الأقرباء في الديرة.

أطفأت التلفزيون وقد استفزني الكائن الأهبل الفرِح وأنا في مصيبتي هذه. وعاودت الاتصال بـ فياصل. وأخبرتها بأنني عرفت من سكرتير الرابطة أن أحدًا سأل عني، وأن الأمين العام أعطاه رقم صندوق بريدي أثناء وجودها في المكتب.

«هذا صحيح، وبأمانة.. أنا من أعطاه رقم صندوق البريد.. كان

الرجل الأسود مريبًا مكويًا على رأسِه.. كان متوترًا ويبدو عليه الغضب.. قلت في نفسي إنه من الأفضل أن تعرف ما يريد من دون أن يعرف عنوان بيتك أو رقم تليفونك».

«العفو.. أنا لا أفهم».

«أوكي.. صادق.. أنا أول من عرف أسماء شخصيات أسفار مدينة الطين وقت قراءة المسودتين قبل نشرهما، ولا ترسل إليّ مسوّدة الجزء الثالث لأني لن أقرأ ولن أرسم.. سامحني.. بصراحة.. لم أُعِر الأمر اهتمامًا في البدء، خصوصًا أنك أكدت لي أن الشخصيات رغم تشابه بعض الأسماء لا علاقة لها بالواقع، ووعدتني بأنك سوف تذكر ذلك في أول صفحة من صفحات الرواية ولم تفعل.. استغربت الأمر خصوصًا بعد متابعة اعتراضات البعض واتهامك بالتشهير بأهلهم.. لا أدري.. يعني.. أوكي صادق، أنت لست في مصر لو ما زلت متأثرًا بها منذ أيام دراستك، أُفُق الناس هناك أوسع، ثم إن خمسين مليونًا هناك تتكرر فيهم أسماء العائلات والقصص ألف مرة ولا أحد ينتبه.. نحن في الدِّيرة بالكاد نُكمل نصف مليون يعرف أحدنا الآخر.. لا أدري ماذا أقول.. أنا أول من عارض المنع وأنت تدري، ولو لم تكن تدري فقد ذهبت إلى رابطة الأدباء من أجل إصدار بيان تنديد بقرار وزارة الإعلام، لكني وبصدق.. لا أفهم لماذا أسأت إلى كل أولئك الناس وفضحت خصوصياتهم من أجل روايةٍ تُحقق فيها مجدًا شخصيًا على حساب الآخرين؟..».

وكأني ما سمعت إدانتها، أدريها مندفعة لا تحسب حسابًا لكلمة. تجرحني بصراحتها على ما اعتدت، فتراضيني بعد أيام ببطاقةِ وردٍ واعتذار، لكن هجومها هذه المرّة غير مبرر. لزمت سكوتي وهي

تستطرد محتدة على طبعها:

«..ثم إن مسألة منع الرواية لا شأن لها بتنديدات خطب الجمعة بالمناسبة، ولا حتى ببيانات العائلات المعارضة في الصحف.. أمين الرابطة يقول إن أطرافًا أخرى حركت أولئك كي لا تتورط هي في قرار المنع».

«أطراف أخرى؟».

«نعم، أطراف لا تسمح لأحد أن يتحرّش بالتاريخ أو يعبث به، ولك في فيلم «بس يا بحر» عبرة.. صادق! هل نسيت الهجوم على المخرج خالد الصّديق والمؤلف عبدالرحمن الصالح بسبب تورطهم في صناعة الفيلم رغم كل الجوائز العالمية التي حصدها؟».

«هذا كلام قديم فياصل! مرّ عليه كم؟! ثماني عشرة سنة».

«لا شيء تغيّر..».

غارت عبارتها في نفسي ولم أرد. استطردَت إزاء سكوتي:

«..ثم إن كلامي ليس قديمًا وأنت تدري.. حُكِم على عبدالحسين عبدالرضا بالسجن قبل سبعة شهور بسبب دَورِهِ في مسرحية «هذا سيفُوُهْ» لأن كلامه لم يُعجب البعض».

«عبدالحسين لم يُسجن».

«لا تستغبي صادق! لم يُسجن بسبب امتناع المحكمة بعد الحُكم عن النطق بعقوبة الممثل الشهير.. لكنه سُجن معنويًا.. فالحُكم سجنُ ثلاثة شهور مع امتناع المحكمة عن نطق التنفيذ لكنه أُدين.. ولا تنسَ قبل حُكم المحكمةِ دعوةَ الخطيب عمران آل كريم عين إلى كل من

يرى الممثل سيِّئ الصِّيت إن يبصق في وجهه!».

هذا ليس مكاني! قلت في نفسي قبل أن أقول لها ويدي الممسكة بسمّاعة الهاتف ترتجف:

«لكنها رواية من خيال، لا تاريخ فيها إلا ما ذكره الرشيد في كتابه وما يعرفه كل الكويتيين، وكلانا يدري أن كتابه «تاريخ الكويت» يُباع في مكتبات الديرة والدولة لا تمانع.. فهل أحاكم مثلما يُحاكم شاربي الكحول والكولونيا ومدمني المخدّرات وشمّامي الـپاتِكس؟!».

«الكتاب يُباع في الديرة صحيح، لكن الدولة ما تحمست له ولا تبنت طباعته طبعة محلية، حتى بعدما صار للحكومة مطابعها الرسمية في الخمسينات.. أنت تدري أن الكتاب طُبع مرتين فقط منذ صدوره، وكلتاهما في الخارج، الأولى في بغداد في العشرينات والثانية في بيروت في الخمسينات.. يعني حتى تاريخك الذي تقول إنه لم يُمس في الرواية؛ هو تاريخ غير رسمي وغير معترف به.. أوكي؟».

ما جادلتها بقول أمين الرابطة، ولا نكشت موضوع رسمية التاريخ وأنا أشم الغبار في كلامها. ما عقبت على قولها كي لا أبتعد كثيرًا عمّا ساءني سماعه من صديقةٍ قديمةٍ ما اعتدت منها إلا الوقوف إلى جانبي في مشاكل النشر، لكن طاقة ورِد سوف ترِدني منها خلال أيام مع اعتذار أو اتصال أو ربما زيارة، غير أني لن أقبل الاعتذار هذه المرة:

«ولماذا تعتقدين أني أفضح خصوصيات الناس في ما كتبت؟».

«صادق.. الرجل الأسود البدين مكويُّ الرأس لم يكن وحده، قال إن صاحبه الذي يريد قراءة الجزء الثالث ينتظره في السيارة.. قال إن اسمه سليمان بن سهيل.. ربما يكون حفيد سليمان في روايتك».

«وربما يكون هو».

«لا تسخر مني صادق!».

«....».

«ألو».

«ألو.. وهل رأيتِه؟».

استدركتْ أوضح:

«أقصد سليمان».

«كيف أراه؟ قلت لك إن الشاب البدين قال إن صاحبه كان ينتظره في مواقف سيارات رابطة الأدباء».

***

خريف ١٩٢٠

(59)

رنينُ الأساور

«فضّة في كيس فحم»

وفي ليلةِ عقدِ قرانٍ ما تلاهُ زفاف، لا تدري ابنة عبدالرحمن وقماشة كيف تم، كان وكيلها المُلّا عبدالمحسن والشّاهدان اثنان من رجال بِن حامد؛ انزوت فضّة في الفراش، تُلملم أطرافها المرتعشة إلى صدرٍ نضبَ حليبُه. وأبصرت خيال بِن حامد وراء غلالةِ الفراشِ في ظلمة الحُجرة. خيال رجلٍ سمعت عنه مرات ومرات وما رأته مرة. ها هو أمامها في الظلمةِ ينزع الغترة والعقال والبِشت والدّشداشَة، ويُعلقها بمشجب الجدار. يُبسمل ويُحمدل. وهي تُطبق جفنيها وتستعيذ. وتدسّ كفّها تحت الوسادة إلى جوارها، ولا تجدُ سكّينًا رمتها قبل إحدى وثلاثين ليلة، وقتما حُمِلَ رضيعُها إلى بيت أم البنات ولم يعد. ساعةَ كذّبت أن الحديد يحد الشّر. والشّرُّ مُقبل، فتتحسّس ياقة وحاشية درّاعتها تبحث عن مشبك دبّوس، ولا تجد فيها ولا حولها شيئًا من حديد. *يا ربّ الحديد*. فتُسند جبينها إلى ركبتيها تستشعرُ حِسّه مُقبلًا. يقترب وقعُ خطوهِ على بساط الحصير ثقيلًا مثل أنفاسِه. يجلس إلى جوارها في الفراش يلهث، ويُطبق كفّه المتعرّقة على زندها الغضّ البضّ فتصرخ: اِلحق علي يا سليمان!

وتنهضُ من نومها تُرافِس التُوخِذا الذي تزوّجها في الكابوس، يوشك أن يُعاشرها كل ليلةٍ منذ أسبوعين. وتركض إلى السّراج المعلّق بالجدار، تُشعله، فتُبصر الفراش الجديد الذي أرسله بِن حامد مع الخزانة الخشبية الهندية. *لا أحد*. فتستكين روحها وتهدأ رعشة

أطرافها. وتتناهى إليها صرخات أُم السّعف واللّيف تُبشّر بعودة ولدها. يتردّد صداها بعد منتصف اللّيل في السّكّك فتسكت الجنادب. ما مات سليمان وهذي غترته. فتبتعد النداءات ويهمدُ صداها فتعاود الجنادب الصّرير.

وطِئها كابوس بِن حامد للّيلةِ الخامسة عشرة على التّوالي. مُذ زارتها شريفة، بُعيد زيارة كبيرة زوجات بِن حامد. حذّرتها الجارة من قبول الزّواج من التّوخِذا المُسِن المتزوّج سِتّ مرات، وفي ذمّتِه اليوم من الزّوجات ثلاث، وله من «العبدات» والأبناء والبنات ما لا يعده عدد. الشّيخ الغضوب جاسي القلب متخشّب الأطراف. حرامٌ على ذاك الجسد أن يمتصّ روحك النّدية، وحرامٌ على تلك اليدين العجفاوين أن تقطفا ثمارك يا فتاة.

وواصلت شريفة القول:

«أم حدَب قالت لي إن سليمان يرجع يا فضّة، يُكذّب خبر رضاعك معه ويلعن كلام الناس.. والله العظيم هذا ما قالته لي العجوز قبل رحيلها.. وأنتِ تدرين أنها تقول الحق، مثلما حذّرت من النّار التي شبّت في بيت أم البنات. قالت سوف يرجع رجلك.. لكن ماذا لو عاد وأنتِ على ذمة بِن حامد؟ ها؟ لقد تطهرتِ يا فضّة من النّفاس، وبعدما تتطهرين من حيضتك بعد ثلاثة أهِلّة سوف يعقد عليك الرّجل، والمُلّا وكيلك.. والله إن سليمان لو رجع ولقيك في بيت بِن حامد.. والله إنه يموت».

رمقت فضّة في وجه شريفة خليطَ محبةٍ وعطفٍ ما خبرته من قبل. *الحي يَقلِب*. وشريفة منذ غابت أُم حدَب وهجرت أُم

غايب الدّيرة إلى الجزيرة وهي وحيدة بين أُمّها العجوز وإخوتها وزوجاتهم. تُفكّر فيما فعلت بالآخرين. *ما اخترت أن أحبه يا ربي لكن القلب فعل.* وفيما سوف تفعل بنفسِها المنقوعة بالحسد والضّغينة. *أو أن هذا القلب ما أحبّه إلا كُرهًا للغضّةِ البضّة.* وتجوش في هواجسها. *فضّة لم تؤذِني قط.* وتجوش أكثر. *ماذا تملك ربيبةُ «العبدة» أم سرور ولا أملك أنا ابنة الحسب والنسب.* سهرت لياليها الماضية تُحملق إلى مرآتها على ضيّ السّراج، تُمشّط شعرها وتُطيل النّظر إلى قسمات وجهها المليح. *مزيونة لكن الحظ أعمى.* وتتذكّر أسماء خُطّاب الأمسِ وتُعدّد خصالهم. تتذكّر رفضها رغم إلحاح إخوتها على القبول بزوجٍ منهم، شاب غني يزيدها غنى ولا يطمع في مالها. ترفض، وأُمُّها العجوز قوية البأس ما انفكّت تقف في وجوه أبنائها: «لا جابر على شريفة.. هذي دلُّوعة بيت العِزّ شمعةُ الجُلّاس». والإخوة يتحسّرون على خُطّاب شقيقتهم؛ يوسف بن الطاروف، ومشاري بِن مِحمَل، وفيصل بِن حامد، وناصر المنزال. *مَن يُريدنا أبَت النّفس أن تُريده.* والنّفش صوبَ ساكن البيت القريب تهفُو. *ومَن نُريده أبى أن يجيء به الحظُّ.* وتُفكّر دلُّوعة بيت العِزّ وشمعة الجُلّاس. *أين الجُلّاس؟ وكم تعيشُ أمّي؟* والأمُّ العجوزُ غدًا تموت أو بعد غد. *وإخوتي باقون.* والعمر يفر. *وأنا خائفة.* وحملقت إلى عينيها الدّامعتين في المرآة وما هانت عليها نفسها. *سليمان لا يريدك.* فأشاحت بوجهها عن وجهها لمّا ألفتهُ مكسورًا. *لا تهوني يا شريفة.* ومسّت أدمعها بظاهر كفّيها. *لا نلتِ ولا نالت فضّة.* وفكّرت في إصلاح كل حماقات الأمس، ونامت على غصّة، وأفاقت على قرارٍ أخير.

وفي دارٍ غابت عنها صاحبتها تربّعت الجارةُ أمام فضّة، وحلفت لها بالله العظيم ربِّ الكعبةِ الشّريفة، وقالت ما قالته أم حدَب إن سليمان مثل العَنقُوز يغيبُ ومثل المولاف يعود. مثل العَنقُوز تنطفئ ألوانه في غير محلِّه، ومثل الطائر الأليف يألف مكانه مهما غاب، مولاف وإن طال عليه الدّرب يرجع، يُبطئ ولا يُخطئ. تغضّبت فضّة ابتسامة:

«لو كانت أم حدَب صادقة لحدّ الحديد الشّر».

ضربت شريفة صدرها بكفِّها فرنّت أساورها:

«وا حسرة قلبي! أتريدين بِن حامد يا فضّة؟!».

«أريد بيتًا يا شريفة..».

أجابت فضّة وهي تتلفّت في ليوان الحوش، استطردت:

«..أم أعيش مثل عبدٍ مطرود؟ أين أذهب؟ كيف أعيش؟ *لماذا أعيش؟ وقد باعني سليمان مِن أوّل عثرة*».

بشّت شريفة في وجه فضّة:

«إن كان الأمر أمر البيت فالبيت موجود يا بنت الحلال، وعند الله السعة يا أُخيّتي. ووالله لولا أن إخوتي في البيت لشرّعت لك باب الدار، لكن في البيت رجال وأنتِ امرأة، وكلام الناس لا يرحم.. لكني أعرف ابنة حلال، مُحسنة فاعلة خيرٍ لا ترد امرأة في حاجة.. تأوي المسكينات والعبدات المطرودات من البيوت..».

وفضّة تُنصت إلى منزلتها الجديدة على لسان الجارة، ولا تفهم لِمَ تفعل شريفة من أجلها كل هذا. غاطسة في سكوتها تفكر، والجارة لا

تسكت:

«..والله إن قلبي معصور عليك يا فضّة.. أنا فاتني الوقت وأنتِ صغيرونة.. انتظري سليمان في بيت المرأة حتى يرجع.. سوف تطرق بابك بعد أيام، بين صلاة العِشاء ونصف الليل، فلا تترددي يا مجنونة».

وما ترددت فضّة لمّا طُرق بابها بعد كابوس اللّيلة الخامسة عشرة. تسربلت بعباءتها وأسدلت البُوشِيّة على وجهها وفتحت الباب قبل نصف اللّيل.

«مسّاك الله بالخير يا بُنَيّتي».

قالت المُحسنة تحملُ سراجًا، تتوّشح السّواد فوق جسدٍ لحيم. وسألت فضّةَ عن أغراضها. وأجابت الفتاة بعد التفاتةٍ خاطفة إلى داخل البيت:

«ثيابي التي عليّ».

ومضت حاملةُ السّراج تمشي في السّكّة المظلمة، وفضّة مثل السّائر في نومِه تتبعها على بُعد خطوتين، ووجيبُ قلبها يُسابق وقع قدميها. وتسمع الفتاة ما يُشبه رنين خَلخالٍ أو جرَسًا في عنق دابّة. وتستعيذ من شرّ الجِنّ، السّعلو وذعيدِع والطّنطل وبُوْدَرياه وأم السّعفِ واللّيف. كأنما يتبعهما الرّنين ويُشيّعهما خروجًا من سِكَك «المطبّة». وتتجاوزان مقبرة «بِن حَقّان»، ويطول بهما دربٌ لا يمرُّ قُرب الشّوق المحصّن بالحرس. ويصمتُ الرّنين كُلّما توقفتا عند ارتفاع صوت ناطور اللّيل يُنادي من بعيد:

«صاحي؟».

ويُجيبه أقرب النّواطير إليه بصيحةٍ أمَارةً على صحوِه. وتتناقصُ البيوت المتراصّة من حولهما، وتتّسع بينها المسافات، وتنتثر متباعدة عن بعضها كلّما أوغلتا في النّأي صوب جنوب غرب المدينة. تحثّان الخُطى صامتتين، بين نداءات نواطير اللّيل، ونباح الكلاب، والزّنين، وصياحُ أم السّعف واللّيف يتواتر صداه في الأرجاء.

وغير بعيدٍ عن دروازة العبدالرزّاق العتيقة، انعطفتا إلى الجنوب وواصلتا المسير. التصقَت فضّة بالمرأة حينما لاحَ لها رجلٌ يرفع حاشية دِشداشَتِه، يواجه سور المقبرة القديمة ويُمسِك بشيئِه. وحثّت الاثنتان الخُطى. ولمّا ابتعدتا عن المقبرة تناهى إليهما صوت الرّجل وراءهما يصيح:

«بُوْدَرياهْ وصل المرقاب يا جماعة!».

انقبضَ قلب فضّة من صرخةِ المعتوه، لا تفهم أي لعنةٍ أصابت الدّيرة، بين أخبار وحش البحر بُوْدَرياهْ وجِنّيّة اللّيل أم السّعف واللّيف والطّنطل طويل الظّل. وهي لا تدري إلى أي حيٍّ تقودها المرأةُ السّمينة، فما باعدت ربيبةُ أم سرور عن المطبّة إلا لِمامًا لزيارة الشّوق في صباحات المدينة مع شايعة. أما هنا، في هذا الخِزمِس، فالصّمت يلفّ المكان الغريب ولا تصلُه نداءات نواطير اللّيل. واللّيلُ عتيمٌ ونسائم الخريف تهبُّ رفيقة. والدّرب ينعمُ برطوبةٍ خلّفتها أمطار الوسم قبل أيام. والسّماء بنجومها المنثورةِ مثل ثوب الزّري الأسود المذهّب تُشبه سماء المطبّة، لكن الأرض غير الأرض. والبيوت لا تُشبه بيوتًا تعرفها إلا في أساسها الطّيني، يرتفعُ عن الأرض مقدار

ذراع، فيعلوه سعفُ النّخيل اليابس ساترًا، مثل سورٍ يحجبُ الرؤية ولا يحجبُ الصّوت. والصّوت يعلو بين حين وحين، يبعثُ طمأنينة في نفس الوافد الجديد إلى المكان المظلم. ضحكةٌ فالتةٌ من هنا، ونغمة عودٍ من هناك. ولا تلبثُ الطمأنينة طويلًا في نفس فضّة، ويتسلّل إليها القلقُ من غربةٍ اجتاحتها بعد مسير ساعة. *أين أنا؟*

توقّفت السّمينةُ أمام أحد البيوتِ الغريبةِ هجينة البناء بين طينٍ وسعفٍ وسيقانِ قصب. دفعت بابه الخشبيّ المتهالك ودَعت فضّة إلى الدُّخول. وأطبقت الباب وراءهما، فألفَت فضّة نفسها وسط حوشٍ صغير، تحيطها سِتُّ حجراتٍ صغيرةٍ مبنية من الطّين وسيقان القصب. ويقطع الحَوش حبلُ غسيلٍ يحملُ من الألبسة فاقع الألوان. والمرأةُ السّمينة إلى جوارها تنزع العباءة وتُخرج من جيب ثوبها أساور ذهبية، وقبل أن تكشف البُوْشِيّة عن وجهٍ يكاد ينفجرُ بزوائده الشّحيمة رفعت السّراج وابتسمت. وبرز لُغدها الكبير مع الابتسامةِ مثل عجينةٍ مُختمِرة. فأشارت نحو الحجرات الثّلاث عن شِمالها:

«هذي حُجَر البنات..».

وتأنس روح فضّة لذكر البنات السّاكنات في البيت. فتشير المرأة رافعة سِراجها نحو حجرتين أمامها:

«..وهاتان للضيوف..».

فأشارت صوبَ حُجرةٍ منفردةٍ عن يمين الحَوش الصّغير:

«..وهذي حجرتي».

فأمسكت بكتف فضّة، ودفعتها برفقٍ صوبَ الحجرات الثّلاث وهي

تُشير بسبّابتها:

«الحجرة التي في المنتصف».

طرقت فضّة بابًا من سيقان القصب ودخلت الحُجرة. وأُزيحت في الوقت نفسه ستارةٌ قماشيةٌ عن مدخل إحدى حُجرتَي الضُّيوف. لفظت الحُجرة رجُلًا يُزرِّرُ دِشداشتَه ويُحكم لِثامه وهو يقطع الحَوْش الصّغير، يترنّح أمام المرأة السّمينة كاشفة الوجه. ومضى صوب الباب بعدما ودّعها:

«في أمان الله خالة حمدية».

***

«حيّاك الله فضّة..».

حيّتها الفتاة المليحة حليقة الرأس، بعدما سألتها عن اسمها عند وقوفها على باب الحُجرة. فمسحت بكفّيها على رأسها وهي تقول:

«..لا تخافي ما أنا بمريضة ولا مكوية على رأسي.. حَشَشْت شعري بكيفي..».

أشارت نحو فَرشٍ أرضي مُقابل:

«..حيّاكِ.. اِقعدي هنا، هذا فراشك».

جلست فضّة على الفراش. أسقطت عباءتها عن رأسها ورفعت البُوشِيّة عن وجهها وتلفّتت إلى الحُجيرة الضّيِّقة، تُبصر ما يُتيحه ضوء سراج معلّق بالجدار الطيني. والفتاة القرعاء متربّعة على فراشها على الأرض، ودرّاعتها سماوية الزُّرقة بلا تفاصيل كأنها

دِشداشة. وكل الأمارات في هذا المكان تصيح على وجه فضّة: «اخرجي!». غير أنها تخاف الظلام، وهي لا تعرف الطريق إلى المطبّة ليلًا، ولا حتى نهارًا.

«ما هذا المكان؟ أين نحن؟».

فرقعت القرعاء بعِلكتها قبل أن تُجيب وهي تُرقّص حاجبيها:

«ما الذي جاء بكِ يا غزيّل إن كنت لا تدري؟».

قطّبت فضّة جبينها تستوضح، فقالت القرعاء:

«أنتِ في بيت حمدية يا حلوة، في الرميلة».

«حمدية مَن؟ والرميلة أين؟».

حبَت القرعاء إلى فراش فضّة، وتربّعت إلى جوارها وهمست:

«تحلفين بالله إنك لا تعرفين حمدية؟! السمينة التي جاءت بك إلى هُنا.. أبناء الحرام ينادونها خالة حمدية.. أما أبناء الحلال فيسمونها حمدية القوادة».

شهقت فضّة وقد رنّت في رأسها أساور الجارة. انتصبت واقفة:

«فعلتها شريفة».

أمسكت القرعاء بيد الضّيفة تجرُّها للجلوس على الفراش. وفضّة تحاول نزع يدها:

«هذا ليس مكاني.. ربّتني عبدة صحيح، لكني حرة.. اتركي يدي يا بنت الحلال!».

تركت القرعاء يد فضّة وانفلتت منها ضحكة رقيعة. نهضت ووقفت إلى جوارها تُربِّت على كتفها:

«ليس من بين بنات هذا المكان من هي ابنة حلال يا غزيِّل، لا أنا ولا بهيجة ولا شكرية ولا فريدة ولا شفيقة ولا حتى أنيسة بنت خالة حمدية.. أنا قلت والله إنك ابنة حلال حينما أقبلتِ علي وسألتك عن اسمك وقلتِ فضّة بنت عبدالرحمن.. ليس في هذا المكان واحدة تعرف أباها.. اقعدي بالله عليك لنتسامر».

عاودت القرعاء الجلوس على الفراش، لكن فضّة أعادت عباءتها على رأسها وهرعت إلى الباب تصرخُ في خيالها. *اِلحقني يا سليمان*. فتحت الباب ووقفت على عتبته قبل أن تُطبقه وتعاود الدُّخول:

«هناك رجال في الخارج!».

«اقعدي الآن.. وسوف أجد طريقة لإخراجك ورب الكعبة.. لكن ليس الآن وأبناء الحرام في الحوش.. حتى لو لم يكونوا هنا، فسِكَك الزُّميلة لا تخلو من الشكارى».

نهضت القرعاء إلى السِّراج وأطفأته، فسقطت الحجرة في ظلام، وعادت إلى فراشها تندسّ تحت اللِّحاف:

«لا تخافي.. ليس فيهم رجلٌ يتجرأ ويطرق باب حُجرة القَرعة.. هل رأوك حينما فتحتِ الباب؟».

ما نزعت فضّة عباءتها وهي تتحسّس طريقها في الظّلام وتندسّ تحت اللِّحاف في الفراش المجاور:

«لا أدري».

قالت فضّة، وراحت في الظلمة تُفكر في فعلة شريفة التي أرادت لـ سليمان إن عاد أن يرى حقيقة الغضّة البضّة، التي لو طاحَ البقُّ على خدّها؛ قضّه. وما قضّ مضجعها في بيت الحرام إلا فكرة أن يعود سليمان، فيلاقيها منقوعة في الحرام ولو صانت عن الحرام نفسَها.

«تحلفين بالله أنك ترجعيني البيت؟».

«أحلف بالله وبكتاب الله ما لك قعدة هنا.. لكن بالله عليك قولي لي ما قصتك؟».

وانقضى ثُلث اللّيل الأوّل وفضّة تُفضي بحكايتها، منذ هجرة والديها من نجدٍ إلى الدّيرة، وغياب أبيها في الزُّبير، ووفاة أمّها في بيتٍ مُكترى في «المطبة»، وحياتها إلى جوار أُم سرور عبدة أم جرّاح، وزواجها بـ سليمان وأُخوّة الرّضاع وموت الرّضيع في بيتِ مُرضعته قُرب حيّ البَلوش.

«والله؟! أنتِ التي مات رضيعك محترقًا في بيت أم البنات؟!».

سألت القرعاء وأجابتها فضّة:

«أنا».

«عجيب!..».

وبدأ ثاني أثلاث اللّيل على استطراد القرعاء:

«..وعجيبة حكايتنا».

أجابتها فضّة في ظلام الحُجرة:

«حكايتنا؟!».

***

«اسمي فردوس».

قالت صُغرى بنات حمدية وأجملهنّ بإجماع زوّاد الرّميلة من العرابدة وباعة العَرَق والشكارى. وما كان للقوّادةِ بنات في الحقيقة، تقول فردوس، إلا أنيسة وحدها ابنة حمدية من رجل لا يعرفه أحد، عشقته حمدية في يفاعتها. فجاءت إلى الدّيرة حُبلى بأنيسة لمّا جاء العَنكَريز قبل عشرين حَوْلًا، أقل أو أكثر. قال بعضٌ إنها غجرية، وبعض آخر يقول إنها ابنة أكابر. وكانت ساحرة الجمال على ما يقولون، وما كانت قوّادة وفق ما تقول، لكنها الحاجة والخوف من الرجوع إلى قومها بعدما انتفخ بطنها وهي في ديارهم. قالت لصاحبها إنها حُبلى، فقال ما أدراني أني أبوه؟ كان كلبًا مثل كل الرجال، «كلاب ترتدي الثياب»، تقول فردوس. وضعت حمدية أنيسة بعد سبعة أهِلّةٍ من وصولها الدّيرة، واعتاشت على جسدها تَطعم وتُطعِم الرّضيعة في غشّتِها الصّغيرة. كبرت حمدية، وزوائدها التي جرّت إليها الرّجال في الأمس تمدّدت وتكتلت، وأشياؤها تامّة الاستدارةِ استطالت وتهدّلت. وبارَ سوقُها وانصرف عنها زبائن السّوء. فقادت الأمُّ ابنتها أنيسة على دربٍ مشّته، وقادت الرجال ثانية إلى مضجعها القديم، لكن بجسدٍ شهيٍّ طري جديد. وعلى بركة إبليس والشّياطين الحمر توسعت في تجارتها. وبعد الغشّةِ بَنَت حُجرة طينية، وبعد الحُجرة بنت حُجرة تلو أخرى حول غشّتها المبنية من الطّين والقصب وجريد النّخل. وما انفكّت تستقطبُ الغجريات من الجوار، وتُربي اللقيطات مثل بذرٍ تبذره إلى حين قِطاف ثمره إذا أينع. امرأة جبّارة بيعاريّة، طويلة لسانٍ ويدٍ ما

قدر عليها أحد. ما كسر قلبها إلا تخلّي عشيق الصِّبا، وكسره ثانية حُكم الشّيخ سالم قبل ثلاث سنوات، حينما نظّف الأحياء منهنّ وأمر بطردهنّ إلى البصرة. طاش صوابها، وكادت تموت من الذُّعر وذاكرة صِباها لولا أن الحاكم الإنكليزي هُناك أمر بإرجاع الغجريات واللقيطات إلى الكويت، فتغوّلَت حمدية بعد وساطة الإنكليز.

لا تدري فردوس متى جاءت إلى هذا المكان. هي تعرف أنها آخر اللقيطات في بيت حمدية، بعد بهيجة. تكفّلت بهنّ القوّادة وأطلقت عليهنّ الأسماء، وكان من نصيب الأخيرة اسم فردوس.

«فردوس يعني جنّة..».

تقول فردوس لـ فضّة من تحت لحافها، فثقلِت ضحكة وتستأنف:

«..يمكن جنة عيال الحرام».

عاشت فردوس مع بهيجة في هذه الحُجرة منذ صغرها، خادمة في بيت الحرام حتى غادرت طفولتها وانحدرت بها المنزِلةُ من خادمةٍ إلى مومس. هذا فراشها، والفراش المهجور أمامها فراش بهيجة التي تكبرها بسنتين أو ثلاث. صارت صُوَيحبتها وشريكة الحُجرة تقضي معظم اللّيالي في الحُوَط، وتعود بعد أيامٍ بآثار الصّفع والعضّ واللّكم، كأنما عفرت بها الكلاب الضّالة. تعود تُشارك فردوس الحُجرة حتى تبرأ كدماتها؛ «فتغيبُ مرّة أخرى في حُوَط الكلاب».

«مسكينة بهيجة».

تقول فردوس؛ منذ صغرها يابسة الرأس قوية البأس لا تهابُ أحدًا. حتى الخالة حمدية ما قدرت أن تُلين رأس الطّفلةِ بالضّرب إذا ما

استلذّت العناد بغير سبب، ترفض غسل اللُّحُف وخَمّ الحَوْش وجلب العَرَق من اليهود وزعب الماء من البركة، فتعاجلها خالة حمدية صفعًا ورفسًا وبصقًا.

وتقلّد فردوس حمدية بصوتٍ خفيض:

«إن رخيصة مثلك تستأهل الضرب والله، لو كان فيكِ خير لما رمتك أمك في السّكّةِ لأبتلى فيك.. شِلتك بين يدي هاتين ودماء بطن أمك ما نشفت بعدُ عن جلدك الوسخ يا وسخة».

وبقدر ما تُعاند الطفلةُ بهيجة ترضخ فردوس، يتيبّس رأس الأولى ورأس الثّانية يلين، لئلّا ينالها من الضّرب نصيب، خشية أن تُدمنه مثلما أدمنته بهيجة شحّاذة الصّفع والبصق والرّكل. وما كادت تتطهّر فردوس من حيضتها الأولى حتى دنّستها حمدية بالخطيئة، ليلةَ دسّتها في مطلع صِباها في فراش شيخٍ هَرِمٍ عافتهُ نساؤه الأربع. واهترأت روح الصبيّة باكرًا وتقصّفت. وقد صارت مقصد الرّجال من دون أخواتها يكثر عليها الطلب. يجيء واحدهم يقصدُ أجملهنّ وأصغرهن، فإن لم تكن متاحة فأشطنهم مدمنة الضّرب ذات الوشم بهيجة، وإن كانت مشغولة هي الأخرى فالخيار عودًا على بدء: ننتظر أم الشّعر الأسود حتى لو تطلع الشّمس.

وتطلع شمسٌ وراء شمس، ويتزايد الرّجال برمي الزّوبيّات تحت قدَمي حمدية للفوز بأم الشّعر الأسود التي نسِيَت اسمها. وتغيبُ شمسٌ وراء شمس، وجنّة عيال الحرام تنطفئ. تُكرر الفعل بلا رغبة ولا شعور. ويمرُّ على جسدها الرقيق صنوفُ الرّجال. الفقير الحافي الذي يعيش على الكفاف، والغني المتزوج بأربع وما شبِع،

والشاب الذي طرّ شاربه قبل يومين يختبرُ حداثة رجولته، والشيخ الذي بالكاد تحمله ساقاه يستنهض بواقي هِمّتِه. العربي والأعجمي والأبيض والأسود، لا فرق، شرط ألا يكون كافرًا مثل سركيس وبِن شاؤول والعنكريز والهنود.

تقول إنها لشِدّة ما بغضت الرِّجال صارت تراهم واحدًا. بهيمة لها الرّائحة نفسها. أنفاسهم يانسون وخيار، وصُنان أجسادهم المخمورة لا يُحتمل. لا يفرّق واحدٌ عن آخر إلا بوزن جثّتِه العَفِنة على جسدها. وصارت بفعل الملل تُقلِّص دخول الرجال حُجرتها، لا يستهويها إلا الغريبُ منهم، فانتقت ما لا يُشبه الآخرين، على سبيل استعادة رغبةٍ أخمدت العادةُ جذوتَها من فرط ما قُدِحَت على ما لا تشتهي. وتَزاحم على حجرتها أصحاب العاهات المرفوضون من بنات حمدية الأخريات، أولئك المكسورون في دواخلهم لا يكسرون أحدًا. فنامت مع القزم والأعرج والأعضب والأشرم والأعور والأعمى والأصم والأخرس والبَرَنْتَى.

«تعبتُ ومللتُ ويبِستُ وذابت روحي.. قلت هذا يكفي، لكن الخالة حمدية قالت إني ما خلّصتُ دَينها علي.. والمديون كالعبد يا حرة.. مثل زوجك الغَيص المديون لبِن حامد على ما قُلتِ.. وأنا ملك حمدية.. هي التي آوتني وأسمتني وأطعمتني وكستني و و و.. فأدخلت عليّ الشكارى غصبًا، بالكاد ينزعون أُزُرَهم، يرفعون حواشي دشاديشِهِم عن سيقانهم الوسخة، ويبركون فوقي مثل الأباعر.. والله لو وضعتِ تحتهم نعجة يا غزيّل يا بنت الحلال لحسبوها من شِدّة السُّكر أم الشعر الأسود.. ولمّا صرت أدفعهم عنّي حسبني أحدهم مثل بهيجة، شتمني فشتمته. صفعني فصفعته وعضضت أُذنه وبصقت

في وجهه ولعنتُ خامسَ أسلافه الكلب ابن الكلب، حتى فرّ تاركًا إزاره العَفِن على فراشي واختفى، لكن غيره لم يختفِ. ولمّا عجزت عن الخلاص من هذا الشقاء تمارضت، ومدّدت عادة الشّهر كذبًا لعشرة أيامٍ مرة بعد مرة، حتى ما عدت أرى أمامي من شدّة الغيظ والقهر، فحلقت شعري كما رأيتِ.. عساني أرجع اسمي، فردوس، بدَلَ أم الشعر الأسود.. وما طالَ شعري مِقدار إصبع حتى حلقته ثانية وثالثة وعاشرة. وما عاد أحد يسميني أم الشعر الأسود، ولا عادت أم الشعر الأسود موجودة.. ولا حتى فردوس..».

سكتت فردوس. تنهّدت قبل أن يسري في الظلام صوتها:

«صرتُ القَرعة.. لا بأس ما دامت القَرعة تصد أبناء الحرام عن فراشها.. كلهم إلا البَرَنْتَى ما قطع عادة.. هل تصدقين؟ كشفت له رأسي بعدما طرق بابي وقلت: أنا قرعة! فقال: وأنا أملط».

أي شيءٍ يُخلّصك ممّ أنتِ فيه يا فردوس؟ *الموت أو الحمل*. لا تقدرين على الأوّل. *لكن الثاني أمرُه بسيطٌ والبَرَنْتَى لا يُقصّر*. وكرّر وحده زياراته إلى حُجرة القرعاء، حتى قصَدَها ذات ليلةٍ وقد خطّ بالكُحل شاربًا عريضًا وحاجبين. أجلسته على فراشها وأطبقت الباب، ونقعت خرقة في آنية ماء، ومسحت الكُحل عن وجهه وأرجعته إلى سيرته الأولى. أطفأت السّراج وهمست في أُذنه: ما فتحتُ لكَ بابي إلا لأنك لا تُشبه الآخرين.

«وحبلتُ من البَرَنْتَى.. ما قصّر معي وأعطاني من روحه فتوقف عيال الحرام عن طرق بابي لشهور.. قَرعة وبيعاريّة لسانك طويل وحامل! لا يشتهيك حتى أعمى.. والخالة حمدية لا يُغضبها حمل

بناتها، تريد لكل واحدة مِنّا أن تذوق من الكأس التي شربت منها في شبابها.. بنت صغيرونة وحامل بالحرام.. وصبرت علي الخالة فإن كنت حُبلى ببنتٍ فخير على خير، أما إن كان ولدًا فـ «يا ويلك ويا ويله». وأنجبت بعد شهورٍ ولدًا، يا ويلي ويا ويله، خطفته حمدية وأعطته لأُم حدَب الساحرة، لكن الرّضيع احترق في بيت مرضعته أم البنات قُرب حيّ البلوش.. شبّت فيه حُجرة والتهمته النّار هو ورضيعكِ قبل شهر.. كان ولَدانا أُخوين بالرّضاع يا غزيّل، هل تُصدقين؟! لا أدري ماذا قالوا لكِ عن رضيعك.. لكن البَرَنْتَى قال إن سليمان يعود إلى حُجرتك بعدما يُعيد رضيعكما..».

وتفكّرت فضّة في القول الذي طابق قولَ جارة السوء شريفة، وزاد عليه عودة الرّضيع، فما فاهت بكلمة. فأردفت فردوس:

«..وتقول أم حدَب إن رضيعنا أنا وخَليفُوْهْ يغيب أسابيع، فيعود وقد كبَر سنينًا طويلة.. أنا لا أصدّق عجوز المرقاب عن عودة الرضيع بعد غيبته..».

صمتت قبل أن تُنهي:

«..لكني أُصدّق البَرَنْتَى، وها أنا ما زلت أنتظر عودة الغايب».

***

وفي الصّباح فتحت حمدية باب الحُجرة على الفتاتين النّائمتين، وصاحت:

«جهزي البنتَ الليلة يا فردوس.. عندنا زوّار».

ما تحرّكت فضّة المستترة بعباءتها تحت اللّحاف غارقة في عَرَقِها.

ومن لِحاف فردوس ظهر الرأس الأقرع مثل رأس سلحفاة أفاقت من نوم:

«الذي يُقرِّب من البنت.. أقصُّ إصبعه».

بحلقت حمدية إلى فردوس تلوك علكتها مثل بقرةٍ تجتر ما في جوفها:

«نشوف.. أنا والا انتي يا القَرعة».

أجابت السّمينة وانصرفت مُشرعة الباب. ونهضت فردوس وتربّعت على الفراش، تنظرُ إلى الكتلةِ المتكوّمةِ مثل جنينٍ تحت اللّحاف أمامها.

«قومي يا غزيّل.. راحت الخالة.. راحت روحها».

فأطلّت فضّة من تحت اللّحاف بنصف وجهها، ونظرت صوبَ الباب المُشرع على الحَوش المُشمس. نهضت وشربت الماء من آنيةٍ فخّارية، فصبّت قليلًا في راحةِ كفّها ومسحت وجهها. وسألت فردوس متى تأخذها إلى البيت على ما وعدت؟

«سأتدبر الأمر بعدما تخرج الخالة بعد العصر».

وخرجت الخالة بعد العصر، وانسلّت القرعاء وفضّة من بيت حمدية تلتحفان السّواد. تُسرعان المشي بين حُوَطٍ وعشيش الرُّميلة التي تُميتها الشّمسُ واللّيلُ يُحييها. وتُخلّفان وراءهما أرض النّيام. وتحثُّ فردوس خطاها صوبَ الحيِّ الشّرقي تسأل عن «المطبّة». وفي سِكّةٍ غير بعيدةٍ عن مقبرة «بِن حقّان» تستدلُّ فضّة دربها إلى سِكّة البيت، فتُبصر بيتها الذي كان، ما عاد. وقفت عند رأس السّكّةِ

لِصق فردوس، تُشاهد أغطية قماشية تُخفي أشياء على امتداد سور البيت. حثّت الخطى إلى مرمى بصرها ودفعت الباب فوجدته على غير ما تركته مُقفلًا. رفعت أحد الأغطية القماشية أسفل سور البيت، وكشفت عن خزانة شايعة. فراحت ترفعُ الغطاء تلو الآخر عن الأواني الفخارية، والفُرش والصّناديق الخشبية وأقمِطة الرّضيع والثّياب معروضة على السّكّةِ و.. أعادت الأغطية وهي لا تصدّق أن كل هذا تم في غضون ليلةٍ واحدة. فردّدت في سِرّها: «لا سامح الله شريفة». والتفتت إلى فردوس:

«هل تعرفين بيت الزُّجاج أين؟».

وما صعُبَ على ابنة السّكك أن تستدلّ سكّة تؤدي إلى مشفى الإرسالية. وقابلت الفتاتان الطّبيبة لعلّها تساعد. وما تأخرت إلينور بعرض ما عرضته على فضّة قبل أيام؛ حُجيرة صغيرة لقاء عملها في التنظيف والطّبخ للمرضى. رفضت الفتاة لأن أهلها لا يرضون، ولأن سليمان لن يرضى، لكنّ فكرة خطرت في بالها على سبيل سؤال، لو عملت مثلما تعمل مبروكة، أو مثل أي امرأة تعمل في سوق الحريم، هل تَطيح السّماء؟ هل يعلمُ أهلها الذين لا تعرفهم في نجدٍ فيُطاردوها لارتكاب الجرم؟ هي تعرف الممنوع ولا تعرف أسباب منعه، لكنها عرفت أم لم تعرف، فإن عمل المرأة نقيصة في شرع أهلها، وهي تخاف مما قالته مُرضعتها أم سرور قبل سنوات، تخاف من جدّها وإخوته الذين قاطعوا أباها عبدالرحمن، الشّاب الذي خالف أعرافهم وتزوّج ابنة صانع أنعل وبائعة أقِط. تخاف كما لو أنها تعيش بينهم، وكأنما هي موقنة بأنهم ما زالوا أحياء يتربّصون بها من حاضرةٍ نجديةٍ بعيدة، لا تعرف عنها إلا ما ذكرته أم سرور، عن عمل

جدّيها لأُمها قماشة؛ في سوق المسوكف وسوق أُم العصافير.

خرجت فضّة بصحبة فردوس بعد رفضها عرض الطّبيبة العمل في بيت الزُجاج، وهي لا تدري سببًا لرفضها غير أنها لا تستطيع. وعند باب المشفى قالت فضّة للقرعاء إنها لا تريد أن تعود معها إلى بيت حمدية المشبوه. ففرقعت العِلكةُ في فم فردوس قبل أن تقول:

«الشيخة بنت الشيوخ أين تريد أن تنام بالله؟ في قصر السّيف؟».

ولا تدري فضّة أين تُريد أن تنام ليلها في سِتر، في قصرٍ أو في بئر، أتطرق بابَ شريفة وهي السبّب فيما هي فيه؟ أم تذهب إلى بيت أم البنات وقد احترق رضيعُها فيه؟ أم تعود إلى بيتها المرهون بزيجتها بـ بن حامد؟ وهل يقبل كبير النّواخذة بالزّواج بـ ثيّبٍ باتت خارج بيتها ليلة؟

وتُفرقع العِلكة بين أسنان فردوس وهي تُحملق إلى وجه الفتاة الغائبة في أفكارها. فتقول فضّة:

«لا.. ليس في القصر.. بل أنام في حُجرتي.. في بيتي».

فطِنَت فردوس إلى مرام فضّة التي اختارت بِن حامد على مُغامرة انتظار سليمان في بيت حمدية، مغامرة غير مضمونة العاقبة، أشبه بالمستحيل أن يعود المنتظر بعد موته غرقًا واختفائه في البحر. وقادت القرعاء رفيقتها تسأل عن بيت كبير نواخذة الدّيرة، وفي بيته في حيّ الشُيوخ قالوا إن الرّجل في دُكّانه في سوق التّجّار، وفي الدُكّان قالوا إنه في مسجد السّوق يُصلي المغرب، وفي المسجد ما رآه أحدٌ وقيل إنه في مقهى بوناشي، وفي المقهى قيل إنه في القصر، فتوقف البحث حتى صلاة العشاء، واستؤنف

بدءًا من بيت التّاجر، ولحسن حظهما أنه كان موجودًا وقد فرغ من عشائه في ليوان البيت فورًا، يحتسي القهوة ويُدخّن النّارجيلة. تربّعت الفتاتان أمام الرّجل وهو لا يدري أي العباءتين تُخفي الغضّة البضّة. حتى تكلّمت فضّة وعرّفت نفسها ورجته أن يُبقيها في بيتها المرهون. وما تردّد التّوخِذا يسألها عن غيابها عن البيت ليلة البارحة. فأشارت الفتاةُ نحو فردوس التي ما ارتفع لها صوتٌ ولا فرقعت بين أسنانها عِلكةٌ منذ دخولهما حَوْش البيت الفسيح. وقالت إنها تخاف المكوث في البيت وحيدة، فأمضت ليلتها عند صديقة. وما أكثر التّوخِذا في الحديث إذ قال:

«لكِ البيت وصاحب البيت.. ماذا تقولين؟».

وانفرجت شفتا فضّة توشك أن تقول، لولا أن ارتفعت وراء سور البيت أصداءُ نداءِ أم السّعف والليّف:

«ما مات سليمان وهذي غترته».

***

صيف 1990

(60)

رسالةٌ من خيال

«ص.ب: 0193201 الصفاة»

ما نمت مثل الناس طوال ليل البارحة، أفكر فيمن لم تره فياصل في مواقف سيارات الرابطة ينتظر. بالكاد أغفو فتدهمني الكوابيس، وسليمان الذي أكتبه من خيالٍ، يقترب. وعقلي لا يكفُّ عن السؤال: كيف تُصَدِّق؟ هل خَرِفتَ يا بوحدَب؟!

لكن أحدًا حتى هذه الساعة لم يرَه. لا حارس القرية التراثية حينما سألته عنه قبل حوالي ثلاثة أسابيع، ولا آدم الثالث الذي أنكر معرفته به ليلة يوم العزاء في بيت المَصْوقَر، ولا صاحب مكتبة الرُّوَيِّح، ولا حتى فياصل تجزم بما ادعاه الشاب البدين مكوي الرأس. لا أشك أنه آدم المَصْوقَر، لكنني أشك أن أحدًا في الـ «فِيات» في مواقف سيارات رابطة الأدباء كان ينتظر.

ما سكت جهاز البيجر طول اليوم، تكشف لي شاشته رقم فياصل. ولا رغبة لديّ في الرّد عليها بعد مكالمة البارحة وأسلوبها في الحديث معي. ضعف موقفي كثيرًا، وشعرت بالتّخلي والخذلان من أقرب صديقة تفهمني، حينما لامتني وحمّلتني مسؤولية كل المشاكل التي ترتّب عليها نشر الجزأين من الرواية.

زرتُ بريد الفيحاء في الصباح، قبل ذهابي إلى المكتب، لكن لا شيء يصل. وكررت الزيارة مثل مجنون في الفترة المسائية. ولحسن الحظ، أو لسوئه، لا أدري.. كانت تنتظرني في الصندوق

رسالة.

تسلمت الظرف من الموظفة بيد مرتعشة، وما قويت على فتحه في مكتب البريد، فحملته معي إلى المكتب. وتركته أمامي أحدق إلى صورة الطابع البريدي، وعاودت قراءة ختم التاريخ على المظروف المغلق؛ الأحد 8 يوليو 1990، أي قبل أسبوع. فتحت الظرف بحذر، وقرأت الرسالة المكتوبة بخط غريب، واللغة خليط بين الفصحى ولهجة ما عادت دارجة.

إلى حضرة جناب كاتب أسفار مدينة الطين السيد المبجل صادق عبدالرزاق بوحدب.

حفظه الله ودام محروسًا

بعد السلام عليكم والسوال عن حالكم دمتم بخير وعافيه. بعده؛

نرسل اليكم خطنا هذا من بيت المصوقر في كيفان. وفي خاطرنا ان نشكركم ونبلغكم اننا قرينا ما كتبتو من اسفار مدينة الطين. ونرجو الله ان يسدد قلمكم على بركته حتى تكتبون الباقي من الأسفار.

احنا يا حضرة الكاتب الأجلّ الافخم مسافرين إلى أهلنا وجماعتنا ليلة الهلال الجديد وفي خاطرنا نقعد وإياكم قبل السفر لو كنتم ما تمانعون وإن شاء الله انكم لا تمانعون. خبرونا بمحلكم واحنا نجي لكم. واننا منتظرين ردكم على خطنا هذا على عنوان كيفان قطعة واحد شارع خمستعش بيت رقم ٣٠١ بالقرب من مدرسة نائلة.

كتبنا هذا الخط اليوم الاحد السادس عشر من ذي الحجه سنة

١٤١٠.

هاذا ما لزم ودمتم محروسين

سليمان بن سهيل

صنقور المصوقر

ختمًا الرسالة بالتاريخ الهجري. ودمتُ محروسًا بالسؤال؛ هل هو حقيقي ما يصير؟ سليمان وصَنقُور! لو لم تكن ورقة الرسالة مُسطرة جديدة لقلت إنها جاءت من زمن الطين. لعبة الشّايب *تسير* كما خطط لها منذ لقائنا الأول قبل أربع سنوات. وما بقي إلا أن أرد على رسالة ولد شايعة وابن خادمة المقام، أكتب لهما عنوان مكتبي فيزوراني، ثم آخذهما إلى الشّايب ليسلّم سليمان نعليه وينتهي كل هذا. لكني حِرت في أمر ردي. كيف سيبدو شكلي وأنا أرد على رسالة مهرها أحدهم باسمين من أسماء شخصياتي الروائية؟ *شخصياتي؟!*

كتبت ردًّا مقتضبًا ضمّنته عنوان مكتبي وأوقات وجودي. وأطبقت الظرف. وأزمعت على العودة إلى مكتب البريد قبل انتهاء الوردية المسائية، لكني تذكرت أن مدة التّبّة على ما قال الشايب *تنتهي* بولادة الهلال الجديد، أي بعد ستة أيامٍ أو أسبوع كحد أقصى. من يضمن أن يصل ردي قبل انتهاء هذه اللعبة؟ وفي غمرة حيرتي طرق باب المكتب. ودفعت فياصل الباب تحمل طاقة جوري أصفر. كأنما أرسلها إليّ الله في اللحظة التي احتجت. أقبلت بعدما تجاهلت اتصالاتها بالبيجر، يشع وجهها بابتسامة أحبها. وضعت الورد على سطح مكتبي، وقالت إنها لم تكن مرتاحة منذ البارحة، فجاءت تعتذر عن أسلوبها في المكالمة. شكرتها على ذوقها، وهونت عليها

المسألة بأني ما زعلت، رغم شعوري بالخذلان لحظتها. جلست على الأريكة أمامي، بهيأتها الفريدة، ثياب صارخة الألوان ووجه يخلو من لطخة مكياج، وخُصل شَيباء ما طالتها أصباغ الشّعر، وقلائد وأساور من العقيق والكهرمان. كأنها شخصية هاربة من إحدى لوحاتها التشكيلية. تلقفت فرصة مجيئها فلوحت لها بظرف رسالة، فسألتني:

«وصلَت؟».

أومأت بنعم، وحينما سألتني عن فحواها اعتدلت في جلستي وقلت:

«يجب أن تعرفي حكايتي مع الرواية أولًا.. لكني سوف أندم على البوح لو لم تصدقيني».

نهضت من الأريكة ومضت إلى مسجّل الكاسيت في الزّاوية أسفل النافذة:

«اسمح لي أن أخرس هذا الإزعاج أولًا..».

أوقفت شريط الكاسيت فسكتت نغمات السّنِكْني. فعاودت الجلوس إلى الأريكة وهي تقول:

«أنت تدري أني أصدقك أكثر مما أصدق أي أحد آخر. تكلّم، لا أحد مثلي يصدقك.. أوكي؟».

دفعني قولها إلى أن أفضي بحكاية الشايب منذ زيارته إياي صيف 1986، وما صارحتها بأنه الممثل الشّهير. وقلت لها إنه وراء الحكايات التي قرأتها في المسودتين أثناء عملها على الرسومات الداخلية للرواية. كانت تنصت باهتمام، وأنا أسترسل في الحديث

حتى بلغث حكاية صولجان طوعَس، أرويها بحرج لكنها لم تُبدِ أي دهشة أو استنكار، وهي التي تؤمن بالغيبيات من الأبراج الفلكية وخوارق الأحجار الكريمة والإشارات الكونية والأكوان الموازية. قالت إنها حتى لو لم تصدق ما أقول فهي لن تكذبه، لأن كل شيء في العوالم الخفية وارد. وكأنما كنت أنتظر من مجنونةٍ أن تنصت إليّ، تشجعت وأخبرتها بأمر سليمان وصنقور اللذين خرجا من أوراقي فصرنا نطارد بعضنا بعضًا، فحدجتني بنظرة ارتياب أردفتها بالقول:

«أوكي.. راجِع طبيب نفسي فورًا».

ما عرفتُ بماذا أرد وقد آذتني نظرتها قبل قولها. واستطردت بأن زوج صديقتها طبيب استشاري ممتاز. فالتفتُّ إلى طاقةِ الجوري الأصفر على سطح مكتبي وقلت:

«يبدو أنكِ سوف تزورينني غدًا بباقة ورد أخرى..».

بدا الحرج على وجهها وهي تنهض من الأريكة وتجلس على الكرسي أمام مكتبي. وقبل أن تقول كلمة سارعث أستطرد:

«..أنا لم أقل لكِ إني أصدق.. لقد قلت لك ما صار.. مثلما صار.. الشايب يقول إن سليمان موجود، وأنا أكتب ما يقول، وكل الإشارات التي تؤمنين بها تقول إنه موجود.. وأنا لا أصدِّق.. ولا أكذِّب.. لكني لا أريد أن أصدق.. أنا.. في الحقيقة أنا لا أفهم.. لكني يجب أن أكتب.. أشياء كثيرة تجري في هذه اللحظة، ويجب أن أعاجلها بالتدوين.. أريد أن أتصل بالشايب الذي يدري بكل شيء، وهو يدري الآن أنك هنا أكيد..».

أشفقت فياصل لحالي على ما بدا. نظرت إلى ساعة الجدار فاستعجلتني تدعوني إلى الذهاب إلى قسم البريد قبل أن يُقفل. قالت إن عليّ إرسال الرد إن كنت أنوي مواصلة اللعبة حتى آخرها. فأجبتها أن هلال الشهر المقبل يولد بعد ستة أيام، أو بعد أسبوع كأقصى حد، هل أضمن وصول الرسالة مع كل تلك الشكاوى حول تأخر البريد؟ تنهّدت قبل أن تأخذ الظرف من سطح مكتبي:

«أعطني عنوان بيت المُصَوْقَر..».

وانصرفت كتلة الألوان بعدما قالت:

«..وكلّم أنت الشايب على ما تسميه.. واكتب ما يقول.. لكن بصراحة، أنا لست مرتاحة لهذه الحكاية كلها.. ولا يعجبني حالك وأنت تصدّق هذه الخرابيط».

وبعد حوالي ساعتين اتصلت بي على هاتف المكتب. قالت إنها تركت الظرف في صندوق خشبي على سور البيت رقم 301. ثم ركبت سيارتها في الوقت الذي وصلت فيه سيارة «فِيات» بيضاء. ترجل منها الشاب ذو السواك الذي شاهدَته في رابطة الأدباء من قبل. وترجل من الباب المجاور الطفل المشهور الذي يسمونه كولمن الكويتي. تقول فياصل:

«ونزل من الباب الخلفي شخص ثالث كبير الأُذنين».

***

وما ثالث الأشخاص إلا عيّاد حارس القرية التراثية، جاء مع آدم وصاحبه كولمن من قرية «يوم البحّار».

ترجّل الثّلاثة من السيّارة وفياصل عند رصيف مدرسة نائلة تتحرّى ما يؤكد وجود سليمان، لعلّه رابعهم يترجّل حافيًا من السيارة البيضاء، أو أنه يفتح باب البيت للمقبلين الثلاثة. لكنها تدري أن سليمان غير موجود إلا في رأس بوحَدَب. دفعَ صَنقُور الباب إلى الداخل، وتبعه عيّاد وكلاهما مُحمّل بالأغراض. أما آدم فقد وقف عند الباب يتحقّق من صندوق البريد الخشبي، أخرج الظرف الذي أودعته فياصل للتّو، فشقّ طرفه بمطواةٍ أخرجها من جيب دِشداشَتِه، وقرأ الرسالة قبل أن يدسّها مع المطواة في جيبه وهو يركض إلى سيّارته الصّغيرة.

كان سليمان طول اليوم في بيت المُصَوْقَر، على عادته ما خرج إلا إلى مسجد الخصيمي وقت صلوات المغرب والعشاء والفجر والبحث عن رسالةٍ لا تجيء.

دخل عليه بُعيد التّاسعة ليلًا صَنقُور، يحمل كيسَين؛ كيس السوق المركزي وكيس صيدلية «كيفان». ثُمّ أقبل حارس القريةِ العملاق وفي يده حقيبة ملابس كبيرة، تركها وجلس إلى جوارها على الحشِيّة الأرضية. وتربّع ابن خادمة المقام على الأرض، وأخرج من الكيس البلاستيكي زجاجات «ماي غريب»، وراح ينزعُ عنها مُلصق بلد المنشأ وتاريخ الصلاحية. وانبرى عيّاد يُخبر سليمان عن وساطة كولمن الكويتي على شاشة التلفزيون ليلة البارحة. أرسلت شركة الحراسة صباح اليوم مندوبها إلى حارس القريةِ الثّراثية برسالة اعتذار وتعويض مالي. وسلّمه المندوب شيك الرّواتب المتأخرة وورقة إنهاء الخدمة، وتذكرة سفرٍ إلى بلده بعد أسبوع.

«يعني أنا ضيف عندكم كم يوم».

قال عيّاد. واستبطأ سليمان دخول آدم، فقال صَنقُور:

«ممكن راح يجيء بالعشاء».

فرغ القصاصةُ من إزالة الملصقات وأعادها إلى الكيس، وغلّف بطارياتٍ حجرية وطاساتٍ نحاسيّة وقطعة من العجينة السّوداء بالنايلون. فالتفتَ إلى الضّيف واتّسعت ابتسامته حتى اختفت عيناه:

«حيّا الله عيّاد في بيت المُصَوْقَر».

وراح عيّاد يتحدّث عن مصير مشروعهما، وسليمان يُنصت ولا يفهم، وصَنقُور لا ينوي العبور إلى هذا الزّمن ثانية بعد موت أخيه لكنه يُساير صديقه في الحديث، وعيّاد يقترح أن يستأنف كولمن الكويتي عروضه والتقاط الصور الفورية مع الأطفال في الأماكن السياحية مثل شوبيز، النّافورة الرّاقصة، المدينة الترفيهية، صالة التزلّج والجزيرة الخضراء. وحلفَ صَنقُور أن لا يطأ المدينة الترفيهية بعدما قاءَ ما في جوفِه في لُعبة العروسة الدّوارة قبل شهور. وعلى قهقهةِ عيّاد همّ سليمان بمغادرة الصّالون، فسأله صَنقُور إلى أين؟

«صندوق البريد».

قال سليمان وهو في طريقه إلى الحوْش، فأجابه القصاصةُ بأن الرسائل لا تصلُ في اللّيل. وكان صندوق البريد على ما قال صَنقُور خاليًا من رسالة، لكن ظرفًا ممزّقًا وجده سليمان بين قدميه الحافيتين. التقطه وقلّبه بين يديه، وقرأ على ظهره:

من صادق بوحَدَب إلى سليمان بن سهيل وصنقور المُصَوْقَر.

لكنه ما وجد في داخل الظرف رسالة.

***

خريف ١٩٢٠

(61)

الشّمسُ تخذلُ وردتها

My Arabian Days and Nights

أعود إلى الكتابة بعد توقف أسبوعين تقريبا. شغلت نفسي في تلك الفترة بقراءة مقالات حول التداوي بالنباتات كتبها رحالة أمريكيون في أنحاء مختلفة من قارات العالم، وذلك لغرض مقالة أنوي نشرها في مجلة «جزيرة العرب المهملة» حول التداوي بالنباتات في الكويت. قابلت بعضا من النساء المعالجات، وساعدني إدوين في مقابلاته مع الرجال المداوين. وأنجزت الجزء الأكبر من المقالة وبقي جزء صغير خصصته لنباتات جزيرة فيلكا. في الحقيقة لا تختلف نباتات الجزيرة عن النباتات هنا بحسب ما قيل لي، لكن كثير من المعالجين والمعالجات أشاروا إلى امرأة يسمونها «أم الخير» تملك في الجزيرة شجرة أكاسيا -يسمونها شجرة الطلحة- ، يصدق بعض الأهالي بأن لحاء الشجرة التي عمرت في بستان المرأة يشفي الكثير من المشاكل الصحية.

أضاعت مبروكة تعويذة العرافة المسنة مرة ثانية قبل عشرة أيام. قالت إنها استيقظت من النوم على كابوس بعد الفجر. فتحسست ساعدها الأيمن ولم تجد المحفظة الجلدية. ولم تجدها على الفراش ولا في الحمام ولا في أي مكان. ويقول سركيس لمشرف الإرسالية إنه شاهد خيال شخص في ليلة مقمرة يمشي مسرعا في الساحة بين مستشفى الرجال وسكن الممرضات. ويقول إن مبروكة بدأت بالصراخ بعدما خرج خيال الشخص واختفى وراء بيت القس

كالقرلي. لم أكترث بأمر الشبح الذي اختفى وراء بيتنا قبل عشرة أيام، لكني انزعجت اليوم حينما قال سركيس إن خيال الشخص ظهر ثانية واختفى، وإنه عثر على محفظة التعويذة على الأرض في المكان الذي اختفى فيه خيال الشخص، أي أنه سرق التعويذة قبل عشرة أيام وحاول اليوم أن يعيدها لولا أن اكتشف سركيس أمره. حذرت سركيس من نشر هذه الخرافات، لكي لا يبدو سخيفا وهو يبدو مثل أطفال البلدة وهم يتصايحون في الليل أو في ساعات الظهيرة: جاءت أم السعف والليف وجاء الطنطل.

دخلت مبروكة في نوبات تشبه الصرع أكثر من مرة خلال الأيام العشرة الماضية، قبل عثورها على محفظة التعويذة اليوم. وتحدثت باللغة الغريبة التي يرجح إدوين أنها السواحيلية، وصرخت طوال الليل: جاءوا.. جاءوا. جلست معها بعض الأيام قبل استعادة التعويذة في ساعات النهار. حاولت أن أساعدها لكنها بالكاد تتحدث، وإذا تحدثت فقلما تقول كلاما مفهوما. صرت أميل إلى فكرة أن مبروكة تعاني نوعا من انفصام الشخصية. صرخت كثيرا، خصوصا في الليل حينما تقفل على نفسها باب الغرفة في سكن الممرضات. كانت تقول إنها حبلى بولد بعدما زارها الملاك قبل أسابيع. لم أستطع تمالك أعصابي وأنا أكذب حكاية زيارة الملاك وأذكرها بلقاءاتها مع عطاالله قرب صخرة ساحل الوطية. صمتت. نظرت إلى عيني نظرة مخيفة وقالت إن عطاالله عبد القصر كان مخصيا. وأنا أدري أنها تكذب لأني أعرف أن العبيد لا يخصون في الكويت مثل أماكن أخرى. وعاودت مبروكة الصراخ كي لا تتحدث معي. وما كان صراخها يهدأ إلا حينما ترتفع نغمات المزمار الأرمني من

غرفة سركيس في سكن الممرضين المجاور. أما في النهار فقد كانت مبروكة في أكثر الأوقات تعمل في صمت وقد أهلكت صوتها بصراخ الليل.

قبل استعادتها التعويذة، طرقت باب عيادتي ظهر اليوم التالي لفقدانها. دخلت بفستانها الأصفر وقبعة التمريض على رأسها. ما كنت لأسمح لها بعدم ارتداء زي التمريض، لكن مشرف الإرسالية طلب مني السماح لها بارتداء الفستان ما دام نظيفا، حتى زوال أزمتها النفسية. لا أحد يدري حتى هذه الساعة بأمر حملها المحتمل، حتى إدوين وستانلي مشرف الإرسالية. ولا أدري كيف سنتصرف في الإرسالية حيال هذا الأمر لو أشيع في البلدة أن عاملة في بيت الزجاج ارتكبت الإثم وتورطت في الحمل. هذا لو صح خبر حملها.

قالت مبروكة إن امرأتين تطلبان لقائي. وتوقعت أن تكونا ذات الأساور وأم البنات، لكنني كنت مخطئة. أقبلت المرأتان وأجلستهما أمام مكتبي. وأسقطتا عباءتيهما عن رأسيهما بعدما أطبقت مبروكة الباب ورحلت بهدوء. كانت إحداهما قرعاء، تعلك العلكة وهي تتكلم وتصدر صوتا مرتفعا مثل خطوات كعب على أرض رخامية. ظننت أنها من نساء البيوت المشبوهة، لكن الفتاة التي كانت معها هي فضة التي ساعدتها على الولادة قبل أسابيع. توقعت أن القرعاء جاءت تطلب علاج تساقط الشعر أو نوعا من أنواع الثعلبة، لكنها جاءت من أجل صديقتها. قالت فضة إن القبطان بن حامد صادر البيت المرهون بعد رفضها الزواج منه. تعاطفت مع الفتاة لكن أمرا مثل هذا من الخطورة التدخل فيه. وقد كتبت قبل سنوات عن نصيحة الوكيل البريطاني السابق حول التدخل في أمور الأهالي الاجتماعية، حينما

طلبنا وساطته أنا وإدوين لمساعدة موزا في «قبلة»، الصبية التي حبسها أبوها تحت سلم البيت في غرفة في حجم قبر بعدما شك في علاقة الصبية مع شاب. ومرر الكابتن ملكوم آنذاك الموضوع إلى المقربين من الحاكم، لكنهم نصحوا الوكالة البريطانية بعدم التدخل في مثل هذه الأمور، وقال إن لا سلطة لأحد على رجل يربي ابنته، حتى الحاكم لا يتدخل في شؤون البيوت ولو وصل الأمر إلى ارتكاب جريمة قتل فتاة متهمة في شرفها. لكن هذه الفتاة بلا أهل، ولا سلطة لأحد عليها. وعدتها بأني سوف أحاول المساعدة لكني لا أضمن إيقاف الزواج. قلت لها:

-طالما أنك لا تملكين المال ولا تعملين ولا تعتمدين على نفسك فأنت في حاجة إلى رجل تعتمدين عليه.

فهمت الفتاة اللماحة قصدي. وبدا الحزن على وجهها كأنها على وشك أن تقبل بالعمل في الإرسالية، لكنها قالت في حيرة «لكن عيب». سألتها:

-عيب أم حرام؟

لم تفكر، بل أجابت بسرعة: «عيب يعني حرام». تحول وجهها الحنطي إلي الأحمر، وكررت ما قالته حينما زرتها في بيتها، إنها ليست عبدة. بكت وقالت إنها لا تريد إلا مكانا تنام فيه إلى حين يعود رجلها ويخلصها من كل هذا، أما أن تعمل فهذا عيب وإن أهلها لا يسمحون. ذكرتها بأنها قالت لي إن أهلها ماتوا! التفتت إلى صديقتها القرعاء مستغربة قولي، ثم نظرت إلى ثانية وقالت:

-ماتوا، لكنهم لا يسمحون.

لم أقحم نفسي أكثر في تفكير الفتاة، ذكرني حديثها بمقال عن معابد الأسلاف في الصين قرأته في إحدى المجلات. ولا أفهم لماذا ترفض الفتاة العمل في التنظيف ومساعدة الممرضات لقاء مسكن وطعام وراتب بسيط. تستنكف العمل كأنها أميرة، رغم أني أعرف بيتها وأعرف حماتها الطيبة أم سليمان وجاراتها. بيت بسيط وأناس فقراء، لا معيل لهم إلا ولد غواص غارق في دينه وديون أبيه للتاجر بن حامد.

وعلي سبيل محاولة أخيرة قلت لها إن الممرضة -التي أدخلتهما الغرفة قبل قليل- تعتمد على نفسها وتعيش من عملها وهي حرة. سكتت فضّة وفكرت ثم أجابت بنفاد صبر. قالت إن البلدة كلها تعرف أن مبروكة كانت مملوكة إمام مسجد السوق، وإذا صارت حرة فهذا لا يعني أنها لم تكن عبدة. أوقفت الحديث عند هذا الحد، فإصرار الفتاة على الرفض رغم حاجتها إلى العمل أمر لا أتفهمه ولا أحتمله، برغم كل تعاطفي الصادق معها. واعتذرت بأني لا أستطيع المساعدة. وخرجت فضّة وصديقتها القرعاء بعدما احتجبتا بعباءتيهما.

ذهبت إلى مكتب مشرف الإرسالية في مستشفى الرجال. وأخبرته بأمر فضّة وأننا يجب أن نطلب وساطة الميجور مور ليخبر الحاكم، خصوصا وأن لا أهل للفتاة وأن لا سلطة لأحد عليها لتزويجها بمن لا تريد. ووعدني الدكتور ميلريا أن يتصرف، حتى عرف أن طالب الزواج هو بن حامد، فاعتذر.

وفي المساء أخبرني إدوين بأنه سوف يعمل على كتابة جزء ثان لمقالته «حينما يكون الملالي أطباء» المنشورة في العدد 107 من مجلة «جزيرة العرب المهملة» قبل سنتين، حول الإيمان بالتداوي

بالقرآن والكواء. فشجعني على كتابة مقالة، وفي الحقيقة هو من اقترح موضوع التداوي بالنباتات وتركيبات الأعشاب الدوائية عند أهالي الكويت، لأن لا أحد -بحسب علمي- سبقنا إلى الكتابة حول الموضوع. وتحمست لكتابة المقالة على أن أبدأ بالتحضير من الغد خارج ساعات العمل.

وتشاغلت عن أمر الفتاة التي وعدتها بالمساعدة، ولكن يعلم الرب أن هذه حدودي. وأمضيت حوالي عشرة أيام أجمع فيها المعلومات من المداويات بالأعشاب. واليوم، عندما أصبح لدي عدد معقول من المعلومات وجدت أنني جاهزة للكتابة، ولا ينقصني إلا زيارة الجزيرة من أجل لقاء المرأة صاحبة الأكاسيا.

ما وافقني إدوين مساء اليوم حينما أخبرته بأني سوف أذهب بعد أيام مع «خليفة وبس» إلى الجزيرة، قال إنها مخاطرة أن أذهب مع ذلك الشاب في مركب صغير لا يراعي اشتراطات السلامة. وقال إنه سوف يطلب من الميجور مور مركبا بخاريا يؤدي الغرض.

* ملاحظة:

تضاعف وزن مبروكة في وقت قصير. بطنها يتدلى ويوشك أن يلامس الأرض حينما تمشي، رغم أنها لن تلد قبل أسبوعين وفق حساب «خليفة وبس». مزاجها سيء جدا، وتتصرف معي ومع الصغيرات بعدوانية شديدة لكنها وديعة مع إدوين.

* ملاحظة 2:

ظهر الرجل الغريب بعدما صرفناه من المستشفى مرة في السوق، وأثار ظهوره المشاكل. الأطفال يتصايحون إنه وحش البحر

-بودرياه- وبعض الناس يبتعد عنه، والأكثرية ما زالت تشيع حوله الخرافات. زارنا سكرتير القصر يسأل عن النزيل بعدما صرفناه قبل أيام، وقد وصلت أخباره إلى القصر، فقلت له إنه يسكن عند شاب اسمه «خليفة وبس» في بيت قرب سوق الحريم. ومنذ زيارة سكرتير الحكومة لم نسمع اسم بودرياه في صرخات الأطفال، لكنهم ما زالوا يرددون بين الظهيرة والليل: جاءك الطنطل.. وجاءتك أم السعف والليف.

Eleanor J.T. Calverley

Friday, November 05, 1920

PM 11:15

أقسِم بالقلم، وبمن علّم بالقلم، لو أنكِ تَلَوتِ الإنجيل بعهدَيه في سِرّكِ؛ ما خرجتُ من رأسِكِ يا طبيبة ولا طابَ لكِ نومٌ. أُقسم بالخيال وبربِّ الخيالِ إني لابدّ في رأسِكِ وإن عاقَرَتني أسفارُ موسى ومزامير داوود وكُتُب الأنبياء وأعمال الرُسُل. أُقسِم بالكلمةِ وبربِّ الكلمةِ إني كامنٌ لكِ في التّفاصيل شيطانًا يقول الحق. وأُقسِم بالحروف وبربِّ الحروف إني كابوسك الأبدي ما لم تقولي الحقيقة. غادري فراشكِ واهبطي إلى حُجرة المكتب. واعزفي على أزرار آلتِكِ الكاتبةِ فكلانا خائفٌ لا يفهم. كلانا حائرٌ لا يغفو من اللّيل ساعة. وكلانا يقضُّ مضجع الآخر بالكتابة على مبعدة سبعة عقود. أحدٌ يكتب ليجتثّ الحقيقة من حُفرةٍ سحيقة، وأخرى تنقرُ على أزرار الآلة الكاتبة لتهيلَ على الحُفرةِ التُراب. سألتك بدينِكِ ماذا قالت لكِ بخيتة لمّا زرتِها في جناح خُدّام القصر وإمائه، ماذا أجابتك بعد

سؤالك: هل كان عطاالله مخصيًا؟ وماذا كانت تعني المرأةُ متينة الجذع شامخة الطُّول حينما قالت: ماتَ وأخذ سِرّه معه؟

سألتُكِ باسم المسيح كيف فقدَت الممرضةُ حِرزها الحريز ليلة أربعاء مضت. سألتُكِ من يكون ذاك الطّيف الذي ترك فِراشه، في سُبات أهل بيته، وانسلّ إلى سكن الممرضات. سألتُكِ يا إنجيليّة بالإنجيلِ عن الطّيف الذي لمحه سركيس في ساعة سُكر، عن الخيال الأبيض العابر تحت بدر الأربعاء، فدخلَ حُجرة المبليّةِ بذاكرةٍ تصحو اللّيلَ وتنامُ النّهار. سألتُكِ يا طيف بما تؤمنين لِمَ فككتِ عُقدة الحِرز عن عَضُد النّائمةِ الآمنةِ من خُبث الكوابيس. ولِمَ أقفلْتِ يا طيف على الحِرز دُرج مكتبك في العيادة عشرة أيام حتى ليلة أمس، حينما قررتِ إعادته إلى المسكينةِ فلاحَ لكِ سركيس مُقبلًا في ظلام أرض الإرسالية، فأسقطتِ الحِرزَ وتواريتِ عن نظره كيلا يدري أن الطّيف الذي أبصره هو طيف الطبيبة زوجة القِس المحترم. لماذا كل هذا؟ والممرضةُ المعذّبةُ تصرخ وترطن في مكتبك وأنتِ تتحصّنين بكتابك المقدّس، وفي دُرج مكتبكِ حِصنها الحصين وهي لا تدري. تستجوبينها كلّ يومٍ وهي متكوّرة أمامكِ بنفنوفِها الأصفر. ها قد عرفتِ ما عرفتِ، أما زال لديكِ شكٌّ في الحِرز الحريز ذي التّمائم الثّلاث، سِحر أم حَدَب الذي يتّقي الشّرّ ويطردُ الكوابيسَ ويُبارك إنجابَ ولد؟ أم أنه في شرعِكِ خيالٌ يا مَن خبرتِ فِعلَ خيالٍ جاء بي في لياليكِ كوابيس تقضُّ مضجعك بوساوس كاتبِ الأسفار.

قُلتِ إنها تتخيّل الطِّبّ في الحِرز فتُصدِّق بالخيال أنه يَشفيها، فيَشفيها. ما الضّير يا طبيبة فإن الكوابيس في فهمك خيال. لكنك تدرين أن خيالات كوابيس ذات النّفنوف الأصفر وراءها حقيقة.

وتُصدقين بأن ما تراه الممرضة في النّوم ليس خيالات نائمٍ ولا وساوس شيطان ولا ادعاءات امرأة كاذبة. وأنتِ تُنصتين، وتُلملمين حكاياتها إذا ما جلست أمامك في المكتب. تُنصتين إلى خليطِ حديثها بالعربية ورطانة أهلها. تروي مشاهد الكوابيس باكية مذعورة. وأنتِ تُركّبين قولًا على قول، وتُرتّبين صورةً وراء صورة.

لمّا فقدت حِرزَها الحريز وتذكّرت، حدّثت مَن أسموها في سوق «العبيد» مبروكة، فقالت كثيرًا وفاتك كثير. وزهور عبّاد الشّمس تؤثّث صباحات ذاكرتها البعيدة. تصِفُها في الشهول كما لو أنها ماثلة أمامها في التّو. السّيقان الطويلة الدّقيقة والأوراق الخضراء، والزُّهور سوداء الوجه صفراء البتلات، تتبع الشّمس وتُشيّعُها في مسراها بين الشُّروق والغروب. وكان الوقت غروبًا في أرض عبّاد الشّمس التي لا تذكرُ لها الطّفلة اسمًا، يومَ واقعة الخطفِ قبل سبعة عشر عامًا. نبَحت البنادق بارودها في الجوار. فهاج القوم يُحذّرون بعضهم بعضًا من المسلّحين القادمين: «جاءوا جاءوا». فأقبل عليهم المسلّحون ساعةَ غروبٍ ما أشرقت بعده شمس. فيهم من يُشهر البنادقَ ويُطلق النّار في الهواء، وفيهم من يحمل الحبالَ وفيهم من يُلقي الشّباك في حفلة الصّيد الثّمين. وارتفعت صيحاث النّساء والأطفال، ومن يقاوم من الرّجالِ في الحالِ يُقتل. ولا أبقى المسلّحون رجلًا ولا امرأة ولا طفلًا، ولا خلّفوا وراءهم إلا الشّيوخ والعجائز وزهور عبّاد الشّمسِ تُطأطئ مكسورةً صوبَ الغروب.

أيّ صورةٍ صارت عندك يا طبيبة، وماذا قال الخيالُ في كابوس الممرّضة المريضة يا طبيبة يا مريضة؟ وبماذا رطنتْ عن رجلٍ له ما لا يُعد من الزّوجات، يُربّيهنّ كما يُربّي أبناءه بالضّرب. تقول لكِ

بالعربيةِ إنها تمنّت له الموت. فتردفُ بالسّواحلية إنه كان زوج أمّها. وتخبّط فهمُكِ لها بين اللُّغتين. تملئين فراغات المعنى بالخيال، مثلي مع الشّايب الذي يقول كثيرًا، ويصمت عن كثير، فأُعمل في فراغات الحقيقة خيالاتي.

آمنَت الطّفلةُ ذات النّفنوف الأصفر بأن رجلًا جبّارًا مثل زوج أمّها لن يُكسر إلا على يد رجلٍ يفوقه جبروتًا. تخيّلَته مُخلِّصًا يجيء في يومٍ من الشّرق، تتحرّى قدومه مع الشّمس من مطلعِها تحرّيَ الورود الصّفراء. يجيء ويكسر اليدَ التي تمتدُّ عليها وعلى شقيقتها وعلى أمّهما. وجاءَ المُخلّص من الشّرق لكن في الغروب. جاء بالحِبال والشّباك يسبقهُ شررُ البنادق ودويُّها وريحُ البارود. وكسرَ المنتظَرُ ذراعَ الرّجل الجبّار حينما وقف الأخير في وجهه. وكأنما لم تُكسر للرّجل الجبّار ذراع. حالَ دون دخول المُسلّحين على أهله. وقفَ مثل شجرةٍ عملاقةٍ مكسورة الغُصن على باب كوخِه، فأسقطته رصاصةٌ مثل ورقةٍ متقصّفةٍ بين بيوته الكثيرة. وأما النّساء والأطفال فقد قادهم المُخلّص إلى الشّرق مقيّدين بالحبال، تلفظُهم الأدغال إلى البحر حيثُ استقرّت سفينةٌ جمّعتهم في رحلةٍ قصيرة إلى جزيرة، وصلتها الأم وطفلتها الصّغرى، أما الكبيرة فلفظت أنفاسها ليلة الإبحار إلى زنجبار تحت رجل سمين، أسبل إزاره الرّطب فألقاها من السّفينة وجبةً لأسماك المحيط. وما استقرّت الأمُّ وصغيرتها والمخطوفون طويلًا في جزيرة زنجبار، حتى فرّقتهم الشّفن المبحرةُ إلى أسواق «العبيد» في جزيرة العرب.

وفي قَعر السّفينةِ تحت أكداس البشر اختفت الطّفلة، مخنوقة بعَرَقٍ وقيءٍ أجسادٍ أنهكها العطش والجوع والمشي الطّويل في

الغابات ودُوار البحر. صرخت، لكن الصّرخة ظلّت حبيسةً تحت اللّحم الحيّ المتراص في فوضاه في خُنّ السّفينة. زحفت وزاحمَت وتسلّقت وبالكاد بعد ساعات بلغت السُّلّم. رجَت الرّجال في السّطح أن تشمّ الهواء. فأخرجوها كي لا تموتَ وشمّت الهواء، فأُعيدت بعدما ضُربت وهي تمقُت الضّرب. فأمّلت نفسها بمُخلّصٍ ينتزعها من الرّجال المسلّحين، ليس ضروريًا أن يُكسِّر أيديهم هذه المرّة، فليحملها بيده بعيدًا عنهم وحسب. وفي سوق «العبيد» في مَسْكَت وافت أُمّها في المزاد نفسِه. سمعتها تُنادي بأعلى صوتها: مَزْيَمو! فالتصقت الطّفلةُ بالأمّ تنتظر من يُخلّصهُما من هذا المكان. لكن أمها بيعت لنخّاسٍ حجازي، وبقيت الطّفلة وحيدةً، صغيرة ذات سبع، تبدو أصغر بضفائرها الطّليقة، ولا يُقبل عليها أحد. فأسماها النّخاس مبروكة، وصاح يُعدّد مزاياها، ورفع ثوبها الأصفر عن أطرافها، فكبُرَت في عينيّ تاجرٍ كويتي أعجبته الـ «العبدةُ» طفلةً ساكتةً لا تشبه البكّائين من الأطفال في سوق «العبيد». اشتراها وعبر بها البحر إلى الدّيرة سنة بناء قصر السّيف، لكن السّاكتة أطارت النّوم من عيون أهل البيت بصراخها طول اللّيالي، تصيح برطانة أهلها فور وصولها الدّيرة: جاءوا.. جاءوا. فآمن مالكها بأن بضاعته المشتراة ممسوسة بالجِنّ وما خلّصها من صراخ الكوابيس إلا كبيرة صاجّات الدّيرة آنذاك. كوَتها أُم حدَب فوق جبهتها عند مفرق الشّعر، وحصّنتها بحِرزِها الحريز، فكفّت الكوابيس من فورها.

بلغت السّابعة عشرة في بيت التّاجر الذي زوّج إماءه من عبيده إلا هي. تنطُّ في مخيّلتها صورة زوج أُمّها كُلّما طلبها «عبدٌ» للزّواج، وصورة شقيقتها عاريةً ممدّدةً تحت رجل سمين على سطح السّفينة

تصيح عليها: احذري الرجال! فترجو سيِّدَها ألا يُجبرها. وتتذكّر انتظارها المخلّص الذي خذلها، فتقطع على نفسِها عهدًا ألا تنتظر مُخلّصًا لن يجيء. وبقيت في بيت التّاجر من دون باقي «العبيد» العَزَبة الوحيدة، لا تمنح نفسها لسيِّدها ولا تقبل وداد «عبد». حتى أجبرها سيِّدُها على الزّواج درءًا لفتنة «عبيد» بيته. رفضت فضربها، فثارت ثورتُها وهي التي ما كرهت شيئًا منذ عيشها في بيت زوج الأمّ مثل الضّرب. وما هدأت ولا سكتت حتى أهداها التّاجر إلى جاره مُلّا مسجد الشّوق بعد وفاة زوجته ومرضه. حفظت في بيت خصيم الصاجّات القرآن. وتعلّقت روحها بـ مريم ذات الاسم الشبيه باسمها القديم؛ مَزيَمو. وهامت بفكرة عيسى الذي أنجبته امرأةٌ بغير رجل. وما حلمت بنصيبٍ من الرّجال إلا بواحدٍ تحمله في أحشائها. تُنجبه وتصنع منه الرّجل الذي تشتهي، المخلّص الذي ما أرسلته إليها السّماء قط.

وما كان ليجيء المُخلّص لو أنها بقيت في بيت المُلّا عبدالمحسن متخفيةً بعباءتها، فاقتنصت فرصة سانحة مع طبيبةٍ مُبَشّرة، طلَبتها من سيِّدها أملًا في مهتديةٍ تُعلنها في الإرسالية التّبشيرية أولى مهتديات الكويت إلى المسيحية. وما فرحت مبروكة بُحريّتِها وهي الحُرّة في عبوديتها أكثر من حرائر الدّيرة قاطبة، لكن تحقيق الحُلم خارج بيت المُلّا صار أقرب. والمُخلّص الذي لم تُرسله السّماء، سوف تستولده مِن جوفها في مكانٍ مباركٍ مع شابٍّ غِر، عند صخرةِ الوَطْية في الحيّ القِبلي، لكن ذاك الشّاب كان مخصيًا.

أكتبي يا طبيبة ما يدريه كلانا، أنكِ ما شغلتِ نفسكِ بمقالةِ التّداوي بالنباتات، وأنك انقطعتِ عن العزف على آلتك الكاذبة من أجل ما

لن تكتبيه في مُذكّراتك الخالدة أبدًا، ولن تُرسليه إلى مجلة «جزيرة العرب المهملة»، ولن تنشره لك دار النشر الأمريكية Thomas Y. Crowell.

أكتبي يا طبيبة، ودعي آلتك الكاتبة تقول ما تُصَدّقين. إن ما تُسمينه الخُرافة يجيء بالعجب. اكتبي أنك في النّهارات العشرة الماضية كنتِ تخرجين من العيادة مثل المجنونة، كُلّما صاحَ أحدٌ في الظهيرة يُخيف الأطفال: جاءك الطّنطل. تُديرين رأسك في كُلِّ مكانٍ تحت الشّمس، تبحثين عن ظِلِّ الوحش الخرافي الطّويل، ولا تلمحيه على رمال السّاحل ولا على جدران البيوت. أكتبي أنك فيما مضى من ليالٍ عشر كنتِ ترتقين سُلّم البيت إلى السّطح، كُلّما تشظّت أصداء صيحات أُم السّعف واللّيف في فضاء اللّيل: ما مات سليمان وهذي غترته. فتُكذّبين ما سمعتِ، ثُمّ تُصدّقين أُذنيك إذا ما لحقَ صوتَ المرأةِ صوتُ ناطور اللّيل: «ها؟ من هناك؟».

الكلُّ يسمع الحقيقة، وأنت تسمعين. ولا أحد يكتب الحقيقة، ولا أنتِ تكتبين. فاكتبي يا طبيبة، أن مبروكة تماثلت للشّفاء من كوابيسها ثانية بفعل ما تسمينه في مذكراتك تعويذة العرّافة المُسِنّة، وهي حِرزُ الصاجّة أم حدَب، بعدما عثر عليها الأرمنيُ في ساحة المشفى، لأن الطّيف الهارب، أيّتها الطّيف الهارب، رماها وهرب. وأنك خسرتِ ثانية. أكتبي وقد أعاد الطّيفُ حِرزَ الممرضة المسروق فطابت روحُها. أكتبي يا طيف أنكِ ناديتها إلى مكتبك اليومَ والحِرزُ معقودٌ على عَضُدِها بعدما استعادته فاستعادت سكينتها. أكتبي أنك لمّا سألتِها عن كوابيس أرض عبّاد الشّمس، والرّجل الجبّار ضرّاب زوجاته وأبنائه، استغربت الممرضةُ وهي تتحسّس الحِرزَ على

عَضُدِها اليُمنى، تبتسم وتقول قولَ صخرةِ الوَطية العجوز بعدما تغمرها مياهُ المدّ:

«أنا لا أتذكر».

أكتبي أو لا تكتبي. أو نامي يا طبيبة فأنا مثلك قد تعبث وأُريد أن أنام، وليلي يضجُّ بهواجس الشّايب اللّعين. نامي إن استطعتِ مع وساوس كاتب الأسفار، واللّيلُ عندك يضجُّ بصيحات أُم السّعف واللّيف، السّعلُوَة التي يعيشُ اسمها أبد الدّهر على ما قالت أُم حدَب، شأن وحشِ البحرِ بُوُدَرياه والطّنطَل، يُرعب المشاغبين من الأطفال جيلًا بعد جيل.

***

صيف 1990

(62)

ليلة اغتيال كاتب

«هذه الحكايات.. سوف تدخلك في مشكلة»

الشّايب

تهيأ بوحدَب للخروج من مكتبه في العاشرة ليلة السّبت، بعدما هاتفته الفنانة التّشكيلية، وأخبرته بأنها أوصلت الرسالة إلى البيت رقم 301 في كيفان قبل أكثر من ساعة. حملَ ميدالية مفاتيحه والبيجر والجريدة، وهو يشكُّ في أن الغد سوف يجيء بـ سليمان على عنوان مكتبه، لكنه لسبب يجهله يتمنّى، وإن أقنع نفسه بغير ذلك.

دخل المصعد يُفكر فيما قد يحمله الغد، وهو لا يملك أي تصوُّرٍ إلى أين تُفضي به هذه التّجربة الكتابية غير المألوفة. وبالكاد توقّف به المصعد في الدّور الأرضي؛ حينما سبقه أحدٌ بفتح الباب الحديدي، وسدّ المخرج بكرشِه. وقف الاثنان يُحدّق أحدهما إلى الآخر. لا هذا يخرج ولا ذلك يدخل. فنطقَ الواقفُ على باب المصعد بصوتٍ غليظٍ أجش وهو يحمل مطواةً في يمينه:

«أنت صادق بوحدَب؟».

ظلّ كاتب الأسفار في سجنه الصّغير والرّجل بكرشِه يشدُّ عليه الطريق. وكلاهما يحاول أن يتذكّر أين رأى الآخر من قبل. أوشك بوحدَب أن ينكر التّعريف بنفسِه أمام الشّاب المكوي على رأسِه، لكنه لسوء حظّه هزّ رأسه بنعم. فكوّر الرّجل لسانه وشفتيه مثل

فُوّهة البندقية، وعاجله ببصقةٍ استقرّت في ضميره وأردته مُمدّدًا على أرض المصعد. فشتمه الرّجل واتهمّه بما ليس فيه، وما سَمِعَ لـ بوحدَب صوت. *أنا عدو الله؟!* وأطبِق الباب الحديدي. *انقطع النور.* وبوحدَب مُمدّدٌ على أرض المصعد في الظلمة. *أنا واقف على ساقَيّ لكن.* ووجيب قلبه يتسارع. *لكن المكان مُظلم.* وهو في إغماءةِ المصعد تُفزعه الكوابيس. *أنا أعرف هذا الرجل.* وصفير سيارة الإسعاف يخترقُ أُذنيه. *رأيته لكن أين؟* ووميض الإسعاف الأخضر يؤرجح خياله في أسفارٍ ما زالت تُكتب. *أين أنا؟* وهو محمول على نقّالة المسعفين ينزفُ كرامةً أهدرتها بصقة الرّجل الغاضب.

وأمضى اللّيلة في جناح الطوارئ في المستشفى الأميري إثر نوبة ارتفاع ضغطٍ حادّة. بقي تحت الملاحظةِ سيئ المزاج رغم المُهدئ المحقون في وريده. ونقله الطّبيب صباح اليوم التّالي إلى غرفة خاصة. تحقّقَ من البيجر فور ما استعاد عافيته، ووجد اتصالًا من الشّايب، واتصالات كثيرة من فياصل. هاتفها وأخبرها ببصقةِ البارحة، وأنه في المستشفى الأميري، وما أمهلته ليُطمئنها وهي تُنهي المكالمة:

«أوكي.. رُبع ساعة وأكون عندك».

تندّم على مهاتفتها، لكنها صديقة، وهو وإن لم يكترث بوجود صديقٍ في ظرفه هذا؛ فهو يحتاج إلى من يقِلُّه إلى سيارته في المواقف وراء عمارة ثنيّان الغانم. نقّل سبّابته المرتعشة على أزرار الهاتف يطلب رقم الشّايب. وانفلتَ يكيلُ له السِّباب، ويتّهمه بأنه كان يدري أن تافهًا سوف يبصق في وجهه، وإن حكاية الرّسالة كلها كانت من أجل هذا السبب، وإن كان قد احتمل كل مشاكل هذه الرواية

فإنه لا يحتمل أبدًا، ولا يجيء له على بال، أن يبصق في وجهه أحد.

«هدئ أعصابك بوحدَب.. الزلزال قادم فتمسّك جيدًا، والمشكلة لم تبدأ بعد.. في هذه الرواية قد يكون موتك».

ما فاه كاتب الأسفار بكلمةٍ ولا انفرجت شفتاه إلا عن لهاثه. عاد صوتُ الشّايب في السّماعة:

«..أدري أنه بصق في وجهك، وإن أردت الحقيقة، كان ينبغي أن يُبصق في وجهك منه أو من غيره، لأنك كدت أن تفشي سِرّ التّبّة لصديقتك الرسامة.. اِتفُوْهْ!».

وتلقّى كاتبُ الأسفار بعد حديث الشّايب بصقة طازجة فوق بصقةِ البارحة. فصرخ يُقاطع مُحدّثه وهو يشتمه بأقذع الألفاظ، وتسارع ثلاثة من الممرضين يقتحمون الغرفة. أحدهم يستلُّ سمّاعة الهاتف من يده، والآخر يتحقّق من مؤشرات الشّاشة، والأخرى تحقنه بالمهدئ.

وفتح جفنيه بعد ساعة، أكثر أو أقل، وأبصر فياصل تجلس إلى جواره، وقد وضعت طاقة جوريّ أبيض على طاولةِ السّرير. نظر إلى الأمام كأنما هي غير موجودة. قرّبَت مقعدها إلى سريره أكثر، وحدّقت إليه مليًا قبل أن تقول:

«هل صدّقت الآن؟».

«سيارتي عند المكتب.. أوصليني».

قال لها دونما رغبةٍ بحديثٍ أكثر. فاقترحت أن يمكث تحت ملاحظة الأطباء إلى حين الاطمئنان عليه، لكنه أصرّ على الخروج

من المستشفى:

«يجب أن أكتب».

«أوكي أوكي.. لكن اسمعني لو سمحت.. اترك هذا المشروع فإنه لا يناسبك في هذا الوقت.. لا تزعل مني صادق، لكن.. أنا لا أصدق أن كاتبًا كبيرًا تُسقِطه بصقة!».

ارتعشت شفتاه وما فاهَ بكلمة. *لو كان صغيرًا ما أسقطته*. وهو يتذكر خطبة عمران آل كريم عين المسجلة على الكاسيت. وخرجا من المستشفى برخصةٍ من الطّبيب، وكانت سماءُ الظُّهر مُدلهمةً بشحبٍ من تُراب. نفثَ بوحدَب جرعة من الفنتولين في فمه قبل أن يتلفّم بغُترته. وانطلقت سيّارة فياصل تخترق الغُبار الأحمر من «شرق» إلى «قِبلة». ورجته الصّديقة طوال قيادتها في شارع الخليج أن يضع حدًّا لخيالاته المُنفلتة، وأن شخصية سليمان ليست موجودة خارج أوراقه، وأن الطّفل كولمن الكويتي لا شأن له بشخصية صَنقُور ابن خادمة المقام في الرواية، وأن أحدًا لا شكّ يقفُ وراء هذه اللُّعبة السّخيفة التي يجب أن لا يتورّط فيها أكثر، حفاظًا على صورته كأديبٍ مُكرّس، وكاتب مُقدّر، خارج الكويت على الأقل.

«أوكي صادق.. ماذا لو كان صحفيٌ سخيفٌ يقفُ وراء هذه المزحة لينشر تفاصيلها في الجرائد؟».

قالت فياصل وهو يُنصِت بلا قول، يُرسل بصره وراء زجاج النّافذة في غزوة الغُبار المباغتة، وينظرُ إلى قرية «يوم البحّار» عن يمينه والبحرُ وراءها رماديٌّ هائج. وأكملا الدّرب إلى قِبلة صامتين،

حتى انعطفت السيّارة عند دوّار الجهراء يسارًا، فأوقفت فياصل السيّارة فجأة منتصف الطريق عند مدخل شارع فهد السّالم، وزعقت العجلات وأطالت فياصل الكبس على الزّامور وهي تشتمُ عابرًا ضخم الجسد قطع الشّارع فجأة. والتفتَ بوحدَب يمينًا إلى الشخصين اللذين تخلّفا عن العبور وراء صاحبهما العملاق. تَسارع وجيبُ قلبِه وجحظت عيناه من وراء لثامِه. نقّل بصره بين الثّلاثة كأنما انبثقوا وسط الهواء المُترب مثل لوحةٍ سوريالية، أو لعلّه الخيال؛ رجلٌ كبير الأُذنين ضخم الجُثّة بجلّابية رمادية فضفاضة واسعة الكُمّين، وطفل الجرائد المسمى كولمن الكويتي بجينزه الأزرق وقميصه الأحمر، وشابٌ يُكوِّر الغترة على رأسه بلا عقال، سماويُ الدّشداشة مطوي الياقة حافي القدمين، كأنما اقتُطع من صور رحّالةٍ أجانب مرّوا بالكويت قبل عقود. طاردت فياصل الرّجل العابر بصياحها حتى أخفاه الغُبار عند محطة حافلات النّقل العام على الرّصيف المقابل. وبوحدَب ما زال يُحلق إلى المرآة اليُمنى، يُبصر الاثنين على رصيف العمارة ينظران إلى صاحبهما الذي اتجه صوبَ المحطّة. فيقطعان وراءه الشّارع. بُهتَ. بودِّه أن يقول لـ فياصل إنهم هُم، إن الرّجل الضخم هو عيّاد حارس القرية التّراثية، والثّاني هو صَنقُور ابن خادمة المقام، وإن ثالثهما سليمان بِن سهيل لا شكّ! وإن الأخيرين جاءا من أمس عبر الموجة السّابعة، لكنه سكت عن القول. ماذا لو قالت إنها لا ترى ما يرى؟ وماذا لو رأت؟ والشّايب قال إن أحدًا من خارج الأسفار لا يحق له معرفة سِرِّ التّبّة كي لا يموت صَنقُور.

أنزلته فياصل عند مواقف السيّارات في ظهر العمارة. ترجّل

وأطبق الباب فطرق النّافذة ببرجُمِ سبّابتِه، فأنزلت فياصل الزُّجاج. انحنى يطلُّ برأسِه المُلثّم إلى الدّاخل، ركّز نظره في عيني صديقته:

«أنتِ مُحقّة في كل ما تقولين.. هي مجرد مُزحة سمجة، ثُمّ إني ما زلت متأثرًا بشخصياتٍ أكتبها منذ سنوات حتى صرت أتخيّلها فتداخلت في رأسي الأمور.. اِنسي الأمر فياصل.. مشكورة على التوصيل..».

ابتسمت وهي تُطيل النّظر إلى عينيه بغير اقتناع، واستطرد بوحدَب يبتسم:

«..لا تقلقي أنا بخير.. في أمان الله».

أدار ظهره وركب سيّارته، وانطلقت من الكاسيت نغمةٌ على إيقاعِ السّنكِني رنّت في أذنيه، ومَضت في رأسِه صُوَر الفتى الحافي يقطعُ الشّارع وراء صاحبيه. واستعاد ساعة بصقة المصعد. فتعرّق جبينه وتباطأت نبضاته تُحاكي إيقاع الطّبل والصّنج في الكاسيت، فتسارعت تواكبُ التّصفيق. وانطلق إلى شارع الرّصيف المقابل، لكنه ما أبصرَ بين العُمّال المنتظرين في المحطّةِ ثلاثةً قطعوا الشّارع قبل دقائق. *خيال؟* وانعطف بسيّارته ينوي مواصلة الكتابة في البيتِ ما دام هذا الغُبار عالقًا في الهواء السّاكن. لكن عليه أن يتّصل بالشّايب قبل أن يكتب ما لا يدري.

***

حينما قفل آدم من عمارة ثنيان الغانم إلى بيت المُصَوْقَر ليلة بصقة المصعد، وجد سليمان في الحوش ينتظر، وفي يده الظرف الخالي من الرّسالة. وما كاد الفتى يسأل المُقبلَ حتى امتدّت إليه يدُ

الأخير بالرّسالة، وناوله كيسَ ساندويتشات العشاء وهو يقول:

«تعشُوا.. أنا أكلت في السيارة».

واتّجه آدم إلى حُجرته المقابلة لحُجرة الرّاحل مستور الكبير. وقال لـ سليمان قبل أن يختفي:

«تصبح على خير.. أنهيث ما عليّ، وهذا عنوان الكاتب في يدك.. دع عمّي صنقور يأخذك إليه بِتَكسي أو وانيت أو باص أو حتى مشيًا على أرجلكم فالمسافة ليست بعيدة عن كيفان».

فدلفَ إلى حُجرته وصفقَ الباب. وركضَ سليمان يبحث عن القصاصة وحارس القرية الثّراثية في حجرة مستور القومي. فألفاهُما في الظلمة في الحُجرة يقعُدان في غيمةِ دُخان، يتسامران على ضوء شمعة، وقصبة النّارجيلة بينهما تتنقّل.

اعتدل صَنقُور في جلسته حينما رأى كيس السندويتشات، تلمّظَ وفركَ يديه واسع الابتسامة قبل أن يلمح ورقةً مطوية في كفِّ سليمان الذي جلس إلى جوارهما. انطفأت ابتسامته وسأل:

«وصلَت؟!».

فتح سليمان ورقة الرّسالة على الأرض، ومالَ هو وابن خادمة المقام يقرآن على ضوء الشّمعةِ في سِرّهِما ما لا يدريه عيّاد.

إلى حضرة جناب قارِئَي أسفار مدينة الطين السيدين خفيفَي الظل سليمان بن سهيل وصَنقُور بن آدم المصوقر.

حفظهما الله وداما محروسَين

بعد السلام عليكما؛

نرسل إليكما خطنا هذا من مكتبنا الكائن في قِبلة، عمارة ثنيان الغانم، شارع فهد السالم، الدور الثالث، مكتب صادق عبدالرزاق بوحَدَب.

ردي على الرسالة ليس من باب التصديق طبعًا يا شاطران، لكني مستمتع بلعبة المراسلة المفترضة بين الروائي وشخصياته. حيّاكما الله في مكتبي على مدار الأسبوع، من السادسة صباحا حتى الثانية بعد الظهر، ومن الخامسة حتى العاشرة مساءً. أتطلع إلى لقائكما.

كتبنا خطّنا هذا اليوم السبت الرابع عشر من يوليو 1990.

أمانة أبلِغا تحياتي لأم حدب وأم صنقور وصاجات مدينة الطين كافة.

هذا ما لزم ودمتما محروسَين

كاتب الأسفار

ص.ب

وطوى سليمان الرّسالة ووضعها في مَخْبَى دِشداشَتِه وهو ينظُرُ إلى عينيِ صَنقُور الحمراوين. فقال له رفيقُ التّبّة وهو يمدُّ إليه قصبة النّارجيلة:

«غدًا نكون عنده مع طلّة الشّمس».

وسحبَ سليمان مِلءَ رئتيه نفَسًا طويلًا، فذكّره صَنقُور أن يحبس الدُّخان في صدرِه، فحبسَ. فغرّدت في رأسِه جمهرةٌ من البلابل

وارتخى جفناه وابتسم. فانفجر عيّاد بالضّحكِ أمام هيئةِ الفتى الذي انقلبت حاله إلى السّكينة. قال سليمان للقصاصة:

«كنت أخشى أن نعبر التّبّة ثانية قبل أن أراه وأفهم منه كل شيء».

وارتبك صَنقُور لقولِ سليمان بحضور عيّاد. قاطعه وأمسك بكيس السندويتشات: «لا كلام على طعام»، وأحدث جلبة وهو يُردّد: «العَشا العَشا العَشا». وفتحَ الكيس وراح ينادي آدم بأعلى صوته الحاد. وما ردّ آدم القابع في حُجرته في الأسفل. فأخبره سليمان بأن آدم سبقهم إلى العشاء. استغرب صَنقُور، فاستأذن خارجًا من الحُجرة.

والتفتَ سليمان إلى جواره في الزّاوية، يُبصر ما تُتيح الشّمعة رؤيته من مُخلّفاتٍ ظلّت باقيةً في حجرة مستور القومي، حُجرةٍ ما فُتحت منذ ثلاثٍ وعشرين سنةٍ إلا لزيارات صَنقُور من أمس؛ أسلاك كهربائية وأجهزة لا يتعرّف من بينها إلا الغرامافون على ما أبصره في دكّة جدار مقهى بوناشي قبل عبور التّبّة، قبل أن يُحرّمُه كريمُ العين فيُزيله صاحب المقهى. قلّب الفتى الأسطوانات بين يديه، يُشاهد الصّور ويقرأ الكلمات على حافِظات الأسطوانات. لا يعرفُ في إحدى الصور حامل العودِ صاحبَ النّظارة السّوداء حليق الذّقن والشارب، لكنه حينما قرأ تحت اسم الأغنية «العجايز» اسمَ صاحب الصّورة؛ فغر فمه وقال لـ عيّاد:

«أنا أعرف هذا الرجل عندما كان شابًا، كان نهّامًا في سَنبُوك بِن حامد، ودخلت معه الغوص وسهرت معه في الحَوطة!».

فأشار عيّاد بسبّابته صوب أسطوانةٍ حمَل غلافها صورة بالأسود والأبيض لرجل مشذّب الشّارب أشيَب السّالفَين بهندامٍ إفرنجي:

«وأنا أعرف هذا».

فقرأ سليمان ما خُطّ على غلاف الأسطوانة: «مُختارات من خُطَب الرّئيس». وبدَت له كلمة خُطبة غريبة في ديرة الشّمس المنطفئة هذه، وهو الذي ما عرف الخُطب في زمنه إلا في منابر مساجد الطّين، لكنها منذ عبوره التّبّة ما انفكّت تُلاحقه؛ في نشرات أخبار التلفزيون، وفيما قرأ من جرائد، وفي كاسيت سيارة آدم.

وعلى ضَوع بصل شاورما اللّحم وثوم شاورما الدّجاج سأل عيّاد في غيبة صَنقُور:

«ما حكاية التّبّة؟».

«التّبّة؟ ألم يُخبرك صَنقُور؟».

سأله سليمان وهو يُناوله قصبة الدُّخان. فتلكأ عيّاد وسارع يسحبُ نفسًا قبل أن يُجيب:

«هو قال لي طبعًا.. لكن بصراحة مَفْهِمتِش».

أطال سليمان النّظر إلى أُذني عيّاد الكبيرتين، فأحكم لفّ غترته حول رأسه، وانبرى يروي حكاية عبور التّبّة يوم ولادة الهلال بعد صلاة الفجر، من الغطس في الموجة السّابعة عند صخرة الوَظية قبل سبعين سنة، حتى ظهورهما في لمح البصر عند القرية الثّراثية قبل أسابيع. وعيّاد يُنصت سارحًا في عجائب خيالات سليمان، يكتمُ ضحكه، ويُعجَب بصنف دُخان «الجوزةِ» المُعتبَر الذي طار بالفتى الغِرّ من أوّل نَفَس، لكنه وجمَ حينما دسّ الفتى كفّه في مَخبى دِشداشَتِه وأخرج منها الرُّوبِيّة القديمة. قلّبها عيّاد بين أصابعه وهو

يُنقِّل بصره بين وجه سليمان ونقش الملك الإنكليزي على وجه العملة. وتنحنح سليمان قبل أن يسأل العملاق المشغول بالقطعة النقدية:

«عيّاد.. لماذا تبدو أُذُناك كبيرتين جدًّا على هذا النحو؟».

ضحك عيّاد على ملاحظة الفتى قبل أن يقول:

«مات أبي رحمه بعدما وُلِدت.. لكن أمي، رحمها الله، تقول إني ما ورثت منه إلا الفقر وأُذُنَيّ».

***

«خُذ هذا الولد يا عمي واذهب به إلى الكاتب على العنوان الذي أرسله، أما أنا فلن أذهب معكما».

قال آدم لـ صَنقُور الذي جاء يدعوه إلى العشاء، رافضًا أن يلعب لُعبة غير نظيفةٍ مع الكاتب المهرطق الذي يتعامل بالسِّحر. قال إنه قرأ من الكتابين قليلًا قبل أيام، ونَسَخ بعض الطّلاسم في ورقةٍ وحملها إلى خطيب مسجد الخصيمي، وقرأ منها الخطيبُ:

نَاغ طؤعَس بَهَمُوث

باسمِ هاروت وماروث

يقول آدم:

«..فحرق الشّيخُ الورقة في باحة المسجد بعدما قرأ عليها آيات إبطال السِّحر. وقال إن كاتب هذه الكلمات ساحرٌ خبيث. ففهمت كل شيء يا عمي.. كل شيء منذ كنت طفلًا.. كذبتم عليّ حينما

أخرستموني عندما سألت من أين تجيء في كل مرة.. تقول من فيلكا.. وكنت تحلف أنك تجيء من الجزيرة وما كذبت.. لكن كذبت حينما كبرت وسألتك لماذا لا تكبر ولا تتغير. فاعترفت بكل شيء، وبسِرِّ التَّبَّةِ لكن حذَّرتني من أن أفشيه لأحد، لأنك لن تعبُر التَّبَّةِ ثانيةً ولن تزورنا لو انكشف سِرُّها.. كذبت ولم تقُل لي إنك تعمل كما يعمل هذا الكاتب في السّحر والشعوذة.. الساحر بوحَدَب الذي يجيء بك بسِحره.. ويصرفك بسِحره.. والسّاحر كافر.. وأنت لا أدري ما أنت.. أتحسبني غافل عن سلسلة الصليب التي تحملها في جيبك أينما ذهبت؟! منذ وصولك وغسل دشداشتك وأنا أفكر لماذا يحمل عمُّ جدي صليبًا في جيبه وهو يصلي معي في المسجد خمس مرات؟! ما عقيدتك ما مذهبك فأنا لا أفهم! وها أنت تجلب عيّاد وتدخله بيتنا وهو يوشِم كفَّه بصليب.. هذا كثير يا عمي».

دسّ صَنقُور كفَّه في مخبى دِشداشَتِه يتحسّس السّلسلة الذَّهبية:

«وجدتها في الوطية على السيف قبل عبور التَّبّةِ يا حفيد ابن أخي.. ذهب.. هل أرمي الذهب؟».

أجاب صَنقُور وقد كبُر في نفسه اتهام قريبه الذي استطرد:

«اعلم يا عمي أنك لو جئت في تَبّةٍ قادمة.. فإن بيت المُصَوْقَر يتعذَّرك».

ووقعت العبارة في نفس صَنقُور موقع وجَعٍ استطعم مرارته تحت لسانه، فترحّم على شقيقه مستور الذي رحل مع شايِهِ الحلو في الوقت المناسب. وخرج من حُجرة آدم إلى حُجرة مستور القومي. يقطع الممرّ القصير وهو يُفكّر في قول ابن حفيدِ أخيه. بيت

المصوقر يتعذّرني؟ فقرزّ في دخيلتِه ألا يعبُر إلى زمن بيت كيفان قط، وأن يكتفي بزياراته إلى مستور الكبير في بيت المرقاب القديم، قبل هدم الشور وقبل أن تُثمِّن الحكومة بيوت الدِّيرة وتشتريها، وقبل أن يولد آدم. هكذا قرّر، لا عبور للتّبّةِ إلا في أزمان مستور الكبير، وآدم الوطني، ومستور القومي، ولسوف يتوقّف عند ذلك الزّمن الأخير. زمن الشّاي الذي يطيبُ طعمه، ويصيرُ في صُحبةِ الأخوين أحلى.

***

عاد صَنقُور إلى حجرة مستور القومي، وتربّع على الأرض إلى جوار عيّاد وسليمان. مدّ يده إلى قصبة النّارجيلة وهو يقول إنه لا يشتهي الأكل. سحبَ نفسًا واستطرد بأنه يشتاق إلى العودة، وأن الغرض الذي جاءا من أجله سوف ينتهي في الغد عند لقاء الكاتب. فقال عيّاد وهو يُقلّب حكاية العبور الخيالي في رأسه:

«تشتاق العودة إلى أين؟».

قرقرت النّارجيلة طويلًا قبل أن يُجيب صَنقُور بغير نفَس:

«ألف مرة قلت لك يا عيّاد! لا تسأل وإلا لن أعود.. والله لو قلت لك من أين جئنا فإني لن أعود! حلفت لك بالله لكنك يا مسيحي لا تعرف الله!».

بُهت عيّاد ونظر إلى سليمان، وغارت رقبة سليمان بين كتفيه وهو ينظر إليه. وطالت نظرة الاثنين أحدهما إلى الآخر تُضمر سِرًّا كُشِف قبل قليل لكنهما يسكتان عنه. وما بدا على صَنقُور أنه انتبه إلى فداحة اتهام الرّجل في إيمانه، يسحبُ النّفَس تلو النّفَسِ حتى

انطفأ. وما فاه في الجلسةِ أحدٌ حتى خمدت شعلة الشّمعة وفاح ضوعُ دُخانها في الظّلام. وعَلا الشّخير الثّلاثي طول اللّيل يُحاكي هدير مُكيّف الهواء. ولمّا أصبح صُبح الأحد وفاتتهم صلاة الفجر، بعد الشّروق صلّاها صَنقُور وسليمان. وفي السّادسة خرجا من البيت وراء عيّاد الذي يحفظُ أرقام ومحطّات حافلات النّقل العام مثلما يحفظ اسمه. وفي الحافلة لامَ عيّاد صَنقُور على اتهام البارحة:

«أنا لا أعرف الله يا كولمن؟».

وما فاهَ صَنقُور برد. وقُبيل السّابعة نزل الثّلاثة عند أولى محطّات حافلات شارع فهد السّالم. مشوا مُقابل دُوار بوابة الجهراء، بين الأعمدة الخرسانية الأسطوانية والمحال التّجارية أسفل عمارة ثنيّان الغانم. وأصحابُ المحال والمارُّون من العُمّال والموظفين تلتفُّ وجوههم حول الثّلاثي المريب، في صورة هي إلى الكولاج الفني أقرب في هذا الطقس المشبع بالغبار؛ كهلٌ عملاقٌ بجلابيةٍ واسعة الكُمّين يتقدّم الطّفلَ الشّهير كولمن الكويتي بلباسه الإفرنجي، يتبعهما شابٌ بِدشداشَةٍ سماوية الزُّرقة حافي القدمين. ويستغرب سليمان الدّيرة التي ما عادت الدّيرة، ويتساءل ما الذي جاء بالهنود بعدما كانت سُفننا تُسافر إلى ديارهم.

دخلَ الثّلاثة العمارة من مدخلها المُطِلّ على شارع الشّور. ورفضَ سليمان أن يركب المصعد خشية هلعٍ دهمه في مصعد المركز الوطني قبل أيام، فقطع عيّاد السّلالم شعالّا تردّد صداهُ في بهو العمارة حتى بلغوا الطابق الثالث. ومكثوا عند باب مكتب بوحدَب ساعاتٍ وما جاء بوحدَب. فأحضر صَنقُور الغداء من مطعمٍ هنديٍ قريب، وفرشوا جريدة على الأرض، وتغدوا عند باب مكتب بوحدَب الذي ما جاء

وقد بلغت السّاعة الثّانية بعد الظّهر.

خرجوا إلى محطّة الحافلات، لكن عند مدخل العمارة باغتهم عافور غبار حجب بوابة الشور القديمة في منتصف الدوّار. فتوقّف الرّفيقان على رصيف العمارة، وسبقهما عيّاد يرفع حاشية جلّابيته ويهرول إلى المحطّة في الرّصيف المقابل. كادا يتبعاه لولا شتّتت شملهم سيّارةٌ مسرعة أقبلت من منعطف الدوّار. أدرك عيّاد محطّة الحافلات. وصَنقُور يحثّ سليمان على عبور الشّارع، لكن ولد شايعة تسمّر على الرّصيف أمام المرأة فاقعة الألوان، يستغرب جرأتها وقد أنزلت زجاج نافذة السّيارة، وشوّحت بيدها إلى عيّاد عن شمالها وهي تصرخ وتشتم. وفي المقعد إلى جوارها رجلٌ مُلثّمٌ ساكتٌ رديء، لا يُخرس البيعارية عالية الصّوت على مسمع الرّجال في الشّارع.

وراوَح الثّلاثيّ المجيء والذّهاب من بيت المُصَوْقَر إلى عمارة ثنيّان، نهارًا ومساءً ليومين ما هبّت فيهما ريحٌ تجلو الغبار، ولا مرّت سحابة صيف تُسقِط الغبار بالمطر. وكاتبُ الأسفار في بيته يُطبق النّوافذ والأبواب. يُهاتف الشّايب ويكتب، ويتسلّح ببخاخ الفنتولين يتحفّز لنوبة رَبْوٍ مفاجِئة.

وتبدّدت هجمة الغُبار مساء الثّلاثاء، فطار بوحَدَب في الخامسةِ إلى مكتبِه ومكثَ يتحرّى الذين خرجوا من بيت المُصَوْقَر بعد ساعتين وتوقفت بهم الحافلةُ في المحطّة المقابلة لعمارة ثنيّان، لكن أمرًا جاء من سمّاعة سيّارة الشُّرطة بألا يفتح السّائق بابَي الحافلة؛ ممنوع النزول وممنوع الركوب.

ترك كاتبُ الأسفار مكتبه وسارع ينزل أسفل العمارة. وقف على الرّصيف يُراقب الشُّرطي الذي ترجّل من سيّارته ووميضها يكسر العيون في أوّل اللّيل زُرقة وحُمرة. وصعد إلى الحافلةِ يمرُّ بين المقاعد، ويتحقّق من هويات الركاب وصلاحية الإقامة. فأخرج عيّاد في صف المقاعد الأخير محفظته، وسحب منها بطاقته الشّخصية يُجهزها للشُّرطي. التفت إلى سليمان:

«معك إقامة؟».

وترجّل من الحافلة أربعة، عيّاد إلى حافلةٍ أخرى تقلُّه ثانية إلى كيفان، وسليمان وصَنقُور يخفرهما الشُّرطي إلى حافلة وزارة الدّاخلية المحمّلة بالمطلوبين ومُخالفي قانون الإقامة.

وهرع بوحدَب إلى سيّارته في ظهر العِمارة، وكبس زِرّ إخراج شريط الكاسيت ما إن انطلقت نغمة السَنكِني، فانطلق صوت مذيع الراديو في موجز النشرة، يذيع مقتطفات من خطاب الرئيس العراقي بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين لثورة تموز. وانطلق بوحدَب يقودُ السيارة وراء حافلة وزارة الدّاخلية، يتشاغل عن وجيب قلبه المتسارع مع خطاب الرئيس الذي حذّر من التلاعب بأسعار النفط بهدف التضييق على العراق.

أوقف بوحدَب سيارته غير بعيدٍ عن الحافلة في ساحةِ مخفر كيفان أمام حديقة الأندلس. وترجّل من الحافلة طابورٌ من المُخالفين من العرب والآسيويين، من بينهم الطّفل كولمن والفتى الحافي.

ولا يدري ماذا يفعل كاتب الأسفار إزاء هذه المشكلة التي ما حسب

لها حسابًا ولا خطرت في باله لحظة. هي *المشكلة التي حذّر منها الشّايب الملعون إذن!*

***

خريف ١٩٢٠

(63)

عودة الغايب

وأسمعُ صوتَ حمدية

يشقُّ اللّيل، عبر عرائش العِنَب

يجيءُ إليّ من دارٍ على الرّبوات مرميّة

علي الشّبتي

وقضى غايب بُوْدَرياه ليلته التّاسعة عشرة في بيت القُطاوَةِ. وله من قبل في وديعةِ الحُجرةِ الخامسةِ مِن اللّيالي عشر، قضاها نزيلًا في مشفى الإرسالية الأمريكية، في ضيافةِ طبيبةٍ استحالت مُحقّقًا ما انفكّ يستجوبه قبل أن يبرأ جُرح كتفِه. وليالٍ عشر، على تسعة عشرة، يقولُ مُجملُها يا بُوْدَرياه: ما بقِيَ لك في ذِمّةِ التّبّةِ في دِيرة الأمسِ إلا ليلة أخيرة.

وأنت منذ مجيئك يا غايب ما فعلتَ شيئًا إلا التفكير. إلامَ تُفكّر وأنت على تخوم النّهاية؟ أتزور الجزيرة اليوم فتلتقي زَمْزَم فتُحقّق آخر وأهم رغباتك الخمس. أتُحقّقها بلقاء أم الخير قُبَيل ليلةٍ يولدُ فيها الهِلالُ الجديد، فتنفتحَ الموجةُ السّابعةُ على تَبّةِ العُبور إلى الغد. فبأي قولٍ تُجيب أباكَ وأيِّ قرارٍ تتّخذ؟

منذ وصلَ غايب بُوْدَرياه بيتَ أبيه قُربَ سوق الحريم، وحتى يوم الأربعاء الأخير هذا، قبل خميس التّبّة، ما سأله خَليفُوْه ثانية أي الحياتين يُريد؟ حياته في كنفِ أم الخير زَمْزَم في الجزيرة؟ أم حياة أخرى في كنفِ البَرَنْتى والعاهرة إذا ما استرجعاه رضيعًا من فَيْلَكا

وتزوّجا من أجله؟ ما كرّر خَليفُوْهْ السّؤال ثانية منذ لقائهما الأوّل، وكلا الإجابتين تُرعبه مآلاتُها، فآثر الشكوت. ولا الولدُ الآتي من الغد أجابَ أباهُ أي الحياتين يختار، حياة بأبٍ أم من دونها، غير أنه ما انفكّ طول اللّيالي يُفكّر فيما عاش من حياة، وفيما قرأ في سِفْرَي «العباءة» و«التّبّة» عند قبر زَمْزَم، وما يترتّب عليه قراره إن هو اختار للرّضيع، الذي كانه، حياةً أخرى غير حياةِ الجزيرة تحت ظلال الطّلحة المباركة. أمسكَ غايب عن مخاطبة خَليفُوْهْ بـ «يُبَهْ» بعد يوم لقائهما الأوّل، بل لم يُخاطبه باسمٍ ولا لقب. وخَليفُوْهْ رغم عدم يقينه مِمّا يُريد في قرارة نفسه من غايب، فإنه انزعج أن يُخاطَب دونما إشارة لاسمه؛ يا خليفة وبس، بل ودونما صفة وسيطة؛ يا يُبَهْ، يا صاحبي، يا طيّب، أو أيّ «يا» يتبعها اسمٌ أو لقبٌ يشعره أنه موجود. لكن غايب بُوْدَزياه، المطعون بلقبٍ مكروه.. يكره الألقاب والأسماء.

أمضى غايب الوقتَ بين عشرات القِطَطِ المُنتشرةِ في البيت الطّيني الصّغير، يُفكّر في نفسه في اللحظةِ نفسها، رضيعًا في الجزيرة القريبة، هُناك على مبعدة أميالٍ فقط، حيث زَمْزَم التي تموت في سنة الجراد الرّابعة 1941، ما زالت اليوم حيّة في عام 1920. *أنا أشتاق إلى زمزم وهي اليوم قريبة*. تسعة وعشرون ليلةٍ قضاها في الدّيرة ساطعة الشّمس، يُفكّر في ما لا يستوعبه عقل. *أنا الآن هُنا*. هو الآن شيخٌ شائه الوجه عابرٌ من غدٍ يسكنُ في بيت القِطاوة. *وأنا الآن هُناك*. وهو في اللحظة نفسها في بيت الطّلحةِ في عمر الشّهرين رضيعًا آمنًا ما مسّته نار الثّنور ولا مغليُّ السّمن بعد. *فكيف يُفكر مَن انشطر به الزمن بين أرضين*؟ أي الحياتين تُريد للرّضيع الذي كُنته يا بُوْدَزياه؟ *لا أدري*. الحياة في جزيرة زَمْزَم يعني أن تعيش الغمر

ثانيةً موصومًا بحروق وجهك. *ما أحلاها من حروق.* وإن أردتَ استعادة وجهك صحيح الملامح بِعتَ زَمزَم واشتريت بُنُوّةَ خليفُوْه وفردوس. *فأي وجهٍ أريد؟* أتسألني أي وجهٍ تُريد؟! *أي الوجهين حقيقي؟* وجه ابن خليفة محمد حَمَد حَمَد الخوّاص. *وهل أنكر نسبي إلى الهدّار وأعلن نسبي إلى الخوّاص بعدما تبرؤوا من أبي؟* ها أنت تقولُ إن خَليفُوْه أبوك، فماذا تُريد؟ *والله ما أردتُ إلا أن أبلغ الجزيرة وأمرّغ وجهي في ثوب أم الخير، أشمُّ في ثوبها ماء الورد ودُخان النّارجيلة وخميرة الكليجة وضَوع المَهياوة، وأقرأ لها من بطولات عنترة والقعقاع وابن الوليد.* قُل لأبيك الشّاب أن يستعيدك رضيعًا من الجزيرة بعدما تُغادر وتعبُر التّبّة إلى زمانك في الغد، فتعيش حياتك الأخرى في بيت أبويك طِفلًا صحيحًا مثل باقي الأطفال. *لكن أم الخير.* عشتَ محروق الوجه مع زَمزَم ما يكفيك يا رجل! *لكني اعتدتُ وجهي وما شبعتُ من زمزم.* دعك منها واكتب لذاك الرّضيع حياةً في عالمٍ آخر غير منسوخةٍ من حياتك. وليحيا في كنفِ أمّه وأبيه. *هل يعيش في بيت القَطاوَةِ حياةً أفضل من حياتي في الجزيرة؟* لا يدري أحد، لا كاتب الأسفار ولا حامل صَولَجان المعرفة الذي يُلقّنه حكايات الأسفار. *إذن لا أريد للرّضيع حياةً غير ما عِشتُ إلى جوار زمزم.* قُل هذا الكلام لأبيك الأمرد الصّغير أيها الابن الشّائه الكبير فإنه، مُنذ مجيئك عبر التّبّة من الغد، ينتظرُ منك إجابة يرجوها، فهل يقبل به ولده؟ *فلينتظر العُمر كلّه.* ويهونُ عليك خَليفُوْه؟ *هنتُ عليه من قبل.* وفردوس؟ *قَحـ..*

خرج غايب أوّل مرّةٍ من بيت القَطاوَةِ قبل أيام. ذهب إلى «بيت الزُّجاج» لاستبدال ضمادة جرح كتِفِه بعد تطهيره. فعرفه النّاس

بعينيه الزُّجاجيتين رغم لِثامِه، وطارده الأطفالُ يتصايحون: جاءكم بُوْدَرياه! وأثار حوله الكبارُ الأقاويل. وخرج في المرّة الثّانية إلى حُوطَة سعدون لكنه لم يصل. قال لأبيه الأملط إنه يُريد أن يُحقّق واحدة من رغباته الخمس، بأن يشاهد أقرب الأماكن إلى قلبه فيما قرأ، وأن يصلّي على قبر سعدون. وما انفكّ خَليفُوْه يسأله:

«وأمك؟ ألا تُريد أن ترى أمك؟ فتُبشّرها بعودة الغايب، وأنك على ما وعَدَت أم حَدَب؛ قد غدتَ كبيرًا».

«لأ».

يُجيبه غايب، وهو لا يروم لقاءَ أحدٍ فيما بقي له من أيام، وليس في نفسه إلا أن يتِمّ ما بقي من رغباته الخمس؛ أتمّ أوّلها حينما أراد أن يعرف من هي أمُّه. *ليتني ما عرفت*. وبقيت من الخمس أربع؛ ثانيها أن يُحذّر الشّيخ سالم من أمر العباءة السّليبة. *لكن من يُصدّق الخرافة؟!* وثالثها أن يزور قبر سعدون. *فأُصلي على قبره صلاة صحيحة بدلَ صلاة ثلاثة سُكارى وصبيٍّ صاجّات؛ يهوديٍّ ومسيحيٍّ وعاهرةٍ وبَرَنتَى*. ورابعها أن يُبشّر فضّة بنت عبدالرحمن وقماشة بعودة سليمان والرّضيع. *فهل تُصدّق؟!* وخامسها وأهمُّها قبل عودته من تبّتِه العجيبةِ هذه، أن يلاقي أُم الخير في الجزيرة ويوصيها بالرّضيع ويُحذّرها من نار التّنُّور.

وحملَ خَليفُوْه سِراجه قبل عشرة أيام، وأخذ ابنه صوبَ الحَوْطَة التي ما وطِئها مُنذ جنازة سعدون، غير أنهما في ليل المرقاب أبصرا سكرانًا يُفرغ مثانته المتخمة على سور المقبرة القديمة. صاح بهما: «من هناك؟»، ولمّا أبصرَ السّكران وجهَ الغريب على نور سِراج

خَليفُوْهْ صرخ، وأسدلَ دِشداشَتَهُ على ساقيه وفرّ وهو يصيح:

«بُوْدَزياهْ وصل المرقاب يا جماعة!».

ففُتحت أبواب الخوَطِ يستطلعُ أصحابُها أمر الصُّراخ، وأدبرَ الوحش مع أبيه يفِرّان بين السِّكَك، يُيَمِّمان وجهيهما إلى حيث جاءا شطرَ سوق الحريم.

وكان خروجهما معًا، في المرّة الثّالثة، إلى السّوق في اليوم الموالي. فردّا إلى البيت سريعًا، وقد أثار ظهور غايب في السّوق جلبةً وثارت حوله الأقاويل وشكاهُ البعضُ إلى القصر؛ الرّجل الغريب الذي لا يدري أحدٌ من أين جاء، يقول البعض إنه جني من جِنّ قِطَط الشّاب الأملط الذي لا يُفارقه، وبعضٌ يُلمح إلى علاقةٍ مشبوهةٍ بين المسخ والبَرَنْتَى، وبعضٌ يقول إنه من إخوان مَن طاع الله يتنكر بين النّاس لينقل أخبار الدِّيرة إلى جماعته. وبعضٌ آخر يُذَكّر بما تصِفُهُ الصاجّات عن وحش البحر بُوْدَزياهْ، ابن الآدمي واللُّخمَةِ: وجهٌ شائهٌ بعينين كبيرتين يُشبه وجه شيخ الذُّباب. فيُذَكّر بعضٌ آخر بمزحٍ يُضمر شُبهة إيمان؛ جاء بُوْدَزياهْ يستعيد عباءته ويقتل أباه!

نصحه خَليفُوْهْ بأن ينزع ذلك الزُّجاج الأسود الكبير الذي يُخفي عينيه، لكثرةِ ما يلفت انتباه النّاس ويُثير شكوكهم. لكن غايب ما استطاع في النّهار أن ينزع النّظارة الشّمسية لحظة، فما اعتادت عيناه شمسًا واضحة صريحةً ساطعةً مثل هذه، ولا يدري كيف لا تكسر الشّمس عيون النّاس في السّكك والأسياف والسّوق، يمشون تحت وهجها مكشوفي العيون. كيف يُبصرون؟

أرسل سكرتير الحكومة بطلب غايب بُوْدَزياهْ للقائه في مكتبه في

قصر السّيف. طرق رسول القصر باب بيت القَطاوَة وفتحَ خَليفُوْهْ مرعوبًا. فركضَ إلى ولدِه في الزّاوية الظليلة من الحَوْش الصّغير. أخبره بأنه مطلوبٌ لدى القصر، وأوصاه أن يُعرِّف نفسَه بأنه قَرويٌّ جاء من قرية «الفِنطاس» لزيارة بيت الزُّجاج والسُّؤال عن علاجٍ لحرقٍ قديم. ولمّا سمع السّكرتير كلام غايب وجده رجُلًا راجح العقل، وما لاحظ عليه أي شائبةٍ غير فِعل النّار في وجهه، ولا استغرب في كلامه إلا لهجته التي لا تُشبه لهجة القروية. فأمره بأن يلتقيه يوم غد في مقهى بوناشي بين أهل الدّيرة، ويُسلِّم عليه أمام النّاس فتبطلُ أسطورته، شرط أن ينزع الزُّجاج الأسود عن عينيه. ووعده غايب أن يفعل. وسأله السكرتير إن كان يحتاج شيئًا أثناء إقامته في الدّيرة، فتشجّع يُحقِّق رغبته الثانية من رغباته الخمس، وقال لسكرتير الحكومة قبل أن ينصرف:

«إن سمحت لي أن أسأل طال عمرك!».

أومأ إليه المُلّا صالح بابتسامة حازمة. فكرّرَ غايب ما يُثيره النّاس بشأن عباءةٍ اختفت من القصر، وحذّر من سوء عاقبةِ فقدان العباءة. فعبسَ الشّيخ الوقور عند سماعه كلام الغريب الذي يُشبه خرابيط العامة، عن وحش البحر بُوْدَرْياهْ الذي عاد ليستردّ العباءة:

«كنت أرى فيك تمام العقل يا رجل قبل قليل.. مكويٌّ أنت على رأسك؟!».

انصرف بُوْدَرْياهْ من القصر. آذته الشّمس، لكنه احتملَ وهجها بغير نظّارته السّوداء في سبيل بُطلان أسطورته، فيسهُل عليه الفرار من بيتٍ تزاحمه فيه القِطَط، تدخلُ وتخرج من الهُوّة الصّغيرة أسفل باب

الحَوْش، تموء طوال اليوم ويعبث صغارها بكل شيء. احتمل سطوة الشَّمسِ في سبيل خروجٍ آمن إلى مسجد سوق الحريم والسَّيف والشوق.

وفي اليوم التَّالي سلَّم عليه المُلَّا صالح بين زوّاد المقهى، وحيّاه واستضافه وأجلسه على الدّكّة إلى جواره، وشرب معه القهوة وتبادل أطراف حديثٍ عن قرية «الفِنطاس» التي جاء منها بحسب زعمه، وعن المحاصيل الزِّراعية هذا الموسم. ومالَ عليه يسأله مُهامسةً متى يعود إلى قريته، وأوشك غايب أن يُجيب بأنه يرحل ليلة ولادةِ الهِلال الجديد، فاستدرك وقال بعد أسبوع، فجر الخميس.

«حيّاك الله بين أهلك وناسك».

قال المُلَّا صالح، فأمِنَ النَّاسُ واطمأنوا بعدما صافحَ رجلُ القصرِ الرّجلَ الغريب، ولا عاد الغريبُ غريبًا بشفاعةِ الحكومة.

وفي ليلةِ الاثنين الأخير حقّقَ رغبته الثالثة. في الحَوْطَةِ عرّفهم خَليفُوْه بقريبِه القَرَوي، الزّائر من «الفِنطاس» لعلاج وجهه في مشفى العَنكريز. وطَرِبَ غايب مع النهّام الأعمى في ليلةِ سَمَر. سهر وما سكر، وتلفّت إلى الزّوايا يبحث عمّا قرأ في أسفار مدينة الطّين. لكن لا حصيرة الصّلاة موجودة في رُكنها، ولا الكُتُب مصفوفة في تجويف الجدار، ولا جلسَ صاحِبُ المَتسَى، على ما قرأ، أمام الموقِد في رُكنه الأثير يُقلّب صفحات سيرة عنترة، أو يُدوِّن هلاوسه في دفتره الجلدي. تفحّص غايب الوجوه، وشاهد عاموسَ يتربّعُ في صدر الجلسة، ما كان ليتعرّفه بِدِشداشَتِه والغُترة المكوّمة فوق رأسه كيفما اتفق، يُشبه أي شابٍّ في الدِّيرة، لولا أن مالَ خَليفُوْه

على غايب يقول: «هذا بِن شاوول بيّاع العَرَق»، بدا عاموس منتشيًا مع أغنيات أسلافِه بصوت النهّام الأعمى عبدالله. أما سركيس فقد بدا واضحًا أنه ذلك الأرمني الذي قرأ عنه، بلباسِه الإفرنجي ولكنته الغريبة. والمرأةُ التي تجلس في أبعد رُكنٍ عن عاموس، مكدومة الخدّ متورِّمة الشَّفَة، لا بُدّ أن تكون بهيجة على ما جاءت من وصفِ وشمِها الذي ينحدر من ذقنِها إلى أين؟

كانت سهرة صاخبة، ارتفع فيها الضّحك مع غناء النهّام، وهو يُسمعهم جزءًا من أغنيةٍ ما أنجز تأليفها بعد، يهجو بها العجائز، صاخّات مدينة الطّين. وبين صوتِ المغني وضحكات زوّاد الحَوْطَة كان غايب يُكمل في سِرّه أغنية «العجايز» الشهيرة التي يعرفها مِن غد، أغنية تنجو من طوفان الحداثة الذي ابتلع مدينة الطّين وواراها تحت ألسِنة الأسفلت وصروح الأسمنت. تسرّبت الأغنية مع ما تسرّب من الذّاكرة القديمة، واستدلّت طريقها في الغد إلى أسطوانات الغرامافون، بعدما صارَ للنهّام الضّرير شأن كبير، ويردّد النّاس في قابل السّنين أغنياته القديمة.

ويُفكّر غايب في هذا المكان في زمنٍ آخر، قبل أقل من شهر، بحضور سعدون كيف كان؟ وكيف تنكرُ الأماكن ساكنيها بعد موتهم، وتمنح نفسها للغرباء يدخلونها مُلّاكًا جُددًا؟ *لا شيء في هذي الحوطة يُشبه ما قرأت. لا شيء يشبه سعدون.* وصوّب بصره إلى مدخل الحُجرة المستطيلة، واستعاد خيبة الضّاري، ساعة دخول العَم سَنَد إلى الحَوْطَةِ في «سِفر التّبّة»، لحظة بصقَ سؤاله في وجه سليمان في غشّ الشّيطان: ليش يا كلب؟

وانسحب غايب من جلسةِ الطّرب خِلسة، خرج إلى الحَوْش مُقلّب

الثّربة، والطّقس في أيام الوَسْمِ مُحمّلٌ بنسائم الخريف. أبصرَ تحت سقيفةٍ من السّعفِ قدورًا وجِلال تّمرٍ وزكائب يانسون. ومشى بضع خطوات عن يمينِه في رُكن الحَوْش، صوبَ النّخلةِ اليابسةِ المائلةِ على فسائلها التّسع. وجثا عند قبر سعدون، أحبّ شخصيات أسفار مدينة الطّين إلى قلبه، بعدما سقط الهذّار وأمينة وخَليفُوْه مسقط سوءٍ في نفسه، وقد أطلعه «سِفرُ التّبّةِ» على بشاعة الحقيقة؛ امرأة خاطفة. *وأب وهمي ما أكمل ما بدأه بعدما حفِظَ كرامة شاربه، فمات فارًا من المعركةِ وما كان شهيدًا.* لكن جدّك محمد الخوّاص كان شهيد معركة الصّريف. *لكن ولده خَليفُوْه البَرَنْگى!* والحل؟ *لو أني ما زلت لا أدري.* لكنك الآن تدري. *أدري.* علامَ الحزن وما كانت الخاطفة ولا الفارّ من المعركة أبويك؟ *لو أني لم أخطف ما عشت أسطورة ابن البطل.* صح يا بطل. *لو أني ما خُطفت ما عشت في بيت زَمْزَم.* ماذا تُريد؟ *لا أدري.* فكّر يا غايب. *الأيامُ تمضي هُنا وأنا لا أدري ما أريد لأني لا أدري من أكون.* من تكون؟ *ابن الخوّاص، أم ابن الهذّار، أم القروي الزائر من «الفِنطاس»، أم وحش البحر بُوْدَرياه.* ولِمَ تُريد هذا العذابَ للرّضيع الذي كُنتَه، الرّضيع الغافي الآن في الجزيرة، في أمان الله لا يدري أن نار التّنّور تنتظره بعد تسعة شهور. *ربما اختلط على أم حَدَب الأمر في بيت أم البنات قبل الحريق المفتعل.* كيف يكون هذا؟ *ربما أكون أنا ابن سليمان وفضة.. من يدري؟* أنا أدري وأنت تدري، وأذناك اللتان لا تُشبهان أُذنَي الخضني أيضًا تدريان يا غايب يا ولد خليفه وفردوس. صح. ولو كنتَ، جدلًا، على ما تمنّيتَ للتّو، ابن سليمان وفضّة، هل تبيع من أجلهما أم الخير زَمْزَم؟ *إلا زمزم.*

وظهر فجأة أشهب وإلينور إلى جوار غايب عند قبر سعدون،

يتشمّمان الثّربة قرب المكان الذي تقاسَما فيه بُلبُل شاؤول قبل شهرٍ إلا ثلاثة أيام. وحطّت كفٌّ حانية على كتفِ غايب. التفتَ وكان أبوه. نهضَ وأزال الغُبار عن موضع رُكبتيه في الدّشداشة وقال:

«كيف يضحكون هكذا وصاحبُ الحوطة كان معهم قبل أيام؟».

«ما عاد سعدون صاحبُ الحوطة..».

مطّ خليفُؤهْ شفتيه قبل أن يستطرد:

«..اشتراها بن شاؤول من صاحب الأرض الذي يملك نصف الخوَط حول مقبرة المرقاب.. لو قلت لك من يكون هذا الرجل فلن تصدقني..».

وما سأل غايب من يكون الرجل ولا اكترث، لكنه فكّر بأن الأمرَ مألوفٌ ويمتدُّ به الزّمن، ويتعرّف فيه غايب إلى تاريخ بنايات الشُّقق المفروشة، تؤجّر باللّيلةِ في غَدِ التّبّة، يُدان مُرتادوها وتسكت الألسنة عن ذكر مالكيها. أردف أبو القطاوة:

«..تملّك عاموش الحوْطة بصكٍّ شهد عليه أبوه شاؤول والأرمني سركيس.. ما عادت الحوْطة هي المَنسَى.. لفّ عاموس أغراض سعدون وكُتبه، وأوصلها إلى البيت الساكت، بيت أبي السّواعد، الله يرحم حاله وحال أم عياله المسكينة نَصرة.. وتسلّم الأهلُ ثيابَ وفرش ولدهم، لكن أبا السّواعد ما رضي أن تدخل الكُتب إلى بيته.. فباعها بن شاؤول بالجملة لمكتبة بن زُوَيّح، ووجد صاحب المكتبة بين الكتب دفترًا جلديًا مُسوّد الصّفحات بخطّ اليد، وقرأ على صفحته الأولى اسم سعدون بن عبدالله بن صالح الملقّب بـ «زارع الصّوف»، فأرسل الدّفتر بيد صبيٍّ إلى بيت أبي السّواعد في قِبلة..

الله يعلم من الذي فتح الباب للصبّي، لو كانت أُم السّواعد فقد نجا الدّفتر، أما لو كان أبا السّواعد.. فتأكد أن دفتر سعدون صار رمادًا طارَ مع الريح..».

استطرد خَليفُوْه وهو يُشير نحو سقيفة السّعف المقامة حديثًا في الحَوْطة:

«..هل ترى هذي القدور والحطب وجِلال التمر الزهدي واليانسون؟ سوف تصير الحوطة معمل عرق.. بعيدًا عن عيون المختارين الذين كلفهم الشيخ سالم.. صدقني لن يدوم المكان بعد موت صاحبه.. ليالي الأناسة والطرب سوف تنتهي، فما عادت الحَوْطة هي الحوطة بعدما بالَ الشّكارى في حَوْش سعدون».

وتسامر الأبُ الشّاب والابن الهَرِم في درب الرُّجوع من المرقاب إلى ناحية سوق الحريم في ظلمة اللّيل. يتبعهما أشهب وإلينور. ونسائم اللّيل الخريفي لطيفة البرودةِ تحت هلال آخر الشّهر. وصمت الدُّروب لا يُحارِشه إلا صرير الجنادب. ولأوّل مرّةٍ يشعر فيها خَليفُوْه بأن غايب يحمل تجاهه شيئًا من وُدّ، لكنه يُخفيه. أحسّ بأنه في حضرة أبيه لا ولده، وهو الذي نسي شعور أن يكون له أب. وما تمنّى في مسير الدّرب ذاك إلا أن يُقرِّر غايب فيُجيبه: اخترتُ للرّضيع حياة الجزيرة قُرب زَمزَم، أما أنا الشّائه الهرم فأختار ألا أعبر التّبة إلى الغد، وأن أعيش إلى جوارك يا أبي الصّغير حتى أموت.

وعند مفرق المقبرة القديمة رفع خَليفُوْه رأسه إلى السّماء يُقيّم الهِلال، فقال:

«يولد الهلال الجديد بعد ثلاثة أيام.. أما قررت ما تريد؟».

ولا يُريد غايب إلا تحقيق رغبتين مِمّا بقي من رغباته الخمس. قال:

«بقي أن أقابل فضّة فأبشرها بعودة سليمان.. وأن أزور الجزيرة ألاقي عمتي زَمزَم.. فأحذرها من نار التّنُّور».

«وأمُّك؟».

«لأ».

نبحَ كلبٌ سايبٌ في ناحية بعيدة، وتحفّز القِطّ والقِطّة، لكن على غير ما اعتاد خَليفُوْه كلما ارتعب، ما ضرب صدره بكفّه ولا صاحَ: «يُمّه»، ما ندّت عنه انتفاضةٌ ولا فاه بكلمة. شعر إلى جانب ولده الكبير بأمان ما عرفه قط. حرّر إبهاميه المتعرّقَين من قبضة أصابعه، ولا التفتَ إلى الوراء مرّة. وغاب في أمنياته ثانيةً لو أن بُوْدَرياه لا يعبر التّبّة إلى زمنِه، فيبقى معه ابنًا كبيرًا يحميه عِوَضَ أن يتورّط في طفل الجزيرة ويُربّيه، لكن خَليفُوْه كلّما نادى وحشَ البحر بـ يا ولدي، ردّ عليه الأخير بـ يا أنت، ولا قال: يُبَهْ.

وفي صباح الثُلاثاء الأخير طرق أبو القُطاوَةِ باب بيت شايعة، ليُحقّق لولده رابع الرّغبات بلقاء فضّة، ففتحت الباب «عبدتان»، حبشيّة سوداء وشركسيّة شقراء، قالت الأولى إنهما خادمتا بِن حامد، وإن شريفة زارت زوجته قبل أيام وأخبرتها بأن ساكنة البيت قد هربت، فاستعاد النُوخِذا بيته المرهون.

طرق أبو القُطاوَةِ باب شريفة في آخر صفّ البيوت المقابل، فقالت الجارة من وراء الباب إن الفتاة هربت من البيت لئلا تُزوّج غصبًا لـ بِن حامد. وسألها خَليفُوْه هربت إلى أين؟ فاستغفرت الجارةُ وتلكأت قبل أن تقول بعد تمهيد: الله يستر علينا وعلى بنيّات المسلمين:

«البنت -سامحني يا ربي- راحت تشتغل في بيوت الحرام في الرميلة الله يكرم السامع».

***

«عندنا زائر جاء خصوصًا لفضّة.. سمعتي يالقَرعة؟ نشَدَها الرّجلُ بالاسم.. فضّة بنت عبدالرحمن.. جهزيها، سأعود بعد قليل».

قالت حمدية بعدما دفعت باب حجرة فردوس ليلًا، كأنما ليست فضّة في الحُجرة مُلتحفة في فراش بهيجة. وقد نفد صبر حمدية اليوم من الفتاة التي تُقيم في بيتها بأمر صاحبة الأساور شريفة، وبشفاعة القرعاء. لا حُجّة للقوّادة على فضّة وفردوس تستضيفها في حجرتها منذ أسبوعين، وقد رفضت الفتاة عرض كبير النّواخذة للزّواج خشية أن يَصدق قولُ أم حدَب لـ شريفة، القول الذي طابق قولَ خَليفُوْهْ لـ فردوس، وهو ما أكّدته أم السّعف واللّيف في صيحات اللّيل أن سليمان يعود. واقتسمت القرعاء مع الضّيفةِ نصيبها من الطّعام. وصار بين ابنتيِ الحلال والحرام عيشٌ وملح. وفراش بهيجة خالٍ لـ فضّة، وصاحبة الفراش تنامُ في الحَوَط سعيًا وراء ضرّابٍ جديد.

«الذي يُقرِّب من البنت والله لألعن أمّه فوق أبيه».

ردّت فردوس على حمدية، فأجابت الأخيرة:

«نشوف.. أنا والا انتي يا القَرعة.. قطيعة تقطعك.. الليلة ليست مثل كل ليلة حمدية حبيبة طيبة وساكتة.. الليلة تعرفين من هي حمدية».

أطبقت حمدية الباب. فسارعت فضّة تقول لـ فردوس إنها لن تبقى هنا ساعة واحدة، وإنها ذاهبة الآن إلى بيت بِن حامد ترجوه أن يُعيدها إلى بيتها وبشرطِه الذي ما حاد عنه. فإن سليمان لن يعود، وإن ليس لمثلها مكان إلا بيتٌ يسترها ورجلٌ يصونها. واستنكرت فردوس تقلُّب الفتاة، تلومها على تسرعها رغم أن أم حدَب بشّرت خَليفُوْة بعودة سليمان. انهمرت الدموع من عيني فضّة:

«وهل أصدِّق التي قالت إن رضيعك يعود وقد كبر سنينًا؟! وإن الحديد يحدُّ الشّر؟ أنا لست مكوية على رأسي».

انفلتت ضحكة من فردوس:

«لكنكِ سمعت وصدّقتِ كيف صارت حماتك جنيّة تأكل الجمر في سوق الصّفارين، شعرها السّعف وثوبها اللّيف، تصيح في الليل ولا يراها أحد».

خنست فضّة قبل أن تجيب كأنها ما سمعت قول فردوس:

«ماذا نفعل؟ حمدية اليوم غير كل يوم».

لامتها فردوس على عدم قبول عرض الخاتون العَنكريزية. وفضّة في حيرتها تُجيب بغير يقين، إنها في بيت الزجاج لو عملت فإن الناس، كل الناس سوف تراها.. قاطعتها فردوس:

«والله عجيب أمرك! تستحين من العمل في بيت الزُّجاج ولا تستحين من البقاء في بيت حمدية؟!».

«هنا لا يراني أحد.. ثم إني ما ارتكبت الحرام حتى لو..».

«حتى لو بقيتِ في بيت حمدية.. وحتى لو ربّتكِ عبدة فأنتِ حُرّة..

حفظت كلامك الماسخ وما فهمته والله!».

وما كادت فردوس تُنهي قولها حتى فتحت ذات اللُّغد الرّجراج الباب، وأقبلت مُبحلقة العينين تُشبه بومة الصّحراء. دخلت الحُجرة وأطبقت الباب وزجرتهما على قعدتهما في الفراش بلا حراك والرجل في الحَوش ينتظر. قالت لـ فردوس:

«أنتِ لو تدرين كم دفع الرجل لركضتِ إليه على أربع.. قومي جهزي البنت وعقّليها بلا دلع بنات!».

«خَلّي أي وحدة من البنات تلعب معه».

أجابت فردوس فضحكت حمدية، وقالت إن البنات فررنَ هاربات إلى حُجرهِنّ بعدما أبصرن وجهه الغريب. فتجاوزت فردوس حمدية وفتحت الباب مقدار إصبع تتطلّع إلى رؤية الذي فرّت منه ساكنات البيت. وأطلّت من الشّق، وأبصرَت بين الثياب المعلّقة على حبل الغسيل رجُلًا يقتعدُ الدّكّة أمام موقد الحطب الملتهب. بدا غريب الهيئة للقرعاء التي أطالت النّظر إلى وجههِ غير مفهوم الملامح. وبينما هي تنظر إلى زُجاج عينيه العاكس للّهب، قالت حمدية:

«هذا الذي قَلَب الدّيرة قبل شهر.. أسموه بُوْدَرْياهْ، والمسكين قرويٌ جاء من الفِنطاس لعلاج حروق وجهه في بيت الزجاج.. جاء به خَليفُوْهْ إلى هنا كي يلهو قبل أن يرجع إلى قريته.. قال إنه يدفع أضعاف ما أريد من أجل التي اسمها فضّة.. فدفعَ الرّجل ما يساويكن كلّكن يا بنات الشوء قطيعة تقطعكن».

«ومن أخبره عن فضّة؟! وأصلًا من يعرف فضّة؟!».

«ما أدراني!».

صاحت حمدية، فخفضت صوتها كيلا يسمعها السّخي بُوْدَزياهْ فيُغير رأيه:

«تغارين من البنت يالقَرعة؟».

نظرت فردوس إلى فضّة المتكوّرة على الفراش، وأبصرت فيها نفسها صغيرةً حينما دسّتها حمدية في فراش الشّيخ الهَرِم أول مرة. فعاودت مواربة الباب قدرًا قليلًا، تطلُّ ثانيةً على الرّجل الغريب. وهمست تحدّث نفسها. *نمتِ يا فردوس مع أصحاب العاهات في الدّيرة: الكسيح والأعضب والقزم والبَرَنْتَى وصاحب كل شكل عجيب.* أطبقت الباب وأردفت:

«ماذا يضرُ لو نمت مع بُوْدَزياهْ؟».

وقبل أن تفتح حمدية فمها تقول إن الرّجل جاء من أجل فضّة؛ سارعت فردوس تُجيب وهي تلوثُ المِلفع حول قَرعتها مثل عمامة:

«أنا فضّة».

«لكنك قَرعة!».

حاججت حمدية فردّت فردوس:

«لن يرفع الرجل رأسه عن تحت.. صدقيني».

وقادت حمدية الرّجل إلى حيث تُلاقيه الفتاة بعد قليل، وما تأخرت الفتاة على بُوْدَزياهْ الذي انتظرَ في حُجرةٍ بحجم قبر، بالكاد تتّسع لفرشٍ أرضي. حُجرة رطبة لا باب لها، ولا يسدُّ مدخلها إلا

ستارة مُهترئة. مكثَ الرّجل واقفًا مرتعش الأطراف، مثل ظلاله المرتجفة على الجدار بفعل شعلة السّراج المتدلي من السّقف الخشبي. رفعَت فضّة المُنتحَلة ستارة المدخل، ووقفت أمام الرّجل بتَفْثوفٍ قطنيّ قصيرٍ أبيض، والمِلفع حول رأسها ملفوفٌ مثل عمامة. حدّقت إلى وجه الرّجل الصّامت تُبصر في وجهه فرادة لا تُشبه أحدًا. وما أنزل الرّجل عينيه عن وجهها خجلًا من ساقَيها المكشوفتين إلى ما فوق رُكبتَيها. حزينًا من أجل سليمان، السّاذج الذي يعود فيُلاقي زوجته البارع قليلة الحياء في هذا المكان النّجس. سألها:

«يا فضّة يا بُنَيّتي..».

فانقضّت عليه تُعانقه وهو بالكاد يُسعفه حَيلُه كي يضمّها، لكنه ما أطال الضّم. وَجَم، وتسارعت أنفاسه تُسابق وجيبَ قلبِه، وتحرّكَ فيه ساكنٌ، وسَرَت في جوفِه رعشة، وانتشر في روحِه الخَدَر. هو الذي ما لمسته امرأةٌ ولا أحبّته واحدةٌ ممّن أحبَّ مِن بنات الجزيرة. هو الذي أحبّهن كلّهن لكن؛ من بعيد. أسدلَ ذراعيه وأغمضَ عينيه يروي بالعناقِ عطشَ سبعين سنةً عاشها مثل قنفذٍ لا يُعانَق ولا يُلمس. فتح عينيه في اختلاجات شُعلة السّراج على وجه التي انتحلَت فضّة، تُحيط رقبته بذراعيها وتُنقّل بصرها بين تفاصيل وجهه الشّائه كأنما تقرأ كتابًا ماتع التّفاصيل. تاهَ في اتّساع عينيها الكحيلتين. وهبّت أنفاسها في وجهه ريحَ هالٍ وقرنفل. فوهَنَت ركبتا المُسِنّ المسكين وارتجفت ساقاه وقال:

«يا ابنتي لا تفعلي هذا.. جئت أُبشّرك بعودة سليمان بعد غد».

أطبقت كفّها على ما يُفترض أن تكون شفتيه:

«بعدين بعدين».

دفعته بصدره إلى الوراء، وتعثر الشّيخُ بالفرش وترنّحَ فسقط على ظهره. وتحرّرَت من نَفْنوفَها القصير وامتطته. وما أبعدت بصرها عن وجهه لحظة. فهمّ واحدهما بالآخر لولا جاء الأمرُ وانبجسَ الحليبُ وتفجّر، وانسكبَ من صدرها الريّان مِدرارًا وسال على بطنها مثل دمٍ أبيض مسفوح. ذُهلت وهي التي جفّ حليبها منذ شهر. صرخت. وصرخ غايب. وأطار مِلفَعَها بصفعةٍ كشفت رأسها الأقرع. وأخرسته قرعةٌ حدّثه عنها خَليفُوْه وشلّته في الفراش. لملمت فردوس نَفْنوفَها وارتدته ووقفت في الزّاوية لصقَ الجدار جاحظة العينين. واعتدل غايب على الفرشِ الأرضي فاغر الفمِ ما أبعد عينيه عن رأسها الحليق، والسؤال ينزلق من لسانه:

«أمّي؟».

اِصفرّ وجهُ القرعاء وانسحبَ من شفتيها اللّون، وارتفعت حدَقَتاها قبل أن تُطبق جفنيها وينزلق ظهرها على الجدار ساقطة على الأرض. وكأنما لم تسقُط في الحُجرة امرأة، رفع غايب الباب السّتارة، وخرج يتهدّد حمدية ويسألها:

«ولا كلمة زيادة يا قوّادة! أين البنت يا بنت الحرام؟».

فتعذّرت حمدية بأن البنت ليست من بناتها إياهنّ وأنها لا ترضى و.. قاطعها وحش البحر يصيخ في الحوْش:

«يا بنت عبدالرحمن وقماشة.. اِسمعيني.. ما مات سليمان ورب السّما شاهد علي».

دفع خَليفُوْهْ باب بيت حمدية، ودخل مع قِطّتيه الحَوْش يستطلع أمر صراخ غايب. وخرجت فضّة من الحُجرةِ متسربلة بعباءتها والبُوْشِيّة. فأشار لها وحش البحر أن تعالي، وكادت تذهب إليه مُطمئنة وهي تُبصر أبا القطاوةِ إلى جواره، صَبيّ الصاجّةِ المسالم الذي يخافُ ولا يُخيف. وحالت بينهما حمدية فاتحة ذراعيها مثل جناحي بومة مستنفرة، تدري أن خروج البنت من بيتها يعني أن تستعيد شريفة أساورها الذّهبية. صاحت:

«البنت أمانة عندي.. لا تخرج من بيتي إلا على يد زوجها إذا رجع».

رفع غايب ذراعه عاليًا:

«اطبقي حلقك وإلا والله بكفٍّ ألصق لغلوغك في الجدار».

وما دَرَت حمدية ما اللّغلوغ على لسان القَرَوي الذي دفعها بكتفها. تجاوزها وأطبق كفّه على معصم فضّة يجُرُّها إلى الخارج:

«اِمشي معي يا بنيّتي.. والله العظيم، لو سهّل الله، سليمان بيكون عندك فجر الخميس».

ومضى والفتاةُ يتبعهما خَليفُوْهْ وقِطّتاه، وحمدية تُلعلع:

«هيّن.. أنا أريك فعل حمدية يا شيخ الذُّباب!».

أطلّت فردوس بنصف قرعتها تسثر غريها من وراء السّتارة، وصاحت بـ فضّة:

«يا غزَيّل!».

التفتت إليها فضّة وكفُّ غايب تُطبق على معصمها، يمشي وراءهما

خَليفُوْه، وما نطقت بحرف. والقرعاء من وراء باب حُجرة الحرام تنظرُ إلى ولدها المنتظر مع أبيه، يجيء كبيرًا على ما بشّرت أُم حدَب، ويُخرج فضّة مثلَ ماسةٍ من كيس فحم، ويتركها مثل فحمةٍ في كيس حمدية.

***

مكثت فضّة في حُجرة أبي القُطاوَة ليل الثّلاثاء، وتمدّدَ خَليفُوْه وغايب على حصيرٍ بين القِطَط، وناما في الحَوْش تحت بقيّة هلالٍ لا تكادُ تُرى، يتحرّيان ولادة الهِلال الجديد فيعود غايب عبر التَبّةِ إلى غدِه، ويعود سليمان إلى أمسِهِ فجر الخميس. وأيقظهما قبل فجر الأربعاء هديرُ مُحرّك ضجّ في السّكّة وراء سور البيت. فتنبّهت القِطط من سُباتها وحفّزت آذانها. ولحقت الهديرَ طرقاتٌ على الباب، فحثّ خَليفُوْه خطاه إلى الطّارق. وخرجت فضّة من حُجرة أبي القُطاوَةِ تستطلع أمرَ الطّارق عسى أن يكون سليمان. وكان سائق الإرسالية وراء الباب، والطّبيبةُ في السيّارة الـفورد تدخلُ أوّل مرّةٍ تلك السّكّةِ ناحية سوق الحريم. رفعت إلينور صوتها تقول لأبي القُطاوةِ إن عليه أن يجيء معها في الحال، فإن مبروكة تلدُ قبل أوانها، تصيح ومواؤها لم يتوقف طوال اللّيل، وإن القِطة السّوداء قد تموت لو لم تلد، لكن لا شيء يخرجُ منها إلا رؤوس قِطط صغيرة ملطخة بالدّم بلا أجساد. فلاثَ خَليفُوْه إزاره النّيباري حول رأسه وركض إلى حُجرته. استأذن فضّة التي شرّعت له الباب مُسربلةً بعباءتها، وخرج إلى الطّبيبةِ يحملُ عصًا ذهبيّة مُرصّعة المقبض باللّآلئِ، الصّولجان الذي رآه غايب في يد الشّايب المقعد على الكرسي المتحرك من قبل عبور التَبّةِ من الغد. وقفز أبو القُطاوَةِ إلى المقعد الخلفي للسيّارة،

وتبعه أشهب وإلينور ونطّ الاثنان في حِجره. واستغرب الأملظ اصفرار وجه الطّبيبة وانتفاخ جفنيها. سألها إن كانت بخير، فأجابت:

«أنا لا أنام».

فأغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى ظهر المقعد. وابتعد هديرُ الفورد حتى اختفى وراء ركن بائعة الباقلّاء الصاجّة أم عبدالرّحيم، وأطبق الصّمت ثانية على السّكّة.

ومع طلوع الشّمسِ ارتفعَ الهديرُ وراء سور بيت القُطاوة ثانية، وأقبل أشهب وإلينور ينسلّان إلى الحوْش من الكُوّةِ الصّغيرةِ أسفل الباب. فدخل بعد القِطّتين من الكُوّةِ قِطٌّ فحميُّ السّواد يتبختر شامخ الرأس، بهيّ الطلّةِ منتصب الذّيل يتلفّت في مكانٍ بدا مألوفًا لديه. فتراكضت قِطَطُ الحوْش ودارت حوله تتمسّح بجسده. وفتح خَليفُوْه الباب أصفر الوجه يحملُ عصاه ذات الأسرار. ولا اكترثت لقدومِه القِطَط المشغولة بعودةِ كبيرها مالك يوم السّديس، تتبارك حوله وتحتفي خانعة مُخفية الأذيال بين القوائم.

قال خَليفُوْه لـ غايب إنه لن يفي بوعده بأخذه إلى الجزيرة، لأنه منذ هذه السّاعةِ محكومٌ برفقةِ المارد الأسود ليل، وليل لن يعود إلى جزيرة مدفنه ما بقي حيًا يولد بعد موت. وبقِيَت آخر رغبات غايب مُعلّقة قبل عبوره التّبّة إلى زمنه في الغد، وقد حقّق منها أربعًا.

«لكني أريد أن أزور فَيلَكا قبل أن أعود.. قبل أن أقرّر أي الحياتين أريد للرّضيع الذي كنت عليه».

تخضّلت عينا خَليفُوْه واحمرّ أنفه. وقال إن الخاتون العَنكريزية سوف تُبحر إلى الجزيرة بعد الظهر. سوف تكون رحلة سريعة بمركب

بخاري وفرته دار الاعتماد:

«إن كنت مصرًّا على الذهاب.. هذا يومك الأخير، عسى أن تعود من فَيْلَكا فتجيبني بقرارك..».

ضرب بعصاه الذَّهبية الأرض وهو يُردف:

«..فأي الحياتَين تريد؟».

***

صيف 1990

(64)

الهِلالُ يُولَد من جديد

«كولمن الكويتي ورجل الكهف!»

أوقفت سيارتي على الرصيف أمام بيت الشامية.

وأقبلت على الشّايب أتبع جورج الذي أدخلني الصّالون وانصرف. جئت بخبر مشكلة سليمان وصَنقُور بعد القبض عليهما في حافلة وزارة الدّاخلية وحجزهما في مخفر كيفان، لكني قبل أن أفضي بكلمة قال لي:

«أدري».

كانت كفُّه مُطبقة على مقبض عصاه الذّهبية، والقِطُّ الأسودُ ليل يتكوّر في حضنه مُغمض العينين. قال الشّايب:

«هذه مشكلة..».

ورنّت كلمة مشكلة في رأسي رنين جرس، وتسارعت حدقتاه تتدحرجان يمينًا ويسارًا كأنما يقرأ سطورًا في كتابٍ خفي. سأل:

«..ما اليوم؟».

«الثلاثاء».

أجبته وأنا أفطن إلى ما يُفكّر. قال:

«يولد الهلال ليلة السبت.. والتّبّة فجر الأحد».

أطبق جفنيه، ففتح القِطُّ الأسود عينيه. وضغطَ الشّايب بكفِّه

المطبقة على مقبض عصاه كأنما يعصرُ برتقالة. وارتعشت شفتاه وانفرجتا عن صفٍّ أسنانه النّضيدة ناقصة النّاب. واختلجَ جفناه المُطبقان وهو يقول إن الشّابين في نظارة المخفر الآن، في هذه اللحظة محبوسان. واتسعت عينا ليل واستدقّت حدقتاه مثل خطّين رفيعين، فشدّدَ الشّايب إطباق جفنيه وارتعشت ملامحه، وردّدَ جُملًا قصيرة متقطّعة:

«قضبان تقشّر دهانها.. وصدئت أطرافها.. وزنزانة شديدة الإضاءة تطلُّ على ممرٍّ مظلم. و..».

أغمضَ ليلٌ ففتح الشّايب عينيه وأسند العصا إلى ساقيه. وقال:

«انتهى كل شيء».

أشارَ بذراعه ناحية مدخل الصّالون وقال لي:

«عد إلى بيتك يا صادق.. لو ما خرجَ الولَدان من المخفر وعبرا التّبّة فجر الأحد.. لن ينتهي سِفر العَنقُوْز أبدًا، ولن يعود العَنقُوز إلى بحره مثلما يرجع المولاف إلى مَلفاه».

نهضتُ من الأريكة، لا تدخل رأسي فكرة أن كلّ شيء قد انتهى إلى لا شيءٍ بعد سنواتٍ من الكتابة. كان الأمر هيّنًا لو أني ما أصدرت الجزأين من الثلاثية، أما في ورطتي هذه وعجزي أمام نفسي وفضيحتي أمام القارئ! ذكّرته بما قال وما كتبت:

«قلتَ لي إن مستور القومي، حفيد المرحوم مستور الكبير، استخرج الأوراق الثبوتية لعمّ أبيه صنقور المصوقر في أول الستينات بعد الاستقلال حينما عبر التّبّة... كيف يحتجز في المخفر

بتهمة عدم حيازة أوراق ثبوتية؟».

«لا شأن لي بابن خادمة المقام لعنه الله ورحم أمّه! أوراقه في البيت عند قريبه آدم.. لكن المعني في أمرنا هو سليمان».

ارتفع صوتي:

«خرابيطك هذه ما عادت تعنيني في شيء.. لكن لعبةً أنت البادئ فيها.. عليك أن تُنهيها».

«انتهت.. على هذه المشكلة».

ورنّت كلمةُ مشكلة في رأسي مرّة أخرى وهو يُبحلق إلى وجهي. كززت على أسناني:

«أتعرف ما هي المشكلة؟ شايب مثلك لا يموت، ملعون.. وملعونٌ قِطُّك الأسود وعصاك الوسخة.. المفروض على بَرَنْتَى مثلك أن يقعد عليها! إتفُوْهْ».

«أنا لا أموت؟! هِه.. تموت كبيرات الصاجّات بعدما يعمّرن حتى المئة.. وعندي في ذمة الله سنتين».

قال الشّايب بعدما أفلت ضحكة من أنفِه. سَرَت قشعريرة في أطرافي وطاش صوابي أمام ابتسامته ناقصة النّاب. خِفتُ وما فهت بكلمةٍ أمام صلابة الرّخو المبتسم الذي قال:

«ما جفّت بصقة آدم في روحك يا ولد هيلة.. مسامحك.. لأنك خائف».

وخفت أكثر حينما جاء على ذكر أمي. صحت في غمرة خوف:

«بوحَدَب لا يخاف!».

فانفجرَ الشّايب يضحك:

«مثل سعدون الذي لا يسكر».

وقعت ضحكته مثل تعويذةٍ أوهنتني، كأنما جرّدتني من ثيابي على مرأى الشّايب الذي مضى يتقصّع إلى خزانة التلفزيون. فتح دفّتيها وأخرج كومة من صفحات الجرائد المصفرّة بحجم كُرة القدم. أحاطها بذراعه وقال إن فيها نعلَي سليمان، وأردف:

«سِفر العَنْقُوْز لن ينتهي أبدًا إن لم يستعد الولد نعليه».

«وأنا أريد أن أكتب.. حتى النهاية».

عاود الشّايب الجلوس على الأريكة وكُرة الجرائد بين ساقيه. أسندَ كفّيه إلى عصاه، وأراح عليهما ذقنه وهو يُطيل النّظر إلى عيني:

«عندك واسطة في وزارة الداخلية؟».

«لا».

«معارف في مخفر كيفان؟».

«لا».

«إذن فاكتب على ما تشتهي.. لا شيء لديّ ما لم تتحرّك لإخراجهما.. افعل شيئًا ينهي الحكاية».

«يا رجل! حتى لو كان لديّ معارف في الداخلية أو في مخفر كيفان.. ماذا أقول لهم؟ أطلب وساطةً لتحرير شخصيتي الروائية التي تمكث في نظّارة المخفر بلا أوراق ثبوتية؟! أنت مجنون!».

«اذهب يا عاقل إلى بيتك.. واكتب.. حرره في أوراقك.. ليس لدينا إلا أربعة أيام.. لكن إذا فات موعد التَبّة لن تسمع مني كلمة واحدة عمّا صار وما يصير.. اكتب».

«ماذا لو ذهبت إلى المخفر بنفسي وحاولت أن أقنع الضابط بأن سليمان قريبي، وأن أمّه تكاد تفقد عقلها خوفًا عليه و..».

قاطعني:

«افعل ما شئت.. الأمر متروك لك.. تصرّف لو قدرت، لكن تذكّر ما قيل: إن أقبلت عليه أدبر، وأنا انتهى دوري ما لم يجئ الولد ليستعيد نعليه».

***

وبعد تحقيق روتيني صباح الأربعاء، قُيِّد سليمان وصَنقُور في ملف مخفر كيفان «بلا هوية»، بعدما قال صَنقُور إنه زائر من فَيلَكا وإن أوراقه الثُبوتية موجودة في بيت أقاربه في كيفان قطعة 1، وما ردّ أحدٌ من أقاربه على الاتصال لمّا اتصل ضابط الشُرطة الذي تحفَّظ على المخالِف أكثر بعدما اكتشف أنه رجل يتنكر في هيأة طفل. وأبلى سليمان بلاءً حسنًا على ما رجاهُ رفيقُ التَبّة طوال الدّرب في حافلة وزارة الدّاخلية من شارع فهد السّالم وحتى مخفر كيفان، بأن ينكر واحدهما معرفته بالآخر، وألا يكشف للشُرطة سِرّ التَبّة لأي سبب، لأن سرّها لو انكشف فإن التَبّة تبتلع صَنقُورًا.. وإذا دعت الحاجة فليدّعي سليمان أنه لا يدري من يكون، وألّا يُجيب إلا بكلمتين؛ نسيت، ولا أدري.

«وإذا تورطتَ أكثر يا ابن سهيل.. تظاهر بأنك مجنون».

وبين تسعةٍ من مخالفي قانون الإقامة ولصّ وشمّام صمغ الباتِكس؛ قضى الاثنان ليل الثّلاثاء، في زنزانةٍ ضيّقة فاقعة الإضاءة، مكتومة الهواء رطبة تتسلّل إليها رائحة حمّامٍ غير بعيد. وفي صباح الأربعاء زار بوحَدَب المخفر، يسأل عن سليمان وهو يدّعي أنه ابن قريبته شايعة، الولد الذي قبضت عليه الشُّرطة ليلة أمس. وقيل له إن الفتى انهار مراتٍ طوال اللّيل، وأحضر له الشُّرطي في وردية المساء ممرضًا من المستوصف في الشّارع المقابل. فخرج الممرض مسرعًا وعاد بالطّبيب. وبعد حقنةٍ مهدِّئةٍ للفتى الذي نام نوم طفل قال الطّبيب إنه يعاني من رهاب الأماكن المغلقة، وهذا ما تسبّب له في نوبات الهلع. وأفراد الشُّرطة، وإن تفهّموا أو تعاطفوا، لا يستطيعون التّصرف حيال مشكلة مألوفة دونما أوامر ضابط المخفر غير الموجود، وأن الهلع مهما بلغت نوباته من تدهور الحالة فإنه لا يُحرِّر الموقوف في نظّارة المخفر إلا في الحالات التي تستدعي. وقيل له إن الضّابط يجيءُ اليوم بعد العصر، وهو الوحيد المخوّل بالإفراج عن الفتى.

ولا جاء الضّابط بعد العصر وقد ارتفع أذان المغرب من مسجد الفارس في سوق كيفان المركزي القريب. فاضطرّ كاتب الأسفار إلى أن ينصرف بعد أذان العشاء على وعدٍ للشُّرطي بأن يعود في الغد، غير أن الشُّرطي ذكّره بأن غدًا عطلة نهاية الأسبوع، فلا حيلة لكاتب الأسفار إلا انتظار صباح السّبت. وهو مُتخذٌ قراره بأن يُقبل على الفتى مهما خابت محاولاته، ومهما أدبر عنه، لأن فوضى «سِفر العَنفُوز» هذه يجب أن تنتهي نهاية تُرضي كاتبها مهما كلّف الأمر.

وباغتت سليمان ليلة الأربعاء نوبة هلعٍ جديدة، لمّا علم أن ماكِثي نظّارة المخفر لن يخرجوا قبل يوم السّبت، إلى مراكز أمنية أخرى كلٌ بحسب تهمته. والموجة السّابعة تُفتح على تَبّة العبور فجر الأحد. أزعجت نزلاء نظّارة المخفر صرخاته وأقلقت منامهم، ولا اهتمت لها الشُّرطة لكن صَنقُور عالج رفيق التَبّة بصفعةٍ أعادت إليه صوابه. قرّب شفتيه إلى أذن رفيقه:

«اهدأ دعني أفكر. ليس صعبًا خروجي من هنا، فأوراقي مع آدم.. لكن أنت.. لو ما خرجت يوم السبت فلن تعبر التَبّة معي بعد فجر الأحد أبدًا».

اصفرّ وجه سليمان ويبس ريقه:

«لكني يجب أن أرجع إلى البيت».

تعكّرت ملامح صَنقُور وهو يزنُ رفيقه بنظرة ازدراء:

«كانت هذه مطالبك الخايسة.. والرجل يتحمل عاقبة قراره، هذا إن كنت رجلًا».

***

وما خرجتُ من مكتبي طول أمس الخميس أكتب تفاصيل الأربعاء تلك. أكتب كل شيء، ما خبَرته في زيارة المخفر، وما سمعت به من فحيح الشّايب الذي يُوَسوس لي في سماعة الهاتف. فأمضيت طول الجمعة اليوم أُراجع الفصل الخامس والسّتين، أحرِّر رحلة إلينور وغايب عبر المركب البخاري إلى جزيرة فَيلَكا. أدوِّن دونما مزاجٍ ما أصدقه وأسلّم بحدوثه، لكني أدور حول الحدث مثل حمار المطحنة

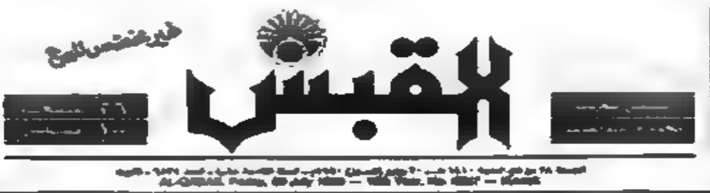
حول رحى السّمسم ولا أحظى منه بحفنة.

فرغت من تحرير الفصل وعدت إلى البيت أحمل الجريدة التي ما قرأت منها في الصّباح إلا عمود الوفيّات، وخبرًا تصدّر الصّفحة الأولى بخطّ عريضٍ يقرؤه الأعمى: الكويت تحتكم للعرب. وعند عودتي إلى البيت قرأت تفاصيل الخبر الذي يشي على ما يبدو بأنها بوادر أزمة ثلاثية بين الكويت والإمارات من جهة، والعراق من جهة أخرى. أزمة خارجية تلوح في الأفق حول أسعار النفط وترسيم الحدود. والرئيس الأمريكي جورج بوش من البيت الأبيض يصرّح بعد تحذيرات الرئيس العراقي: قلقون من التحذيرات وملتزمون بحماية دول الخليج الصديقة. وبريطانيا تتحرك حرصًا على الاستقرار في المنطقة وتأمل في التسوية السلمية.

بدت الأخبار جادة على نحو يثير القلق في هذا الوقت المشحون داخليًا بالأزمات السياسية. هذا ما ينقصنا في هذه الأجواء القاتمة منذ حل البرلمان وتعليق العمل بالدستور.. أزمة خارجية! ومع من؟ مع حامي البوابة الشرقية الذي نعبده في هذا البلد ونسبح باسمه صبحًا ومساء!

قلبت صفحة الخبر المقيت إلى الصفحة التالية، فشدّت انتباهي أعلى صفحة المحليات صورة بالأسود والأبيض؛ صورة الأهبل صَنقُور المُصَوْقَر، مطموس العينين بمستطيل أسود مثل صور المجرمين، وأعلى الصورة عنوان عريض يعلو عنوانًا فرعيًا عن خبر إلقاء القبض عليه في حملة وزارة الداخلية ضد مخالفي قانون الإقامة.

***

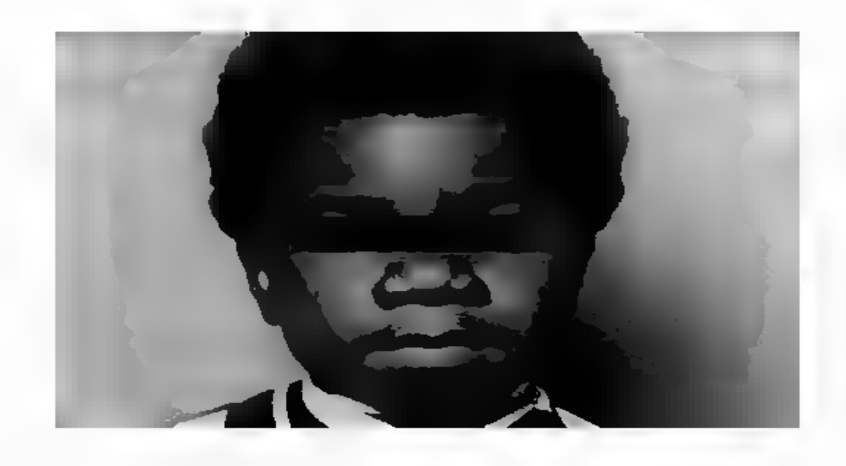





رجل الكهف في مخفر كيفان.. وكولمن الكويتي غير كويتي!

نجم «يوم البحّار».. متسلل من الجوار أم مخالف لقانون الإقامة؟

كتب المحرر الأمني:



(ص.م) الملقب بكولمن الكويتي

كشفت مصادر أمنية مطلعة ضمن الحملة التفتيشية التي تشنها وزارة الداخلية ضد مخالفي قانون الإقامة في البلاد، عن إلقاء القبض مساء الثلاثاء الماضي على (ص.م) نجم قرية «يوم البحّار» التراثية ذائع الصيت الشهير بـ «كولمن الكويتي». واتضح في التحقيقات أن المتهم لا يحمل أوراقا ثبوتية. وتفاجأ رجال الأمن بحقيقة الطفل المفترض وهو في الأصل رجل بالغ يتنكر بزي طفل، وساعده في ذلك مرض نادر بحسب المصادر التي تابعت الحالة. وقالت إن المتهم يعاني شكلا من أشكال التقزم الناجم عن نقص هرمون النمو. ويبلغ طول الرجل الطفل 124 سم، وقد حافظ وجهه

على مظهره الطفولي حتى بعد مرحلة البلوغ، ورجحت المصادر أن المتهم تسلل إلى الكويت من إحدى دول الجوار، ولم يعثر رجال الأمن في حوزته على أي شيء إلا قلادة صليب ذهبية رجحت المصادر أنها مسروقة. ومن جهة أخرى تمكن رجال الأمن في الحملة نفسها من القبض على (س.س) شاب غريب الأطوار، حافي القدمين يرتدي الثوب التقليدي على طريقة ممثلي المسلسلات التراثية، لا يحمل أوراقا ثبوتية ويرفض التجاوب مع التحقيق ويتظاهر بفقدان الذاكرة بادعائه أنه لا يتذكر شيئا. والجدير بالذكر أن رجال الأمن قد عثروا في حوزته على عملة قديمة «روبية» هندية كانت تستخدم في الكويت في بدايات القرن العشرين تحمل نقش ملك بريطانيا جورج الخامس. وبسؤال الشاب عن مصدر القطعة النقدية قال إنه نسي كيف وصلت إلى جيبه وإنه..

***

أنا نفسي نسيت أمر الرُّوبيّة لدى سليمان، كيف جاءت فيما كتبت؟ أنا أفقد ما بقي لي من عقل وذاكرة. أنا أخرف على الطريق السريع في كتابة هذه التخاريف التي تستحيل حقيقة ماثلة أمامي في الجريدة. عاودت تصفح أواخر فصول «سِفر التَبّة» أحشد ذاكرة مهزوزة لِما لقنني إياه الشايب اللعين، فتذكرتُها رُوبيّة من خمس استلفها سليمان من سعدون على ما كتبت.. نقدَ الفتى الحافي خادمة المقام أربعة نظير خدمتها في تحقيق مطالبه الثلاثة، وأبقى واحدة في جيبه، كاد أن يدفع بها ثمن الشاي لـ عيّاد في القرية التراثية فجر عبور التَبّة لولا اختطفها من كفّه صَنقُور. ماذا لو جاء الخبر باسميهما صراحة؟ وكيف سيتلقى قارئ الرواية الخبر لو قرأه

في الجريدة؟! هذا الخيال ينقلب واقعًا فجًا من أين لي أن أدحضه؟!

زرتُ صباح السبت المخفر وانتظرت حتى الظهيرة، فقال لي أحد أفراد الشُّرطة إن الضابط يجيء بعد العصر. وما كان أمامي إلا الانتظار في اليوم الأخير قبل التَّبّة المزعومة فجر الأحد. وجاء أخيرًا ضابط المخفر حوالي الخامسة مساء.

***

وفي غمرة إضاءة نظّارة المخفر الفاقعة، وفوح العَرق والرُّطوبة بلا مكيّف تبريد، أدار أحد أفراد الشُّرطة المفتاح في قفل النظّارة وصاح:

«سليمان بن سهيل».

فالتفت ولد شايعة إلى الشُّرطي الذي فتح باب القضبان الحديدية وقال:

«قُم.. جاء أهلك».

ولا يدري سليمان مَن الذي جاء مِن أهله في هذا المكان وهذا الزمان، لكنه ما كذّب خبرَ الخروج بأي حالٍ من الأحوال من هذا الجحيم المُصمت الذي يشبه غيابة خُن السّنبوك الحامِدي. فأخرجه الشُّرطي وقيّده بالأصفاد الحديدية، وأطبق باب القضبان ثانية وأقفله بالمفتاح. وصَنقُور لا يفهم شيئًا مما يجري. نهض وهرع يطبق قبضتيه على اثنين من القضبان الحديدية الصدئة وهو يصيح:

«صبر صبر عَمّي الشرطي! نحن جئنا مع بعض!».

غير أن الشُّرطي المأمور كأنما لم يسمع نداء الرّجل الحبيس في جسد طفل. قاد سليمان إلى غرفةِ الأمانات ليُعيد إليه مقتنياته

المحجوزة، الغُترة والزّوبية، وليأخذ بصماته على تصريح الخروج.

وكاتب الأسفار في غرفة ضابط المخفر يفتعلُ ثباتًا يُبدِّد ارتباكه. طلب منه الضّابط البطاقة المدنية، وقبل أن يُخرجها من محفظته دخل رجلٌ سمينٌ في الغرفة يحمل جريدة. ألقى السّلام فبُهِتَ بوحدَب، وأجاب الضّابط:

«تفضل.. خير؟».

تقدّم الرجل إلى مكتب الضابط يمد إليه بطاقتي هوية:

«الخير بوجهك حضرة الضابط.. أنا آدم مستور آدم مستور آدم المصوقر. قرأت في الجريدة أمس خبر اعتقال قريبي صنقور المَصوْقَر، وجئت بالأوراق الثبوتية لإخراجه من هنا.. تفضّل.. هذه بطاقتي وهذه بطاقته».

تسلّم الضابط البطاقتين يتحقق من معلوماتهما، بطاقة آدم وبطاقة صَنقُور. فأشار بكفِّه صوب المقعد المقابل لـ بوحدَب:

«تفضل إِسترح».

وتفضل آدم بالجلوس والتقم سواكه يخزر كاتب الأسفار بنظرة تعادل بصقة جديدة. وهرب كاتبُ الأسفار بناظريه إلى الضابط الذي مد إليه يده:

«البطاقة».

وناوله بوحدَب بطاقته المدنية. تفحصها ضابط المخفر فقال:

«وبطاقة الولد؟».

تلكأ كاتب الأسفار وهو يقول إن قريبته أم الولد المعتوه اتصلت به باكية راجية تبحث عن ولدها الذي خرج ولم يعد، وإنه جاء على الفور إلى المخفر و.. قاطعه الضابط:

«لا بأس لا بأس.. أحضر بطاقته المدنية ويخرج الولد في الحال، لكن لا تتأخر لأن نزلاء النظارة سوف يغادرون في المساء كُلٌّ إلى جهة أمنية».

فنادى الضّابط الشرطي وأمره بإحضار صَنقُور من النظارة. ونهض كاتب الأسفار فور دخول الشرطي صُحبة صَنقُور الذي تسلّم من أمانات المخفر سلسلة الصّليب الذّهبية. فخرج الثلاثة من غرفة الضابط؛ بوحَدَب وآدم وصنقور، وارتفع صوت شابٍّ من غرفة الأمانات المجاورة:

«صبر صبر عَمِّي الشرطي! نحن جئنا مع بعض!».

***

خريف ١٩٢٠

(65)

سَيِّدةُ الأكاسْيا

«إلينور والرقصة الأخيرة»

ـود اليوم إلى التدوين، وذلك بعد انقطاع عشرة أيام عن تدوين اليوميات على الآلة الكاتبة. *اكتبي لماذا انقطعت عشرة أيام عن الكتابة أولا!* أعود بعدما كنت مشغولة في عملي على كتابة المقالة التي أنوي نشرها في مجلة «جزيرة العرب المهملة» حول التداوي بالنباتات في الكويت. *كاذبة وما كتبتِ من المقالة حرفًا ولا قطفت من بساتين الجزيرة نبتة.* أبحرنا بمركب الوكالة البريطانية بعدما أوقد الفحم في خزان الوقود. تألف طاقم المركب البخاري من القبطان الهندي واثنين من البحارة، هندي وفارسي، وقد كنت أنا الراكبة الوحيدة في رحلة اليوم الواحد هذه. *وغايب الذي أصرَّ على زيارة أم الخير وتوسّط له خَليفُوْه للإبحار معك.* بعدما ودعني إدوين في مرفأ البلدة في «شرق». *وفي المرسى إياه بقي خَليفُوْه مع قططه الثلاث على ساحل «رأس عجوزة».* كنت متشوقة لزيارة سيدة الأكاسيا في بيتها وسط الساحل الشمالي للجزيرة. *إنما هو فضولك لمعرفة سبب تشوق رفيق الرحلة غايب إلى زيارة الجزيرة ومن أجل شيء آخر في نفسك.* كان الطقس لطيفا على سطح المركب يميل إلى البرودة، وكانت رحلة مدهشة. *في هذه صدقتِ.. كانت مدهشة. اكتبي ما شئت، يبدو أنك بصدد كتابةٍ تحتاج مني إلى تحرير كثير يوازي إعادة كتابة!*

رسا المركب غير بعيد عن مرفأ الجزيرة، ولم يقترب كثيرا إلى

حيث ترسو المراكب الخشبية الصغيرة بسبب المياه الضحلة. وأنزل القبطان من المركب البخاري قاربا صغيرا ذا مجدافين مع البحار الفارسي ليوصلني إلى الجزيرة. جدف الرجل دقائق قبل وصولنا، ومر بين بضعة مراكب يقف فيها الرجال أنصاف عراة يلقون شباك الصيد في البحر. وعند صخور المرفأ ربط المركب بين المراكب الأخرى الراسية، ومن هناك شاهدت المبنى الصغير الذي تدور حوله الخرافات وقصص المعجزات -يسمونه مقام الخضر كما كتبت سابقا وهو القديس جورج بحسب ما يقول إدوين- تزوره بعض النساء. وقرب ذلك المبنى عرض البحار الفارسي أن يرافقني إلى بيت سيدة الأكاسيا بعدما سألنا عنها وعرفها الناس باسم أم الخير، لكني في الساحة أمام مبنى مقام الخضر وجدت بضعة من الحمير مع أصحابها، ركبت واحدا وطلبت من البحار انتظاري ريثما أعود. وبمجرد أن ذكرت اسم أم الخير لصاحب الحمار قال:

بيتها في القرينية.

وعلى ظهر الحمار تحت شمس الظهيرة كنت أتلفت سعيدة بمنظر الأعشاب والأشجار في بساتين النخيل والسدر والأثل والطلح المتناثرة هنا وهناك. لا يوجد كثير من الناس هنا، وأظن أن أهالي الجزيرة بضع مئات لا يتجاوزون الألف نسمة بأي حال من الأحوال.

قادني صاحب الحمار إلى بيت غير بعيد عن البحر، بيت أخضر لكثرة الأشجار والنباتات المحيطة به، التي تظهر من وراء سوره الطيني. بيت عربي الطراز مثل بيوت البلدة لكنه أكبر. وما إن اقتربنا من البيت حتى سمعت أصوات عزف وغناء جماعي غير مألوف لأذني ولا أتذكر أني سمعت مثله في البلدة، وحسبته حفل زفاف،

ربما حفلات الزفاف في الجزيرة تقام في الظهيرة وليس في الليل مثلما اعتدت البلدة.

كان باب البيت الشمالي المقابل للبحر مفتوحا، وكثير من الرجال والنساء يدخلون. وحينما سألت عن السيدة أم الخير عند الباب سألتني جارتها من أكون، وأخبرتها بأني طبيبة بيت الزجاج في البلدة -الديرة كما يقولون- فعرفت أني خاتون حليمة كما يسمونني، وقالت لي إن صاحبة البيت تحتفل باستشهاد ابن أخيها في معركة الجهراء. قالت إن زوجة الشهيد أمينة أرادت أن تقيم مجلس عزاء آخر بعد شهر من وفاته، لكن الخالة زمزم -كما يسمونها- رفضت أن تتلقى العزاء، وأن من الواجب أن تتلقى التهاني باستشهاد ابن أخيها الذي سبقها إلى الجنة وسوف يكون وسيطا لعائلته لدخول هذه الجنة.

حسنا، هنا شيء لم أتصور رؤيته أبدا، كأن هذه الجزيرة لا تمت إلى الكويت بصلة كبيرة، تشبه البلدة في شيء وتختلف عنها في أشياء. فهي أقرب إلى البحرين بطبيعة أهلها الذين عاصرتهم خلال عملي في الإرسالية الأمريكية في المنامة، أكثر انفتاحا مع الغريب والتعامل معهم أسهل. دخلت البيت المزدحم بالعائلات. تفوح فيه رائحة ماء الورد والبخور. ووجدت المرأة هنا في أبهى صورها، مثيلة للرجل تحاوره وتجادله وتغني معه وترقص ولا تحتجب عنه في الغرف إذا ما دخل بيتها. المرأة في هذا البيت ليست مضطهدة ولا تبدو أدنى من الرجل في شيء على الإطلاق. في البلدة كنت أقارن بين انفتاح منطقة «شرق» وبين انغلاق منطقة «قبلة»، لكن في هذه الجزيرة، أو في بيت أم الخير على وجه الدقة، وجدت انفتاحا جاوز

الانفتاح النسبي الذي كنت ألاحظه عند الأهالي في شرق البلدة، أو في الصحراء عند نساء البدو اللاتي يستقبلن الضيوف في غياب أزواجهن ويقمن بواجب الضيافة. في الجزيرة وجدت المرأة حرة ومسؤولة كما تمنيت أن أراها في أحياء الكويت. ترتدي الثياب المحتشمة لكنها لا تتغطى بخرقة قماش سوداء، إلا البعض. تقف إلى جوار الرجل، ولا تمشي وراء زوجها أو ولدها ببضع خطوات.

مساحة البيت الداخلية كبيرة تغطيها الأعشاب الخضراء، وتنمو فيها أشجار كثيرة. وكان الناس نساء ورجالا وأطفالا يصفقون ويرددون الأغنيات مع الفرقة الغنائية التي تتكون من ثلاث مجموعات يقفن في صفوف أفقية يواجهون بعضهم على شكل مثلث. الصف الأول يتكون من ثماني نساء بلا عباءات سوداء، يرتدين الثياب التقليدية بألوان زاهية، كاشفات الوجوه يغطين شعورهن بالملفع الأسود لكن بغير إحكام حيث تظهر مقدمة الشعر، وتحمل كل امرأة في الصف منديلين ملونين بكلتا يديها. والصف الثاني للرجال بعدد مماثل يحملون المناديل أيضًا. والصف الثالث لفرقة الغناء فيه سبعة رجال يحملون الطبول، ومن بينهم رجل ثامن يتمايل بدا أنه عضو الفرقة الأهم، يتنقل من مكان إلى آخر بين الصفوف الثلاثة، أو يقف مثل طائر الفلامنغو على ساق واحدة وهو ينفخ بآلة موسيقية تشبه مزمار القربة الإسكتلندي، له اسم فارسي بمعنى «القربة»، آلة موسيقية هوائية تعزف عن طريق النفخ بداخل كيس جلدي واسع. والرجل رغم أنه منفوخ الخدين يطبق شفتيه على الأنبوب الخشبي للمزمار فإن السعادة بدت واضحة على وجهه.

تقابل صفا النساء والرجال يؤدون حركات راقصة بطيئة رصينة،

والجميع يلوح بالمناديل الملونة. كان بيتا مليئا بالبهجة، والنساء يقفن بعضهن إلى جوار بعض يمشين بشكل أفقي ذهابا وإيابا، يتثنين إلى اليمين وإلى الشمال، ويلوحن بأيديهن بالمناديل على أنغام الآلة الموسيقية الشجية وقرع الطبول. وسرعان ما اشتد القرع وتسارع لحن الآلة حينما تصايح الأطفال: الخالة زمزم الخالة زمزم.

عرفت أنها سيدة الأكاسيا صاحبة البيت، أم الخير، المرأة التي تتبرع بلحاء شجرتها علاجا للمرضى. سمعت بأن الجميع يحبونها، وشاهدت ذلك في وجوه الحضور من عائلات الجزيرة، ووجدت أني أحمل الشعور نفسه لمجرد رؤيتها تنهض من جلوسها على كرسي خشبي عندما تصايح الأطفال. أسندت أنبوب النارجيلة على المقعد، وقد كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها امرأة تدخن في الكويت، وإن كانت الجزيرة لا تشبه الكويت. وحملت المرأة رضيعا ملفوفا بقطعة قماش كان في سرير خشبي إلى جوارها. ومشت نحو الفرقة. امرأة في منتصف الخمسين أو في الستين بحسب ما خمنت. ترتدي ثوبا بنفسجيا وفوقه ثوب شفاف مطرز بالترتر الذهبي، تلف شعرها بغير إحكام وتظهر غرتها المفروقة من المنتصف بلون الحناء. ابتسمت ابتسامة واسعة رغم التعب البادي على وجهها. مشت نحو الأطفال في إحدى الزوايا وانحنت على طفلة وأخذت منها منديلا أخضر، وعلى أنغام الموسيقى سارت حاملة الرضيع بخفة كأنها تسير على الهواء. وقفت بين النساء الثماني، وراحت ترقص معهن تحمل الرضيع بذراعها اليمنى وتلوح بالمنديل الأخضر بيسراها. كانت كل العيون موجهة إلى المرأة والرضيع وهي تغمض عينيها وتتمايل ببطء ورشاقة وسط البستان. ارتعش قلبي وأنا أدير رأسي أتابع

صف النساء الذي يروح ويجيء ملوحا بالمناديل الملونة حتى تمنيت لو أني أشاركهن الرقص التقليدي الذي لا أجيده.

مضت دقائق على هذه الحال قبل أن تسرع الجارة التي أدخلتني البيت وتذهب إلى التي أسماها الأطفال الخالة زمزم. همست في أذنها شيئا وهي تشير نحوي. فناولت صاحبة البيت الرضيع للمرأة، وأخذت منديلا أحمر من إحدى النساء الثماني اللاتي كانت تقف بينهن. وأسرعت إلى ورحبت بصوت عال وسط صخب الموسيقى:

-حيا الله العنكريزية.. ما الذي جاء بك من الديرة؟

قربت شفتي إلى أذنها ورفعت صوتي وسط الضجيج:

-جئت آخذ شريحة من لحاء الطلحة.

مدت اصبعها نحو شجرة طويلة ضخمة الجذع وقالت:

-الطلحة وصاحبة الطلحة تحت أمرك يا خاتون حليمة.. لكن ليس الآن.

ناولتني المنديلين الأخضر والأحمر، وأمسكت بذراعي وقادتني إلى النساء الثماني اللاتي أفسحن لي فرجة بينهن ودعتني إلى الرقص:

-استشهد ابن أخي في الجهراء.. وله شهر ينعم بالجنة ويشرب من أنهارها.

ونقلت خطواتها مع إيقاع العزف والغناء، وحركت يديها يمينا وشمالا تريني كيف يكون الرقص على أنغام مزمار القربة. ورقصت، إن جاز تسمية حركات الجسد البطيئة بالرقص. نقلت خطواتي مع خطوات النساء عن يميني وشمالي وتمايلت مثلهن بجسدي، ولوحت

بالمنديلين على أنغام المزمار، وصاحبة البيت تشجعني وتصفق. تمنيت لو أني أحضرت صغيراتي معي. دمعت عيناي وأنا أشاهد هذه التفاصيل الصاخبة وأنا جزء منها، وأتخيل كيف لهذه المرأة العظيمة أن تحول حزن الموت إلى مناسبة فرح وقبول بالمصير الذي كتبه الله لابن أخيها. أي إيمان بالرب وبالجنة تملكه هذه المرأة التي أسميتها سيدة الأكاسيا؟

انتهى الحفل سريعا، وسكتت الأنغام والطبول وانصرف الحضور. فارتفع من إحدى الغرف مغلقة الأبواب بكاء امرأة تخللتها كلمات غاضبة:

-الله يلعن الرضيع يا ليته ما جاء.. إن شاء الله يحترق بالنار مثلما قالت أم حدب.

فقالت سيدة الأكاسيا إنها زوجة «عبدالعزيز» الذي استشهد في المعركة، فقدت عقلها بعد فقدان الزوج وكرهت الرضيع:

-مجنونة.. تحزن على زوجها وزوجها سبقها إلى الجنة.

كان المنديلان لا يزالان في يدي. أخذت سيدة الأكاسيا المنديل الأخضر. واقتطعت شريحة صغيرة من لحاء الشجرة ولفته بالمنديل، وقالت وهي تعطيني إياه:

-انقعيه في الماء المغلي واشربي ماءه.. وليس عليك شر إن شاء الله.

-ودعتها لكنها لم تقبل أن أنصرف من بيتها قبل أن تحملني بالهدايا، فأعطتني صلصة السمك المجفف وأقراص خبز صغيرة

محلاة بالسكر، وودعتني وهي تدعو لي بالرزق والبركة.

امتطيت الحمار عودة إلى المرفأ وأنا أقول في نفسي: لم تكن مبروكة هي المرأة التي حلمت بأن تكون نموذجا للمرأة في الكويت، بل هي سيدة الأكاسيا ساكنة الجزيرة.

* ملاحظة:

قمت بفحص واختبار لحاء الأكاسيا بعد أيام من زيارة الجزيرة، ولم يكن في تلك القشرة الخشبية الجافة أي فائدة تذكر، بل إن ماءها المغلي غير صحي وغير آمن على سلامة الكلى.

Eleanor J.T. Calverley

Saturday, November 20, 1920

PM 11:00

***

آن لكاتب الأسفار أن يضع ساقًا على ساقٍ ويكتب، ما دام غيره على آلته الكاتبةِ ما زال يكذب. بكيتِ في الجزيرة؟ حصَل. ورقصتِ؟ هذا صحيح، لكن ليس على النحو الذي كتبتِه في يومياتك يا طبيبة ولا في بيت أمِّ الخير زَمزَم. أبَعدَ ليالٍ عشر من زيارة الجزيرة تكتبين؟ أم أنها الفاجعة ما خلّت لك عقلًا للكتابة فور عودتك. أُقسم بالخيال وبرب الخيال إنك تُصدّقين. إلامَ تطولُ الرِّيبة وكتابك المقدّس يقول إن المرتاب يشبه موجًا من البحر تخبطه الرِّيح وتدفعه؟ أما تعبت روحك من الرِّيح يا موجة؟ أفلا تُصدّقين؟ أو ربما وقعُ الحدث في نفسك أنساك بعض التفاصيل، فأحلتِ في أوراقك

حدَثًا خياليًا مكان حدَثٍ واقع. وأنا أحذرك يا طبيبة.. لا تُباريني في الخيال.. ولا تلعبي مع كاتب الأسفار الذي منذ سنين يلعب مع أم حذَب.

فاجأك في مرسى «رأس عجوزة» خَليفُوْه أبو القُطاوة بعدما صعدتِ إلى سطح المركب البخاري لدار الاعتماد. صاح وقتما ألقم البحّاران خزان الوقود بالفحم قبل الإبحار. وجاء يركض مع قِطَطِه الثّلاث يتبعهم ولده الشّيخ المشوّه. وطلب إليك أن تأخذيه معك في إبحارك، ولده غايب بُوْدَزياهْ، إلى بيت أُم الخير في الجزيرة قبل عبوره الموجة التي تنكرين. ضايقكِ طلبه وكلانا يدري، أنتِ وأنا المتمثّل في كوابيسك شيطانًا يقول الحقيقة، أنك ما أبحرتِ إلى الجزيرة طلبًا للقاء سيّدة الأكاسيا على ما أسميتِها. ولا جاء في بالك أن تزوري بيتها البستان من أجل لحاء شجرتها المباركة، لكن صعود بُوْدَزياهْ إلى سطح المركب أربكك، وما قدرتِ على ردّ طلبٍ لـ خَليفُوْه الذي تحبين. وأنت منذ فجر ذاك اليومِ واجمةٌ صفراء. مذهولة لمرأى قِطّتكِ السّوداء مبتورة الذّيل مبروكة، تموء في ساحة بيتك مواء النفوق في مخاضها الأخير. أطبقتِ على بناتك الصّغيرات باب البيت كيلا يُبصرن ما أبصرتِ. وأسرعتِ إلى بيت القُطاوةِ عند سوق الحريم تستنجدين بـ خَليفُوْه. ولا فعل الأخير فعلًا غير وقوفه إلى جوارك في ساحة البيت. ينظر كلاكما إلى القِطة السّوداء يخترق مواؤها الآذان ويزلزل القلوب. تُغمض عينيها ويرتعش رأسها وهي تلفظ من جوفها خمسة رؤوس وردية لِقِطَطٍ صغيرةٍ بلا أجساد، فيشقُّها سادسهم قِطٌ فحمي السّواد بالغٌ صحيحُ البدن غزيزُ الفراء كاملُ الأسنان، فيُخلّفُها وراءه بارزة الحلَمات دونما رُضّع، تنفقُ داميةً

مشقوقةَ الفَرْج شاخصة العينين.

ساعتان من الإبحار سمعتِ فيها ما سمعتِ من بُوْدَزياهْ، عن عمّةِ أبيه المنتحل، الأب الذي مات على أعتاب المشفى مُبتلِعًا لسانه على ما كتبتِ في يوميّاتك، وعن طفل التنُّور الذي كانه، وعن رغبته الأخيرة في لقاء زَمْزَم قبل العبور إلى غد.

«وجهتنا واحدة..».

قال لكِ، فأتم:

«بيت أم الخير، أنت من أجل لحاء الطلحة، وأنا كي أحذرها من نار التنُّور».

وهبطتما من المركب البخاري إلى قاربٍ صغيرٍ قاده البحّار الفارسي، هذا صحيح، لكن غايب الذي غيّبتِه في أوراقك كان حاضرًا إلى جوارك في القارب نفسِه، يُشير صوبَ كل اتجاه قرب مرسى قرية سعيدة. حتى بعدما هبطتما من القارب استحال الهَرِمِ الوَلِه إلى جزيرةِ صِباه مُرشدًا سياحيًا خبيرًا بالمكان:

«هُنا قبر سعيدة وتلك كانت حكايتها مع شقيقيها سعد وسعيد صاحِبَي الضّريحين جنوبَيّ الجزيرة. وإلى جوار قبرها سوف يكون قبر زَمْزَم الذي عطّرته بماء الورد وقرأتْ عنده الكتب سنينًا طويلة.. هُنا بيت فُلان، وإلى جواره بيت فلانة، وهُناك دكاكين فلانٍ وفلانٍ وفلان.. وتلك سِكّة بيت شيخ الجزيرة جابر بن عبدالله بن صُباح.. وهذا مقام الخِضر وذاك بيت خادمة المقام أُم صَنقُور».

وانتفض قلبكِ لذكر المقام وخادمته، وأنتِ التي ما أبحرتِ إلى

الجزيرة إلا من أجله عساكِ تفهمين، لكن رفيق الرّحلة صدّق كذبة مقالة التّداوي بالنّباتات التي تنوين نشرها في المجلة وما نشرتها أبدًا. وقادكِ إلى بيت التي ربّته مشيًا على الأقدام، وما استطعتِ الرّفض أو التملّص من زيارة بيت أم الخير، فخلّفتِ المقام وراء ظهرك لا تكفّين الالتفات إليه بين حينٍ وحين، مثل التفاتات خَليفُوْهْ المجنونة خشية أن يكسر ظهره رجل، وأنت مكسورة القلب إلى بيت أم الخير تمشين. أما البحّار الفارسي فما نزل من القارب الصّغير على ما دوّنت في يوميّاتك، بقي في المرسى، ولا عرض عليك أن يرافقك إلى بيت أم الخير. ولا حِمار ولا حمّار أخذاك وحيدةً بين بساتين النّخيل والسّدر والأثل والطّلح. وحده غايب يمشي إلى جوارك ويشير نحو كلّ صَوب. يعرف كلّ بيت رضع فيه، وكلّ بستانٍ تسلّق أشجاره، وكلّ ساحلٍ مشى على رملِه، وكلّ مسجدٍ صلّى فيه وكلّ ضريح زاره مع زَمزَم. حتى لمّا خطفَت أمامكما غزالةٌ برّيةٌ قال إنها سليلة زوجٍ من الغزلان أطلقه أحد الشّيوخ في الجزيرة قبل سنواتٍ طويلة، فتكاثرت الغزلان جيلًا بعد جيلٍ قبل أن تنفق كلُّها سنة الجراد الرّابعة، سنة تموت فيها أُم الخير زَمزَم بعد إحدى وعشرين سنة من يومكم ذاك.. فتموت الطّلحة ميتتها الأولى، فيحييها بعد رحيل الجراد ويحيي بستان زَمزَم التي ماتت بعد كثير احتضارات. أفلا تُصدّقين؟

جميلٌ بيث زَمزَم، وجميلٌ بستانها، وجميلٌ كل ما دوّنتِه عن رحلتك إلى هناك، لكنك يا طبيبة ما صدَقتِ فيما كتبتِ، فلا حملتِ المناديل في ذاك المكان، ولا رقصتِ إنما غايب هو الذي رقص وراقص، أما رقصك فقد كان في مكان آخر دخلتِه إلينور المُبشّرة وخرجتِ منه

امرأة لا تعرفينها.

انفضّ الجمع بعد احتفاء زَمْزَم باستشهاد عَزّوز الهدّار وبلوغه الجنّة، تُحيي ذكراه بعد مرور شهرٍ من رحيله. وطلبتِ منها عيّنة من لِحاء طلحتها، صحيح، لكنك ما جئت على ذكر غايب بُوْدَرياه الذي حمل المنديلين الأخضر والأحمر، وراقص زَمْزَم قبل انصراف المحتفين وما فكّ لثامه. تملّكته رغبة عارمة بأن يُعانقها ويُمرّغ وجهه في ثوبها ويتنشّق عطر ماء الورد، غير أنه في عينيها رجلٌ غريب، والرّضيع المحمول على ساعدها الأيمن بوجهٍ جميلٍ سليمٍ ما مسّته نارُ التّنّور.. يُرعبه. كبح جماح رغبة العناق واندَسّ بين صفّ الرّجال الثّمانية في المنتصف، مقابل زَمْزَم وسط صفّ النّساء، ورقص. مُلثّمٌ بغير نظارة سوداء يهطل الدّمع من عينيه اللّتين ما فارقتا أم الخير وهي تُلوّح بشمالها بمنديلٍ أخضر تتثنّى في مشيتها بين النّساء، وفي يمينها الرّضيع الذي كانه.

ما رضيَت صاحبة البيت الكريمة أن تغادري بغير هديةٍ، فأهدتكِ بعدما لفّت قطعةً من لِحاء طلحتها بالمنديل الأخضر أقراص الكليچة المُحلّاة بالسُكّر، وغُموس المَهْياوة من مُجفّف صِغار أسماك العُوْم. وانصرفتما أنتِ وغايب بعدما قال الأخير لأم الخير:

«بعد تسعة شهور.. إن غفلت عن الصّغير.. يسقطُ في التّنّور».

استعاذت زَمْزَم من شرّ القول وهي تعصرُ الرّضيع بين ساعديها. وردّت على الملثّم الغريب بأن عِلم الغيب عند الله، وأنها لن تُصدّق أن أحدًا يعلم ما سوف يصير للولد. فأجابها غايب بعد نظرةٍ طويلةٍ إلى عينيها:

«تموت أمينة قبل أن يتمّ الرّضيع شهره العاشر.. وإذا ماتت.. حاذري التّنّور عمتي زَمْزَم».

وخرجتِ يا طبيبة مع الغريب من بيت زَمْزَم، والأخيرة على عتبة دارها تُشَيِّعكما بنظرةٍ ساهمةٍ وقلبٍ مرتابٍ لما خلّفته كلمة الغريب في نفسِها: عمتي زَمْزَم. فعاهدت نفسها ألا توقد التّنّور يومًا، فالغريب يقول شيئًا يُصدّقه القلب وإن رفضه العقل، لكن قلب زَمْزَم دليلها، وسلامة الرّضيع أولى من خبز التّنّور ومشوي السّمك وأقراص الكليچة.

تركتما القرينية ومشيتما في صمت. شاردة الذهن كنتِ وغايب إلى جوارك يحمل عنك هدايا زَمْزَم. وأدركتما ضريح سعيدة بعد ارتفاع أذان العصر. وارتفع في مقام الخِضر قرع الطّبل ونقر الدُّفوف. فقلتِ لـ غايب قبل أن تتجاوزا المقام إلى المرسى حيث ينتظركما البحّار الفارسي في القارب الصّغير:

«سوف أزور خادمة المقام.. لن أتأخر».

ولمّا همّ بالمجيء معك أشرتِ له:

«اِبقَ هُنا».

وارتقيتِ العتبات الصّخرية في حين انزوى غايب عند ضريح سعيدة، يتأمّل المساحة الفارغة إلى جواره حيث يحفر في قابل السنين قبر زَمْزَم، في السّنة التي أسماها أهل الجزيرة سنة المدرسة الفَيْلَكاوِيّة، تلافيًا لذكر سنة الجراد الرّابعة، وعبورًا على ذكرى الجراد الذي سوف يُنكّل بالجزيرة أواسط موسم برد العجوز سنة 1941، ويحيل أخضرها إلى يابسٍ أصفر.

غصّت حجرة المقام الصّغيرة بالنّساء ودُخان اللُّبان الذي تصاعد إلى سقفٍ تقشّر دهانه الأخضر. وسكت قرع الطّبل ونقر الدُّفوف، ودارت كلُّ الوجوه إليكِ فور دخولك حاسرة الرأس مكشوفة السّاقين، تلمع في جيدِكِ الأبيض قلادةٌ يتدلّى منها صليب، أهداكِ إياها إدوين في عيد زواجكما الأوّل قبل أربعة عشر عامًا. وأم صَنقُور تحملُ دفًّا، معتكرة المزاج مُذ خالف ولدها الأكبر صَنقُور أمرها قبل شهر، حينما أوصته بـ سليمان إذا ما وصلا سِيفَ الوَظية: غطسه ولا تغطس، لكن القصاصة الشّقي خالف أمرها وغطس مع ولد شايعة بحسب ما ظنّت.

«السّلام عليكم».

ألقيتِ السّلامَ حاسِرة الرأس فردّت سلامَكِ النّساء كلّهنّ إلا خادمة المقام، بحلقت إليكِ كأنما تخترق جسدك وتستقرُّ نظرتها في روحك:

«لا أسفَرَت ولا أنوَرَت ولا استهلّت ولا أمطرت.. من أنتِ؟».

ولمّا قلتِ إنك الخاتون حليمة طبيبة بيت الزُّجاج قالت المرأة: اقعدي. فقعدتِ. ناولَت أُم صَنقُور الدُّفَّ لإحدى النّساء المسربلات بالعباءات السّود. وجلست على الأرض أمام موقد الحطب. غذّته بمزيد من بخور اللُّبان، فأخرجت من تحت الموقد هدية صَنقُور من التّبّات السّابقة، عجينتها السّوداء السّحرية، وكشطت منها قطعةً أسقطتها في جمر الموقد وتنشّقت دُخانها الأزرق، فانتشت، وارتخى جفناها وابتسمت، ثمّ رنّت ضحكتها مثل ثغاء نعجةٍ وقالت وهي تُمرّر أصابعها على الأصداف والأظلاف في قلادةٍ طوّقت جيدها:

«لماذا لم تُشفي أم حَدَب من البَرَص؟».

لكنكِ عجزتِ عن قولِ كلمةٍ عن اشتراط الإيمان بكتابكِ المقدّس لئلّا تُغضبيها. فسألتك عن اسم أمّك، وأجبتِ بريبةٍ تحصنتِ منها بلمسِ صليب قلادتك:

«أمي.. اسمها.. Jane Long Hillman Taylor».

«ها؟! كل هذا اسم أمّك؟!».

تداركتِ فذكرتِ اسمَ أمّكِ الأوّل:

«جين».

انتفضت أم صَنقُور النّشوى بالدُّخان الأزرق:

«جِن؟! أعوووووووذ بالله.. ما حاجتك يا بنت الجِن؟».

وتلكأتِ يا طبيبة تنظرين إلى النّسوة حاملات الطبل والدُّفوف، فعاجلتكِ كبيرة الصاجّات خادمة مقام الجزيرة:

«أم صَنقُور تقول القولَ مرّة ولا تُثَنّي».

فأفضَيتِ يا طبيبة يا مُبَشّرة إلى الصاجّة عمّا رأيتِه من ولادة القِط الأسود البالغ من جوف قِطّتِكِ مبروكة، وشكوتِ إليها السّهر وقِلّة النّوم بسبب كوابيسك التي تجيء بصوتي يُوَسْوِسُ لكِ في كل ليلة مثل الشّيطان. فأسكتتكِ أم صَنقُور بإشارةٍ من يدها وهي تقول بخشوع:

«بس بس..».

طأطأت تُحملقُ إلى أصابعها:

«أما القِطُّ الأسود فهو طوعس الذي دفنته عند عتبة هذا المقام قبل سِتَّة أثامين وثلاثة أيام..».

رفعت السّاحرةُ عينيها إلى عينيك وأتمّت:

«..وأما زائر الكوابيس.. فهو كاتب الأسفار».

قطّبتِ يا إلينور حاجبيكِ تستفهمين، فقالت خادمة المقام:

«انسي أمر الأول، أما الثاني فأنا أستحضره هُنا.. وأنا أشفيكِ من كوابيسك.. علاجٌ يؤلمك سويعات، لكن تطيبُ بعدها روحك».

لذتِ بالصّمتِ تُفكّرين. *أبانا الذي في السّموات*. تتحصّنين بذِكرِه عن صوتي وتجاربك مع الوساوس في كوابيسك ومعاناة السّهر، *لا تُدخِلنا في التّجارب*. تتوقين إلى الخلاص مني. *لكن نجّنا منَ الشّرير*. فهززتِ رأسك لخادمة المقام:

«وأنا جاهزة».

فهل كنتِ؟

***

تناهت إلى غايب عند ضريح سعيدة أصوات الطّبل والدُّفوف على الإيقاع العاشوري تجيء من المقام، فارتفع ترديد النّساء وراء غناء أم صَنقُّور:

البارحة نوم المَلا ما جاني

عيني سهيرة ومرقدي مليته

فحثّ الرّجل خَطوَه إلى عتبات المقام يرتقيها، وأطل من شقٍّ

الباب الخشبي وأبصر امرأة تتسربل عباءة لا يظهر من جسدها شيء، تجثو على ركبتيها وتُميل رأسها يَمنة ويَسرة بين النّساء الواقفات يضربن على الدُفوف. تتنقّلُ بينهنّ خادمة المقام مُنتشيةً بفعلِ دخانها الأزرق، تتمايل وهي تُمسك بطرف مِلفَعِها، يلمعُ وجهها الأسود بقطرات العَرَق وهي تتطلّع إلى الأعلى، وعيناها الحمراوان شاخصتان إلى سقف المقام الذي غاب لونه الأخضر بفعل دُخان اللُّبان المُتصاعد من موقد الحطب. غابت أُم صَنقُور في شيء تُبصره في دُخان السّقف وهي تُغني خاشعة:

حَيّ الذي زارني.. وحَيّ الذي جاني

حَيّ الذي عن جميع الناس سلّاني

سقطت المرأة الجاثية على الأرض هامدةً تحت عباءتها. فمالت خادمة المقام على موقد الحطب واستلّت سيخًا حديديًّا حمّرَهُ جمرُ الموقد. ورفعت العباءة عن رأس المرأة، فتجمّد غايب وراء الباب لا يُصدّق ما يُبصر. صرخت زائرةُ المقامِ صرخةً أخرست قرع الطّبل ونقر الدُفوف حينما كوَتها خادمة المقام أعلى أُذنها اليُسرى. فصبّت على رأسِها الماء تطفئُ لهيبَ الكوي، وطوّقت عَضُدَها الأبيض بحِرزٍ حريزٍ يُخلّصها من كوابيس كاتب الأسفار أبدًا.

وأبحر المركب البخاريُّ من جزيرة فَيلَكا إلى الدّيرة، وكلا الرّفيقَين صامت.

***

انعطفَ غايب في اللّيل عند ركن بائعة الباقِلّاء الصاجّة أُم عبدالرحيم، موليًا سوق الحريم ظهره يغذُّ الخُطى إلى بيت القُطاوَة.

يمشي تحت سماءٍ مظلمةٍ يولدُ فيها الهِلالُ دقيقًا مثل قُلامة ظفرٍ عملاقةٍ عالقةٍ في الفضاء. وصمت اللّيلُ يُشاكسه تناؤبُ صرير الجنادب ونداءات أُم السّعف واللّيف وناطور اللّيل يُجيب:

«ها؟ من هناك؟!».

طرق غايب الباب الخشبي ذي الكُوّة الصّغيرة في أسفلِه، ففتحَ خَليفُوْه يرفعُ سراجًا أمامه، ووقفَ يُحدِّق إلى وجهِ ولدِه. وليل وأشهَب وإلينور يتمسّحون بساقيه ويعبرون بينهما تحت الدّشداشة. رفع أبو القِطاوَةِ رأسه إلى السّماء يتنهّد:

«وُلِدَ الهِلال، والتَبّةُ عند أذان الفجر..».

خفض رأسه وثبّت عينيه في عيني غايب:

«حققت مطالبك الخمسة.. فأي الحياتين تريد للرّضيع؟ رضيع في الجزيرة عند أم الخير زَمْزَم؟ أم رضيع في هذا البيت بيني وبين فردوس؟».

ما تردّد غايب في إجابةٍ حسَمَها على ظهر المركب البخاري في إبحاره من الجزيرة إلى الدِّيرة:

«اترك الرضيع في الجزيرة يُبّه..».

انهمرت دموع خَليفُوْه، وزمّ شفتيه قبل أن تنفرجا عن سؤالٍ أخير:

«هذا آخر قولك قبلما تعبر التَبّة؟».

تقدّم غايب خطوةً فأمسك برأس خَليفُوْه بيديه. قبّلَ رأسه، عانقه، وهمسَ في أذنِه.

«أعبر التَبّة؟».

***

صيف 1990

(66)

عَوْدَةُ الحافي

«لعلّها سحابة صيف تجلوها ريحُ الشّمال»

سِفرُ العباءة: 6

رنّ البيجر بُعيد التّاسعة مساء السّبت ببضع دقائق، يومِضُ برقم هاتف فياصل. كنت في البيت أعيد النظر فيما كتبت من أمر إلينور في المقام وغايب وخَليفُوْه في مشهدهما الأخير. تركت الأوراق وهاتفتها، وما قالت إلا كلمات ثلاثًا أردفَتها بلازِمتها قبل أن تُنهي المكالمة:

«شغّل التلفزيون بسرعة.. أوكي؟».

كانت نشرة التاسعة تبث أخبارًا عن التطورات المتسارعة للأزمة مع العراق، وبدا أن الأمور تأخذ منحى جادًا على نحو يثير القلق؛ الكويت ترفض أي تدخل دولي بين الأشقاء أو استقبال قواعد عسكرية برية وبحرية وجوية أمريكية وبريطانية، وتصرُّ على إيجاد حلّ في إطار جامعة الدول العربية، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد يوفِد وزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير سعود الفيصل إلى بغداد قبل زيارته إلى الكويت يوم غد، والقاهرة تسعى إلى جمع وزراء خارجية الكويت والعراق والإمارات. ووزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد يصرح: الخلاف مع الأشقاء سحابة صيف.

أغلقت التلفزيون على قلق فوق قلقي وإحباطي من فشلي قبل

ساعات في إخراج سليمان من مخفر كيفان. اكتشفت أني فوق نفوري من الغُبار وموسم الغُبار صارت سُحُب الصّيف تُنفرني، توهم بمطرٍ ولا تُفضي إلى شيء غير قطراتٍ لا تُرطّب جفافًا ولا تروي زرعًا ولا تُسقط غبارًا. خطرت في بالي هجرة البلابل قبل سنوات من البصرة إلى الكويت بفعل جفاف الأهوار وموت النخيل حول شط العرب خلال الحرب العراقية الإيرانية، هل تهاجر الدِّيرةَ البلابل إلى أين؟

تشاغلت عن الخبر، وفكرت في هذا اليوم الطويل والمحبط. كنت أوشك أن أخرج بـ سليمان من هناك، وأن آخذه بسيارتي إلى بيت المَصُوْقَر لنصطحب صَنقُور معنا إلى بيت الشّامية، لكن الضابط باغتني حينما طلب بطاقة سليمان المدنية. خرجت ولم أعد. وموعد التَبّة على ما يقول الشّايب فجر الأحد، أي بعد ساعات قليلة. ورنّ البيجر ثانية بعد ساعة من اتصال فياصل، وكان الشّايب. سألني ماذا سأفعل بعد خروجي من المخفر من دون الولد. ولمّا أجبته: «لا شيء».

قال:

«اكتب طريقة تُخرجه من هذه المشكلة.. حِلّها».

فأردف لمّا لزمتُ سكوتي:

«..إِكتب على ما شئت يا بوحَدَب وخلّصنا!».

وأطبق الوغدُ الخَرِفُ السماعة كأنما ليست الكتابة مرهونة بنفسية مستعدة ومزاج صافٍ وتركيز عالٍ. أكتب ماذا؟

أمسكت بقلمي وخططت ما لم يقنعني. كتبت أن ضابط المخفر عاود الاتصال بكاتب الأسفار. يقول إنه علم متأخرًا من يكون، وإنه انتظره طويلًا كي يعود ببطاقة الفتى، وإنه حاول الوصول إلى رقم هاتفه قبل أن يُنقل سليمان إلى جهة أخرى مساء اليوم. قال إنه ذكر الاسم بحسب ما قرأه في بطاقته المدنية لأحد الجهات الأمنية كي تستدل على رقم هاتفه، وأخبرته الجهة أن صادق عبدالرزاق بوحدَب، روائي معروف، وزوّدته برقم هاتفه. اعتذر الشُّرطي لـ بوحدَب عن جهله، وقرر الضابط أنه محل ثقة واعتزاز، وعليه؛ يمكنك العودة واستلام الفتى.

روائي معروف محل ثقة واعتزاز! تذكّرت دعوة البصق التي صمتت عنها الحكومة، والتي أفضت إلى حادثة المصعد بعد خروجي من مكتبي. تذكّرت المنع وإتلاف النُّسَخ والتّشهير، فمزّقت الورقة في الحال بعد إعادة قراءة تلك السخافة. وأعدت الكتابة مرّة واثنتين وثلاثًا. ومزّقت وكتبت من جديد آخر ما كتبت:

..جاوزت الساعة السابعة بقليل حينما وقفت ثلاث حافلات تحمل شعار وزارة الداخلية أمام مخفر كيفان. وخرج من بوابة المخفر ثلاثة طوابير لرجال ونساء مقيّدي الأيدي إلى الوراء، يقودهم ثلاثة من الشُّرطة، كل طابور إلى حافلة مُشرعة الباب تُفضي إلى مجهول. وسليمان في ذيل طابور تضمّن ستّة مراهقين، حافي القدمين يُلقي غترته على رأسِه كيفما اتفق، شاخص البصر إلى كل ما حوله، إلا الحافلة مُشرعة الباب التي تأخذه بعد قليلٍ بعيدًا عن التبّةِ إلى أين؟ نظر إلى السّماء ناحية هِلالٍ يولد على مهلٍ بين النُّجوم، دقيقًا في سماء اللّيل. يتذكّر قول صَنقُور: لو ما خرجت يوم السبت.. لن تعبر

التَّبّة بعد فجر الأحد أبدًا. ولا فكّر الفتى في شيء إلا في موعد التَبّةِ الذي يوشك أن يحل أوانه بُعيد ساعات قليلة. وهو رغم وجوده في كيفان لا يعلم الوجهة إلى بيت المُصَوْقَر، والأكيد أن ساحل الوَطْيَة حيث القرية التُراثية بالنسبة إليه، في هذه الدِّيرة الجديدة، مكان غير معلوم الوجهة بين الأرصفة والشّوارع والمباني الكئيبة العجيبة. عضّ طرف غترته المُلقاة على رأسِه وعيناه تتخضّلان بالدّمع شاخِصَتا البصر إلى ولادة الهِلال في سماء اللّيل.

وتقاطرت الخادمات الآسيويات الهاربات من بيوت مخدوميهم إلى الحافلة الأولى، يُبصرهم مثل «عبداتٍ» خائفات هاربات إلى بيت المعتمد البريطاني في زمنٍ آخر، واتجه طابور المدمنين وشاربي الكولونيا وشمّامي صمغ البـاتِكس إلى الحافلة الثانية، أما الطابور الثالث فقد مضى إلى الحافلة الأخيرة. ركب المراهق الأول، فالثاني، فالثالث فالرابع فالخامس، وفرّ سليمان.

ركض الفتى لا يدري إلى أين، ونادى الشُّرطة الثلاثة أحدهم الآخر يشيرون نحو الفتى الفار. وركض اثنان منهم وراءه وهو يركض نحو الشّارع عاضًّا غترته، فتشجّع اثنان من طابور المدمنين في هذه الجلبة، وانسلّا بأصفادهما من الطابور عند باب الحافلة وركضا في اتجاه سوق كيفان المركزي، فدبّت الفوضى ونادى شرْطيٌ على رفيقيه الرّاكضَين وراء سليمان. تردّدا، فانعطفا بركضهما وراء المدمنَين الفارّين نحو السّوق متخلّفين عن فتى الكهف الذي باعد في ركضه. وخرج اثنان من الشُّرطة على إثر الصُّراخ وركبا إحدى سيّارات المخفر وأطلقا صفيرها ووميضها الأحمر الأزرق، والشُّرطي الواقف عند الحافلات يُشير إليهما صوبَ وجهة ركض المراهق

الهارب.

والتفّ سليمان راكضًا مقيّد اليدين في السّكّة الدّاخلية بين حديقة الأندلس وساحة مسجد سعيد بن جبير، وقد أذعره صوت صافرة سيارة الشُرطة يخرق أُذنيه يتمثّل في ذاكرته القرآنية صوتَ صُورِ يوم القيامة. دبّ النّمل في وجهه، ولاذ بالحديقة من بابها الخلفي. كانت الحديقة خالية من النّاس ليل السّبت، إلا بضع خادمات مع مجموعة أطفال يُلملمون حاجياتهم قبل خروجهم. وجد سليمان نفسه في منتصف الحديقة فوق العشب اليابس، ووميض سيارة الشُرطة يخطف في الشّارع الموازي لسورها المشجّر، يتجاوز بابها الرئيس ويبتعد صوت الصافرة نحو الإشارة الضّوئية عند تقاطع آخر الشارع. ويعود الصوت والوميض يجولان في الشوارع الداخلية المجاورة قرب الحديقة. وسليمان يتلفت حوله يابسَ الرّيق، ينظر إلى ألعاب الأطفال في الجوار، ليس بين المراجيح والزُحليقات مخبأ إلا بيتٌ خشبيٌ صغيرٌ أحمر الجدران أزرق السّقف، يرتفع عن الأرض معلّقًا على أربع قوائم، له سُلّمٌ خشبيٌ يُفضي إلى باب، وتنحدر من بابه الآخر زحليقة حديدية. ارتقى السُلّم الخشبي بصعوبة مع أصفاده، واندسّ في بيت الأطفال المعلّق المظلم مثل كهف، لاهثًا مثل زرزورٍ منتوفٍ عَطِشٍ تحاصره القِطط..

..تركت قلمي على الأوراق لمّا جاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، وعاودت قراءة ما كتبت، أزِنُ حادثة الهروب في رأسي وأقنع نفسي بقبولها. فرنّ البيجر ثالثة واتصلت. وكأنما شاهدت في قول الشّايب ابتسامته الخبيثة:

«أنت تكتب بشكل جيد يا ملعون».

***

مكثَ الفتى ستّ ساعات في بيت زحليقة الأطفال في حديقة الأندلس مقابل مخفر كيفان، منقوعًا في الظلام والعرق، حتى جاوز الوقت مُنتصف اللّيل، وتردّد في الخروج من كهفِه حتى بعد اختفاء وميض سيارة الشُرطة وسكوت صافرتها وارتفاع صرير الجنادب، فهو لا يدري إلى أي وجهة يمضي بأصفاده، ولا أين يكون ساحل الوَطية في مدينة الأسمنت والأسفلت هذه.

تكوّر على نفسِه وكتم أنفاسه حينما سمع وقع خطواتٍ على يابس العشب تقترب. وارتعشت أطرافه حينما توقّف الخَطوُ قريبًا من مخبئه بضع دقائق، لكن أنفاسًا لاهثةً تتردّدُ في القريب، وهو بالكاد يتنفّس بين حبسةِ نفَسٍ وأخرى، مثل تبّاتِه الطّويلةِ زمنَ إبحاره على السّنبُوك الحامِدي.

طَرق جدار بيت الأطفال المعلّق طرقتين، وأُردِفتا بالقول:

«اِطلع يا سليمان».

جفل الفتى وما طلع ولا تحرّك قيد شعرة. فصرّ خشبُ سُلّم الزُحليقة الذي أهرأته الشّمس صريرًا بطيئًا، تصاعد شيئًا فشيئًا على وقع لهاث المقبل. فأطلّ رجلٌ من باب بيت الزُحليقة الصغير:

«تعال يا ولد شايعة».

وما ردّ سليمان المتكوّر على نفسِه يُرسل بصره إلى مُحدّثه الغريب في الظلام:

«حلّفتك بالله يا عَنفُوز لا تُدبر.. ودعنا نعيدك إلى بيتك القديم مثل

المولاف».

وظلّ سليمان على حاله لا تصدر عنه كلمة ولا نأمة. تلمع عيناه في ظلمة بيت الزُّحليقة. مدّ إليه الرّجل كفّه مرتعشة:

«لا تخف.. أنا كاتب الأسفار».

وكان بوحدَب أكثر منه خوفًا، حينما ألفاهُ على ما أنهى كتابته قبل خروجه من البيت قبل قليل وإشادة الشّايب بكتابته. هبط بوحدَب السُلّم الخشبي وهمس:

«يالله!».

وما قدِرَ سليمان أن يهبط السُلّم بيديه المقيّدتين إلى الوراء، فأشار بوحدَب نحو لسان الزُّحليقة الحديدي:

«تزحلق».

قطّب سليمان حاجبيه يُحدّق إلى بوحدَب. فهسّ الأخير:

«بسرعة!».

فانزلق سليمان نزولًا من دون أن يفوه بكلمة. وتبع المكتوبُ كاتبَه إلى السيّارة التي قطعت شارع إشبيليا مرورًا بمحطة البنزين المبنية على «براحة مستور»، وانعطفت السيّارة في آخر الشّارع إلى قطعة 1. وعند منعطف مسجد الخصيمي التفت بوحدَب إلى الـ «فِيات» البيضاء في ساحة المسجد، فنطق سليمان أول مرة في حضرة كاتب الأسفار:

«سيارة آدم قريب صَنقُور.. يقعد في المسجد بعد صلاة العشاء

يقرأ القرآن حتى صلاة الفجر».

اطمأن بوحَدَب لانشغال آدم، رغم أنه استغرب صوت سليمان على غير ما تخيّله أثناء الكتابة. ودلفَ إلى الشارع 15 وأوقف سيّارته قرب مدرسة نائلة أمام رصيف بيت رقم 301. فطلب إلى الفتى أن ينادي رفيق التّبّة وأن يعود معه في الحال. وترجّل سليمان من السيّارة يمشي بين الـ «كورفِت» المغبرة والـ «كَمارو» المبقّجة مهشّمة النّوافذ، يمضي إلى باب بيت المَصَوْقَر الحديدي الأسود، وهو يكرر الالتفات إلى الرّجل الذي أهدر وقت التّبّة في البحث عنه من أجل الجزء الثالث؛ «سِفر العَنقُوز».

***

«سليمان؟!».

صاح صَنقُور لمّا أقبل الفتى على حجرة مستور القومي المضاءة بشمعة، ينتشر فيها الدُّخان الأزرق السّحري. وخفض عيّاد قصبة الـ «الجوزة» يبحلق إلى الفتى المقيّد بالحديد. قال القصاصة:

«جاء بك الله! كيف خرجت؟!».

«جاء بي كاتب الأسفار.. هو ينتظرنا في السيارة.. قُم فلنسرع إلى الوَظيَة كي لا تفوتنا التّبّة!».

وتطارش عيّاد عن ذِكر سليمان للتّبّة كيلا يُربك صَنقُورًا المتكتّم بشأن سِرّه العظيم، ونهض ابن خادمة المقام يحدّق إلى وجه رفيقه بغير فهم. فصاح عليه سليمان بأن لا وقت لديهما، وأن عليه العودة فورًا إلى فضّة وولده وأمّه، فخرج الاثنان ركضًا إلى الصالون، ولملم

صَنقُور زجاجات ماي غريب والبطاريات الحجرية وطاسات آية الكرسي النحاسية وقطعة العجينة السّوداء في كيس بلاستيكيّ وأحكم ربطه. وقبل خروجهما استوقف عيّاد سليمان يُشير بعينيه إلى أصفاده الحديدية. وأمسك العملاق بيديه قيد الفتى، فقال لـ صَنقُور:

«مطرقة يا كولمن».

وخرج صَنقُور من الصالون وعاد بمطرقة، وثبّت عيّاد يديْ سليمان على الأرض يباعد بينهما بما تسمح به السّلسِلة الوسيطة. يطرقها عدّة طرقات بالمطرقة دونما فائدة. وبوحدَب يكبس زامور سيارته في الخارج. ويتوتّر عيّاد ويطلب من صَنقور طابوقة ومسمارًا كبيرًا. ويهرع القصاصةُ إلى الحَوْش ويعود بالطابوقة، ويقف على عتبة باب الصالون، يفتح ذراعيه وساقيه، يُلصِق كفّيه وقدميه بإطار الباب الخشبي يتسلّق بخِفّةٍ مثل الأطفال، ويغيب في مخزن الجدار أعلى الباب ويُعاود الهبوط بوَتد خيمةٍ حديدي. وضع عيّاد السّلسلة الحديدية على الطابوقة، وثبّت الوتدَ بين حلقاتها قبل أن يهوي عليها بالمطرقة:

«يا أنا يا أنتِ يا بنت الكلب».

فكسر السّلسلة بطرقة واحدة، وتحرّر سليمان إلا من الحديد الذي حوّط معصميه مثل إسورتين. *الحديد يحدُّ الشّرا* وركض الرّفيقان يخرجان من الصالون يتبعهما عيّاد متعثّرًا بجلّابيته الواسعة، قطعَ الحوش يتبعهما، ووقف على عتبة الباب الحديدي الأسود يُرسل نظره وراءهما. ركب سليمان إلى جوار بوحدَب، وفتح صَنقُور الباب

الخلفي فناداه حارس القرية التراثية المُسرّح من عمله:

«كولمن!».

التفت إليه صَنقُور بعدما وضع الكيس البلاستيكي على المقعد. وسأله العملاق:

«ألن تُسلّم على عيّاد؟».

«سوف أعود.. مثل كل مرّة».

أجابه القصاصة وهو يهمُّ بركوب السيّارة، فصاح عيّاد:

«أنا مسافر صباح الغد يا كولمن، ومن يدري؟ ربما لا أعود».

ويدري ابن خادمةِ المقامِ صاحبُ معجزةِ التبّة أنه قادر على زيارة عيّاد في زمن قبل هذا الزّمن، غير أنه عقد العزم على أن لا يزور زمنًا فيه آدم الذي لفظها في وجهه صراحة: بيت المُصوْقَر يتعذّرك. فركضَ إلى رفيقِ الوَنَسِ مُبتكر شخصية كولمن الكويتي الشّهيرة، يتعلّق بكِرشه معانقًا. ولا يدري صَنقُور ما سبب الدّمع الذي هطل على وجنتي العملاق، وسارع إلى السيّارة:

«في أمان الله عيّاد».

وانطلقت سيّارة بوحَدَب والعملاق يشيّعها بناظريه حتى اختفت في آخر الشّارع عند منعطف مسجد الخصيمي. وقاد بوحَدَب السيّارة صوبَ الدائري الثاني، ثم قطع الإشارة الضّوئية يمضي بالقيادة إلى الأمام، وصَنقُور يسأل متشكّكًا في الطريق الذي يسلكه الرّجل غير الطريق الذي يؤدي إلى الوَطية بحسب ما يعرف:

«إلى أين؟».

أجاب بوحدَب:

«يؤذن الفجر في الثالثة والنصف.. عندنا ساعتان إلا قليلًا.. لا تَخَف».

فصاح عليه صَنقور ثانية:

«إلى أين؟!».

أجابه بوحدَب:

«ليس بعيدًا.. إلى الشّامية».

***

«مَن طوّل الغيبات جاب الغنايم.. حيّا الله مَن جانا».

تناهى صوت الشّايب إلينا ونحن نتبع جورج في الممرّ إلى حجرة الصالون، وألفَيناه يقتعد كرسيّه المتحرك، بدِشداشَتِه البيتية المقلّمة، لكن من دون شعره المستعار ولا حاجبيه المزيّفين. يُسند إلى ساقيه كومة الجرائد المكوّرة، وكفُّه اليُمنى مطبقة على مقبض عصاه الذّهبية، وأسفل عجلة الكرسي، عند قاعدة العصا يُقعي القِطّ الأسود ليل على الأرض. توقّفت على عتبة الصالون أُرسل بصري إلى الكتلة الملساء على الكرسي المتحرّك، إلى الوجه الذّابل الخالي من الشّعر مثل عِلكة ممضوغة مبصوقة.

«تفضلوا.. أسفَرَت وأنوَرت واستهلّت وأمطرت».

قال الشّايب قبل أن يرفع صوته:

«القهوة يا جورج».

جلست على الأريكة المقابلة بين سليمان وصنقور. وكأنما ليس في الصالون ترابي اللّون إلا الشّايب وسليمان. ما التفتَ إلينا أنا وصَنقُور لحظةً منذ دخولنا. يبحلق إلى سليمان وعلى وجهه طيف ابتسامة يصعبُ تفسيرها. وارتبك ولد شايعة، تنحنح ونقّل بصره بين الشّايب وبين القِط الأسود وبيني وبين صَنقُور وبين موجودات الصالون هربًا من نظرة الأملط الأملس التي تخترقه في صمت. فتعلّقت عيناه بجبسِ السقف بألوان دعائم الخشب والخوص على الطراز القديم. فأقبل جورج بمصبِّ القهوة والفناجين، واحتسيناها بأكفٍّ مرتعشةٍ إلا صَنقُور الذي اعتاد العجائب.

«تعال».

دعَا الشّايب سليمان ليقترب منه. والتفت الفتى إلى رفيق التَّبّة كأنما يستأنس برأيه، فأومأ إليه القصاصة بأن يفعل. نهض سليمان ومشى بضع خطوات قبل وقوفِه أمام الكرسي المتحرّك. فقشّر الشّايب صفحات الجرائد القديمة المكوّدة على ساقيه، وأخرج منهما نعلين نجديّتين عتيقتين يبس جلدهما البنّي وبهت تطريز خيوطهما الملوّن. التفت سليمان إلى الوراء مفتوح العينين على اتساعهما يُحدّق إلى صَنقُور، غير أن صاحب العجائب ابن خادمة المقام ما فاه بكلمةٍ وهو يرسل نظرةً طويلةً خرساء إلى الشّايب المقعد، وهو الذي كان يحسبُ أن شقيقه مستور الكبير آخر من بقي من مدينة الطِّين القديمة قبل وفاته الشّهر الفائت. نهضتُ ووقفتُ غير بعيدٍ عنهما أُنقّل بينهما بصري. انحنى سليمان يُقرّب وجهه إلى الشّايب مخضّل العينين، كأنما يقرأ كتابًا قديمًا، وشفتاه المطبقتان ترتعشان قبل أن

تنفرجا عن سؤال يدري إجابته:

«خَليفُؤهْ؟».

باعد الشّايب بين شفتيه ببطءٍ حتى لاحَ صفُّ أسنانه النّضيد ناقص النّاب:

«وبس».

بُهِتَ الفتى. يبِسَ ريقه وشُلّ لسانه وتلعثم. تأتأ وتمتم قبل أن يلفظ سؤاله:

«أين أُمي؟».

«وجدها نواطير اللّيل في سوق الصّفارين ميتة تحتضن غترتك التي طَفَت على الماء بعد دخولك التّبّة.. كنتُ قد رميت الغُترة على سور البيت أبشِرُها برجوعك القريب، لكنها جُنّت وخرجت إلى السّكك تلوّح بها وتنادي بأنك لم تمت.. بعدما أنكرَت خبر إغراق نفسك بعد تفريقك عن فضة».

انفلتت من سليمان دمعة وارتعشت شفتاه:

«وفضّة؟».

«انحاشت من البيت الذي صادره بن حامد كي لا تتزوج به غصبًا.. ضحكت عليها شريفة وألقت بها في بيت حمدية.. وعرضت عليها الخاتون حليمة العمل في بيت الزجاج، لكنها ما رضيت لأن العمل عيب.. لأن أهلها لا يرضون.. ولأنك لن ترضى.. فسكنت بيت حمدية أكثر من شهر لا تخرج من حجرتها تنتظر رجوعك».

تصاعد الدّم إلى وجه سليمان وخفض صوته كأنما لا يريد لي ولا لـ صَنقُور أن نسمع:

«ثُمّ؟».

«نامت في بيت بنت الحرام بضعة أسابيع، قبل أن يرجع عبدالرحمن من الزُبير أخيرًا، طرق بيبان جيران بيت أبي جرّاح في المطبّة يسأل عن زوجته وابنته، وقيل له إن أبا جرّاح أخذ بناته وعبيده وسافر إلى الهند بعد وفاة أم جرّاح، وإن قماشة قد ماتت قبل سفر عائلة أبي جرّاح منذ خمس عشرة سنة.. أو ستّ عشرة، وإن عبدة أُم جرّاح -وكلنا عبيد الله- قد أرضعت الصّغيرة، وإنها كبرت في بيت أبي جراح قبل سفره مثل خادمة إلا قليلًا، قبل أن تتزوّج بك، وأنك أغرقت نفسك عامدًا بعد ما عرفت بأمر الرّضاع.. وما جاوبته واحدة من الجارات أين ابنته إلا شريفة.. دلّته على بيت حمدية.. وأخرجها الرجل من بيت الحرام.. فقتلها ودفنها وراء السّور بعد بوّابة الشّامية، وعاد إلى أهله في نجد.. لكن الشّهادة لله.. ما كانت البنت..».

«بَس!».

أخرس سليمان الشّايبَ لا يرغب في سماع المزيد. عصرَ جبينه المتعرّق بكفّه قبل أن يقول:

«وسيف؟ ولدي سيف؟».

طأطأ الشّايب المُقعد في الكرسي المتحرّك على النّعلين بين يديه وتنهّد. أطبق باطنهما وأمسكهما بيمينه قبل أن يصفع بهما سليمان صفعة أطارت الغُترة عن رأسه وكشفت أذُنيه الكبيرتين:

«كان بين يديك وأمام عينيك يا طفل! لعنة الله على الأطفال.. لو كنتَ رجلًا لما تركتَه وجئت بعد كل هذه السنين تسأل عنه!..».

فرّت الدّموع من عيني سليمان، والشّايب يكيل له الشتائم ويقول ما قالته أم حدَب قبل سبعة عقود:

«..ضعيف إيمان.. لستَ رجلًا بعدُ.. صغير وما خبرتَ الدنيا.. دلُّوع وغدًا تكبر وتعقل.. أما كبرت الآن؟ أما عقلت؟..».

ارتعدت فرائص الفتى، وتقهقر إلى الأريكة يُسقِط نفسه جالسًا، وقد أشفقنا عليه صَنقُور وأنا، والشّايب الرّخو يُبدي صلابة غير مألوفة وهو يكيل له التُهم واللّوم والسّباب. ويرمي عليه النّعلين العتيقتَين:

«..خُذ نعليك يا حافي.. البسهُما إن كنت تنوي البقاء في زمن ولدك اليوم.. أو عُد إلى زمانك حافيًا فتجد نعليك جديدين عندي.. عند خَليفُوْه وبس في بيت القُطاوة».

والفتى يرفع رأسه إلى السّقف ذي الدّعائم الخشبية المزيّفة والحصير، والدّمع يهطل من عينيه سخيًا:

«ولدي؟ أين ولدي اليوم؟».

عاجله الشّايب بردٍّ يُشبه بصقة:

«موجود..».

فتهلّل وجه سليمان على أدمُعِه قبل أن يردف الشّايب:

«..ولقد أخبرته بأمر مجيئك.. قُم إلى السّيف عند قرية يوم البحّار..

تجده هُناك.. ويقابلك قبل عبوركما التّبّة أنت وصَنقُور.. يُسلّم عليك، فتقول له ما شئت وتحقّق آخر مطالبك الثّلاثة، فتعبر التّبّة إلى أمس، وتظهر من الموجة السّابعة.. اِلحق على أمك قبلما تموت، واشتر فضّة واحفظها من قتلِ أبيها، وأرجع ولدك الذي ما مسّته نار بيت أُم البنات إنما رمته أم حَدَب في حضن امرأةٍ وحيدة».

«لكن فضّة على ما قلتَ قد ماتت».

«اِنسَ ذاك الزّمن الذي صار فلن تفهم لعبة الأزمان، وإن هناك زمنًا الآن يصير. أمامك فرصة يا ولد، سوف ترجع فجر اليوم وقد فارقت الدّيرة شهرًا من حصار القصر الأحمر بالتّمام. ترجع يا ولد شايعة فتجد أن البنت قد أخرجها من كيس الفحم وحش البحر بُوْدَرياهْ، وصانها في بيتي القديم عند سوق الحريم مثل ماسة».

«بُوْدَرياهْ؟».

سأل سليمان وما أفهمه الشّايب ولا أجاب بغير قوله:

«سوف تسمع عنه مثلما سمعت طول عمرك لكنك لن تراه، لأنك تعبر التّبّة إلى أمسٍ في اللحظة التي يعبر فيها إلى اليوم».

قلت في نفسي إنها اللحظة التي سوف أُصدّق فيها كلّ ما أنا فيه، إذا ما عاد غايب من البحر بعد قليل في ساحل الوطية، فيصير أمرُ التّبّة واقعًا لا مجال لدحضه. وارتفع أذان الفجر الأول من مسجد الخصيمي، فصاح الشّايب:

«شغّل السيّارة يا جورج».

التفت إلى سليمان وصَنقُور:

«إلى الوَظية قبل الأذان الثاني».

قلت له إني آتٍ معهم، أو بالأحرى هم آتون معي إلى هناك. وهرعت إلى سيّارتي يتبعني صَنقُور وسليمان والشّايب على كرسيِّه المتحرّك يدفعه جورج.

جلست وراء المقود، إلى جواري الشّايب، وجلس على المقاعد الخلفية جورج وصَنقُور يتوسّطهما سليمان. واستشعرت في ضوء أعمدة الإنارة في الشّارع غُبارًا عالقًا في السّماء، ليس هذا أوانه! وانطلقت أقود سيّارتي أقطع الشّوارع من الشّامية صوبَ مواقف القرية الثّراثية في الوَظية، ومكثنا في صمت السيّارة لا يتحدّث مِنّا أحد، وسليمان يغوص في مقعده بين جورج وصَنقُور كلما مررنا بسيارة شرطة. والغُبار يهبط ببطء، ولا صوت إلا صوت نغمات الـسَنكِني يتناهى إلى مسامعنا خفيضًا من كاسيت السيّارة.

أوقفت السيّارة في مواقف قرية «يوم البحّار»، وتلثّمت بغترتي وأحكمت رباطها بعدما تنفّست من بخّاخ الفنتولين. وترجلنا وجورج يدفع الشّايب على كرسيِّه المتحرك. وانصرف لحظة وصولنا مجموعة من الشّباب الشكارى، مُخلّفين وراءهم زجاجات الكولونيا على الصّخور يهربون من الغُبار. عبرنا صخور الشّاطئ إلى الرّمل على حدود مياه المدّ ننتظر أذان الفجر الثّاني وإقبال الموجة السّابعة. وأنا في عبث الأحداث وسوء الطّقس وحيرة الموقف أنصِت في رأسي إلى همهمات ترتفع وتخبو:

«هولو هيهْ.. هولو هيهْ»

تتناهبني الشُّكوك في مسألة التّبّة من جديد، ووَمَضَت في رأسي

مشاهد هجينة بين خيالٍ كتبته وحقيقة أعايشها، منذ تخايل لي أني أبصرت من نافذة مكتبي، أول سِفر العَنقُوْن، عبور سليمان وصَنقُور عند دوّار بوابة الجهراء، غير أني أمّلت نفسي بعودة غايب بُوْدَزياهْ بعد قليل، بعد غياب الشّهر، أشهده بعينيّ يخرج من التّبّة نفسها فأصدّق حكاية العبور.

مكثنا، الشّايب وأنا وسليمان وصَنقُور وجورج، ننتظر ارتفاع الأذان. والهمهمات في مسامعي لا تكفُّ.

«هولو هيْه.. هولو هيْه»

سألتهم إن كانوا يسمعون ما أسمع، فنظروا إليّ في ريبة وما ردّ فيهم إلا الشّايب:

«صوت البلابل؟».

وما أجبت. فوضع صَنقُور كيسه البلاستيكي على الرّمل عند حدّ مياه المدّ وانتظر يواجه الموج المقبل، وقف مثل المعتاد على الانتظار في محطّات حافلات النقل العام. أما سليمان فقد اقترب من الشّايب بأساوره الحديدية ونعليه العتيقتين، مال على كرسيّه المتحرّك ينظر إلى عينيه يقول:

«سوف تُقبل الموجة السّابعة وما أقبل ولدي على السّيف على ما وعدتّني، فأقول له ما أردت قبل أن يودّعني».

وما كاد سليمان يلفظ قوله حتى التفتَ إلى شيءٍ وراءنا. فالتفتنا جميعًا إلى وجهةٍ يُبصرها الفتى مُخزّر العينين، ولاحَ من ورائنا خيال شخصٍ يُقبل على مهلٍ من ناحية مواقف السيّارات في غبشة الفجر

المغبر. وتحفّزنا صَنقُور وأنا ناحية سَيف ولد سليمان بِن سهيل المُحتمل، يُقبل بعد طول انتظارٍ في نهاية سِفر العَنقُوز. فصاح عليه صَنقُور:

«ما الذي جاء بك؟!».

وتبدّى لنا العملاق يقتربُ بجلّابيته واسعة الكُمّين يُلوِّح من بعيد، وسليمان يسأل الشّايب في عَجب:

«عيّاد؟! عيّاد ولدي؟!».

«الله أكبر الله أكبر»

ردّدَ الشّايب التّكبيرات هامسًا لمّا سبقَ مؤذن مسجد «السّاير» مساجدَ الدّيرة. وتصاعد الأذانُ من مئذنتِه في السّماء فوق المساجد والبنايات يمضي في الهواء نحو السّيف. فتبعته مآذن الدّيرة تصدح بالأذان. وسليمان يتحرّى من الشّايب إجابة وعيّاد يقترب.

«الله أكبر الله أكبر»

كرّر سليمان سؤاله للشّايب:

«أجبني! عيّاد.. ولدي؟!».

هزّ الشّايب رأسه:

«لا».

فصوّب سبّابته نحوي:

«بل هذا الأهطل الذي يكتب ولا يفهم».

«أشهدُ أن لا إله إلا الله»

هرعَ صَنْقُور إلى عيّاد يعاتبه على مجيئه، وأنا عالق فيما قاله الشّايب. أنا أهطل؟! وسليمان يخترقني ببصره بعد القول الأخير، ويسألني:

«أنت؟!».

انفلتت مني ضحكة من وراء لثامي، والتفتُّ إلى الشّايب:

«أنت شايب خَرِفٌ لا تدري ما تقول».

«بل أدري وأنت الذي تكتب ولا تدري..».

«أشهدُ أن لا إله إلا الله»

نهضَ يتكئ على عصاه الذّهبية. واستلّ نفسًا طويلًا قبلما يُفضي:

«..اِسمع يا كاتب الأسفار يا من سحرته الحكايات وكتب وما فكّر فيما كتب..».

«أشهدُ أن محمّدًا رسول الله»

أكره ثقته ويرفضها قلبي لكن عقلي يوشك أن يُصدّقها. أفلتَ ضحكة من أنفِه واستطرد:

«..بعدما شبّت النّار في بيت أم البنات يا كاتب الأسفار.. يا عليم يا فهيم.. قذفت أم اللّوْة رحمها الله بولدنا أنا وفردوس على أم غايب، قالت خيرًا له أن يكبر بعيدًا عني وعن أمّه..».

«أشهدُ أن محمّدًا رسول الله»

«..أما أنت، أخو ولدي من الرّضاع، فقد أخذتك أمُّ اللّوْه إلى بيت هيلة العَويج، امرأة ما تزوّجت ولا سند لها، اشترتك ولدًا بالذّهب. وأسمتك الصاجّة صادق بوحَدَب.. نسبتك إلى اسم لا وجود له.. اسم بلا نسَب لرجل اسمه عبدالرزاق بوحَدَب غير موجود إلا في خيالها، ما مات عبدالرزاق في الغوص ولا كان في الدنيا رجل يحمل هذا الاسم.. قلت لك إنها من أسمتك صادق بوحَدَب.. هي من كتبتك وخطّت مصيرك.. وأنت تكتب بلا فهم مثل المغفل.. كتبتَ أُمّكَ بالتّبني في سِفر العباءة وسِفر التَبّة، لكنك ما فهمت حرفًا مما كتبت يا كاتب الأسفار».

«حيّ على الصّلاة»

اصطكّت رُكبتاي وأنا أتذكر هيلة التي ظهرت في النّصّ لِمامًا.لستُ مغفّلًا، لكن ما أكثر حاملات الاسم في الدّيرة! شعرت الأرضَ تمور تحت قدَمَيّ وأنا أواري ارتباكي بضحكٍ مُفتعل:

«لستُ خبلًا كي أصدّق هذا الخَبَال».

«ارفع غُترتك عن أُذنيك يا سيف يا ولد سليمان بِن سهيل.. ترى فيهما أُذنَي أبيك الواقف أمامك».

«حيّ على الصّلاة»

وما رفعت غير حاجبيّ إزاء قوله. في الدّنيا ملايين لهم آذان كبيرة. وسليمان ينظر إليّ فاغر الفم. والغُبار الهابط يتكثّف مثل شخصٍ من تُراب. كدتُ أُجيب غير أني ما قدرت. فأغربتُ في السّعال والضّحك الذي لا يُشبه الضّحك:

«حسنٌ.. ماذا يعني كل هذا الآن؟».

افترّ ثغره عن ابتسامته البغيضة ناقصة النّاب:

«قلت لك منذ لقائنا الأول يا ولد فضّة..».

ترك جملته مفتوحة لبضع ثوانٍ قبل أن يُردِف:

«..لا تلعب مع أم اللّوْه».

«حيّ على الفلاح»

وتعانق صَنْقُور وعيّاد غير بعيدٍ عنّا، وأنا في حيرتي أهرب من عينيّ سليمان. لامَ الرّجلُ الطّفلُ عيّاد على مجيئه. وقبل أن يدير له ظهره ويواجه البحر ناوله القلادة الذّهبية وقال:

«ذهب.. بِعها فإنها غالية.. اِذهب الآن».

«حيّ على الفلاح»

وعيّاد يُطبق كفّه الموشومة بالصّليب على قلادة الصّليب بلا فهم، والشّايب يصرخ على سليمان وهو يُشير صوبي:

«هذا ولدك الذي عبرت من أجله الزّمن لتقول له ما تقول.. هيّا قُل ما لديك واِدلف عن وجوهنا إلى الموجة السّابعة وعد إلى زمانك يا ولد شايعة».

«الصّلاةُ خيرٌ من النّوم»

خطا سليمان بضع خطواتٍ إليّ وأنا في قمّة النّفور أودُّ أن أدفعه. أودُّ أن أُغرقه على السّيف وأخلص من كل هذا الجنون، لكنني ضعفت حينما حطّت نظرته على عيني بغير أن يفوه بكلمة. أعرف أن الأُبُوّة

والبُنُوّة عِشرة، أتكون نظرة؟ ما رزقني الله بولدٍ كي أعرف مشاعر الأب، ولا عشت في كنفِ أبٍ كي أفهم ما يكون عليه حِسّ الابن.

«الصّلاةُ خيرٌ من النّوم»

ارتبكت أكثر، فأقنعت نفسي بعبث الفكرة ولا منطقيتها، لكني لمّا أمسك الفتى بكفّي مُصافحًا انتابني حِسّ غريب، وتبدّدت ذاكرتي السّماعية كلها عن عبدالرزاق بوحَدَب، البحّار الذي مات بين أسنان الذّيبة في الغوص على ما قالته أمّي.. على ما قالته المرأة العَزْبة هيلة العَويج.

«الله أكبر الله أكبر»

«جئتُ لأقول لك ما حسبته سِرًّا، لكنك كتبت ما كتبت وعرفت كلّ شيء ولا داعي إلى أن أقول».

انفلتت دموعي والغبار الكثيف يهبط. وكفُّه تضغطُ على كفّي المرتجفة. تسارع نبضي وتحشرجت الكلمات في حنجرتي غير قادرٍ على لفظِ كلمة. ثقلت أنفاسي وسعلت. فسحبتُ كفّي من كفّه. فككتُ لِثامي وأطبقت شفتيّ على بخاخ الفنتولين. ولا أدري كيف مرّت اللّحظات في حربٍ محتدمةٍ بين عقلي الرّافض وقلبي المُصدِّق ورئتيّ المستثارتين. الذي أدريه أني لا أريد عناق هذا الفتى لئلّا أحبّه أكثر.. أُحِبّه أبًا ما عرفته يومًا، وفي سِنّ حفيدا!

«لا إله إلا الله»

وراح الشّايب يعُدُّ الموجات المُقبلة:

«الأوّلَه..»

قلتُ لـ سليمان:

«اِبقَ معي يُبَهْ..».

ووقعت كلمة يُبَهْ في نفسي وصفًا لا يُشبه الموصوف. فأردفتُ قولي بإشارة من كفِّي صوبَ البحر:

«..لكن من الأول».

بكيت. وفهِمَ سليمان لِمَ بكيت. نظر صوبَ الموج المقبل وقتَ صاح الشّايب:

«الثانية..».

وهرعَ صَنقُور يحملُ غنائم التّبّة في الكيس البلاستيكي هدية إلى أُمّه خادمة المقام. ونادى سليمان أن يُسرِع. فخلع سليمان نعليه العتيقتين على السّيف، والشّايب يعُد:

«الثالثة..».

ووقفتُ إلى جوار الشّايب المتكئ على عصاه وجورج وعيّاد. والشّابان يخوضان في مياه المدّ حتى حاذى الماءُ سُرّة سليمان وكتفيّ صَنقُور، والشّايب يحسبُ:

«الرابعة..».

أمسكَ سليمان بيد صَنقُور قبل أن يُدير وجهه إليّ في غبشة الفجر والغُبار، وعيناه تقولان ما لا يُكتَب. والشّايب يواصل:

«الخامسة..».

شعرتُ لوهلةٍ بأن هذا الفتى يموت، وأن أسطورة التّبّة خرافة

مستحيلة التّصديق.

«السادسة..».

غير أني تشبّثت بأمل عودة غايب بُوْدَزياهْ من الموجة نفسِها فيصدُق رجائي.

«السابعة».

صاح سليمان وعيناه إلى عينيّ قبل أن يغطس هو ورفيق التّبّة:

«سامحني!».

وغطس الاثنان مع طلائع الضّياء. وكفّت أصوات أهزوجة هولو هيهْ في رأسي. ومكثنا أربعةً على سِيف الوَظية يطوّقنا الخَرَس والغُبار. وأنا أسأل نفسي هل تعود سمكة العَنْقُوز المنطفئة إلى موطنها زاهية الألوان أخيرًا، تشعُّ زُرقة داكنة، تتوهّجُ البُقعتان الصّفراوان على جانبيها ثانيةً مثل شمسَين ساطعتين. أو أنه المولاف، يعود إلى غصنه في البيت القديم، ويعود غايب في اللحظة ذاتها من أمس فأُصدّق.

ومضَت الدّقائق ولا ظهر غايب بُوْدَزياهْ من البحر بعد غيبة الشّهر. فهطل الدّمع من عينيّ الشّايب الباسم وتحشرج صوته:

«أخوك من الرّضاع.. اختار أن لا يعود».

واختفى سليمان وسلّمت بأنه عَبَر، لكن جسد صَنْقُور طفا مثل خِرقةٍ بالية، مثل طفلٍ غريقٍ دفعته أمواج المدّ إلى الرّمل. فسقط عيّاد على رُكبتيه وصاح:

«كولمن!».

انتهى سِفرُ العَتفُؤز

مَن يكتبُ سِفرَ المُؤلاف؟

تمّت

أسفار مدينة الطين

العباءة – التَبّة – العَتفُؤز

يونيو 2015 - يوليو 2024

قالوا عن أسفار مدينة الطِّين:

«إن أسفار مدينة الطين تتخطى عتبة الرواية، وتحرج النوع: الرواية التاريخية. هي هذا كله وأكثر. ملحمة بالمعنى اليوناني، محكومة بتراجيدية خفية، وأحيانا ظاهرة عن الذين صنعوا لنا تاريخ اليوم وجغرافية الحاضر التي تدمينا وتجرحنا. هي نص المصائر المتقاطعة والأمكنة الرطبة والرمال التي نخفي سرها».

واسيني الأعرج

«أهنئ سعود السنعوسي وأهنئ روايتنا العربية، عمل ملحمي وتأسيسي من الأعمال الكبيرة التي ستبقى طويلًا. عمل فريد بشخصياته وأحداثه وأساطيره، وبالبحر الذي هو شخصية حقيقية مذهلة في هذه الرواية».

إبراهيم نصرالله

«جميل وثري ولافت هذا العالم الذي قادنا إليه سعود السنعوسي بدراية في رواية «أسفار مدينة الطين». سيل هادر من الخرافات والمعتقدات والأساطير والتواريخ والحكايا. تتقاطع وتتواشج وتتآلف فينهض بلد بأكمله (الكويت)، أبطاله عرافات وصيادو لؤلؤ وعلماء دين ورجال سياسة وتجار في فترة تاريخية حرجة بدأت فيها الحداثة تطل برأسها. و هذه اللغة متينة جزلة دقيقة موحية».

الحبيب السّالمي

«أسفار مدينة الطين أنموذج للاشتغالات السردية الجادة التي تبرز الرواية من حيث هي عمل أدبي يتدخل في التاريخ والاجتماع

والسياسة، عمل لا يهدف إلى مجرد الإمتاع بالحكي».

د. سعد البازعي

«أعتقد أنني لم أقرأ عملًا ملحميًا منذ الحرافيش لنجيب محفوظ ومدن الملح لمنيف، ولا أستطيع إلا أن أضع هذا العمل في مصاف تلك الأعمال الملحمية».

زهران القاسمي

«تكشف هذه الرواية بوضوح إلى أين يتجه المشروع الروائي لسعود السنعوسي، ويمكننا القول إن سعود في هذه الرواية يبدأ مرحلة جديدة في مشروعه الأدبي».

حمُّور زيادة

«ليس للمرء التنبؤ بمستقبل الأدب العربي حتمًا، سيما وأن الخيبات أكثر من أن تُعدّ، إلا أن هذه الرواية حفرت لها مكانًا مستحقًا».

يزن الحاج

«ثلاثية أسفار مدينة الطين عمل صبور، وملحمة سردية جسورة، ودرس في الثقافة الموسوعية وفن التقاط التفاصيل، ولا يملك القارئ بعد فراغه منها إلا أن يهنئ نفسه بتحفة سردية ملهمة ستبقى في ذاكرته طويلا. يستطيع سعود السنعوسي أن يستريح الآن بعد إنجازه رواية العمر هذه. ولكن هل سيفعل؟ أنا على ثقة أنه سيباشر فورا صعود قمة جديدة. وإنّا نحب ما يأتي به سعود».

د. منى حبراس السليمية

إلى كثيرٍ لا يعُدُّه عدد؛

إلى ربّة الذّاكرة الزّرقاء

وإلى أحياء مدّوا هذا العمل بمعلومةٍ في كتاب، أو رأيٍ أو رَسْم، أو تصحيحٍ أو تنضيدٍ أو تصميم، أو إشادةٍ أو عَتَب. وإلى أمواتٍ خالدين في كُتُبٍ لولاها ما كان لهذه الرواية أن تكون.

وإلى إسماعيل فهد إسماعيل الذي بارك ثلاثة فصولٍ متفرقةٍ من الثلاثية قبل رحيله..

وإلى كثيرٍ معدود:

سليمان المدّ الذي أخذه الجَزْر.

سعود

يوليو 2024

إصدارات سعود السنعوسي

1. «سجين المرايا»، رواية، 2010.
2. «ساق البامبو»، رواية، 2012.
3. «فئران أمي حصة»، رواية، 2015.
4. «حمام الدار: أحجية بن أزرق»، رواية، 2017.
5. «ناقةُ صالحة»، رواية قصيرة، 2019.
6. «أسفار مدينة الطين»، ثلاثية روائية:
   - «سِفرُ العباءة» I، 2023.
   - «سِفرُ التَّبّة» II، 2023.
   - «سِفرُ العَنقُوز» III، 2024.